عبد العزيز ففتحها من جديد.

امتدت فتوح موسى إلى برشلونة شرقاً وأربونا في الجوف وقادس في الجنوب الغربي وجليقية في الشمال الغربي. ثم التقى موسى بطارق في مكان من كورة طلبيرة، فحط شأنه وأظهر ما في نفسه من حقد وموجدة عليه لمخالفته أمره، بل ضربه بالسوط ووبخه على استبداده برأيه وطالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها ثم سجنه[1].

غير أن طارقاً استطاع وهو في سجنه أن يبث شكواه إلى الخليفة الوليد، فكتب إلى موسى بإطلاقه ورده إلى عمله. ثم سار موسى وطارق لفتح شمالي أسبانيا، ففتحا أقاليم أرغونة وقشتالة وقطلونية، كما استوليا على سرقطسة وبرشلونة، واستمرا في السير حتى بلغا جبال البرانس. وتم بذلك فتح أسبانيا عدا الأقاليم الجبلية في الشمال الغربي التي التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم.

ولم تقف أطماع موسى عند حد جبال البرانس، بل عزم على مواصلة الفتوح في جنوب بلاد فرنسا الحالية، على أن يتجه شرقاً حتى يصل إلى القسطنطينية التي عجز العرب عن فتحها، ثم يستمر في فتوحه حتى يلحق بحاضرة الخلافة وبذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية. ولما بلغ الخليفة الوليد ذلك أمره بالكفّ عن التوسع واستدعاه هو وطارقاً، لأنه لم يرض أن يعرض المسلمين للخطر، ولأنه كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد إذا تم له فتحها، وكتب إلى موسى أن يعدل عن تنفيذ هذه الخطة الجريئة. فرحل إلى دمشق سنة ٩٦ هـ بعد أن ولى ابنه عبد العزيز بن موسى عليها، وولى ابنه عبد الله على إفريقية. وقبل وصول موسى إلى دمشق مرض الوليد مرض الموت فطلب أخوه سليمان، وكان الوليد قد ولاه عهده، إلى موسى أن يبطىء في السير حتى يموت الوليد طمعاً في الحصول على الغنائم والتحف التي كان يحملها هذا القائد. غير أن موسى لم يعمل بهذا الرأي فحقد عليه سليمان كما سيأتي. أما طارق فقد انتهت حياته في غموض كما بدأت في غموض. وكل ما ذكره المؤرخون أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره.

خلف عبد العزيز بن موسى بن نصير أباه في ولاية الأندلس كما تقدم، فنظم الحكومة، وألف مجلساً خاصاً لاستنباط الأحكام الشرعية التي تتفق وحالة السكان وعني بالزراعة ونظم الطرق، ورفع عن الأسبان مظالم القوط؛ فخفف الضرائب التي أثقلت كاهلهم وساوى فيها بين طبقات الأمة من غير تمييز في الدين والجنس. كما أمن الآهلين على دينهم وأموالهم وأنفسهم وحريتهم، وشجع العرب على الاختلاط والتصاهر معهم، وتزوج هو بأرملة لذريق التي بقيت على دينها.

---

(١) المقري جـ ١ ص ١٢٥، ١٢٧ ـ ١٢٨.

وكان من أثر مغالاة عبد العزيز بن موسى في إرضاء المسيحيين، أن نقم عليه بعض أعدائه ووشوا به عند الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي كان يخاف خروجه عليه انتقاماً لأبيه، فأثار جند الأندلس وأوغر صدورهم عليه فقتلوه بعد أن حكم هذه البلاد سنتين[١].

وبعد أن قتل عبد العزيز بن موسى أقام الجند قائدهم أبا أيوب بن حبيب الفهري ابن أخت موسى بن نصير والياً على الأندلس، فأخذ يطوف البلاد وينشر العدل في أرجائها، غير أن مدة ولايته لم تطل، فقد عزل لعدم موافقة والي إفريقية على تعيينه، وكان لهذا الوالي حق تعيين الأمراء على بلاد الأندلس، فخلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٧ هـ، وبقي في ولايته سنتين وثمانية أشهر[٢].

٣ ـ **أثر فتح الأندلس**: غير الفتح الإسلامي حال أهل الأندلس بوجه عام. فقد زال الحكم القوطي وآثاره عن تلك البلاد، ولم يبق للقوط شوكة، إلا فريقاً اعتصم في جبال جليقية في الشمال الغربي، وقد آلت ممالكهم وأموالهم إلى العرب الفاتحين، وأبقى العرب على بعض الذين أعانوهم من الحكام القدماء، فأعيد جوليان إلى حكم سبتة كما كان، وردت إلى أبناء غيطشة أموالهم وضياعهم الكثيرة[٣].

أما اليهود فقد ذاقوا الذل والهوان في حكم القوط، فقد سمح لهم العرب بمزاولة التجارة، وأمنوا على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وسمحوا لهم بحرية الملكية، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة فنبغوا ونبهوا[٤].

وأحسن العرب معاملة الذين حل بهم البؤس والشقاء قديماً، فنالوا في عهد العرب كثيراً من الحقوق المدنية، فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج. وكان هم العرب منصرفاً إلى توطيد السلام بين الأجناس المختلفة، فانقاد الأسبان لحكمها لما وجدوا فيه التسامح الذي كانوا ينشدونه.

وقد دان بالإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابت، متحولين إليه من دنياهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها وانصرفوا إلى مطامع الدنيا فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم. (أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئاً. وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو

---

(١) المقري نفح الطيب حـ ١ ص ١١٠

(٢) المقريزي حـ ٢ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٦

(٣) المصدر نفسه حـ ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٧

(٤) المقري حـ ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١. أرنولد الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ١٥٥

الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد)[١].

٤ ـ حروب العرب فيما وراء البرانس: لم يحقق موسى بن نصير فكرته الجريئة التي كانت تهدف إلى فتح جنوبي أوروبا، فلم تتعد فتوح العرب جبال البرانس، إلى أن ولى عمر بن عبد العزيز، السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ـ ١٠٢ هـ) بلاد الأندلس، فجدد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس، وزحف على مقاطعتي سبتمانيا وبروفانس، ثم أغار على أكيتانيا، وكانت مقاطعة مستقلة جنوبي نهر اللوار، وحاصر تولوز (طلوشة)، فقابله بودو دوق أكيتانيا بجيش كبير، ونشبت بين الفريقين معركة عظيمة قتل فيها السمح وأكثر رجاله، فتولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي قيادة الجند ، فانسحب بفلول جيشه إلى مدينة نربونة .

وقد أدخل السمح كثيراً من ضروب الإصلاح، فخمس الأراضي التي فتحت عنوة (بأمر عمر بن عبد العزيز) وبنى قنطرة قرطبة.

وفي سنة ١٠٣ هـ تولى على بلاد الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي من قبل والي إفريقية، فعاد إلى غزو بلاد غالة واستولى على سبتمانيا، ووصل إلى حوض الرون، وتوغل في إقليم برغندية حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها. ولكنه قتل أثناء عودته (١٠٧ هـ)، فاضطر العرب إلى التقهقر إلى نربونة ثانية، ووقف تيار الفتح أربع سنين بسبب قيام الاضطرابات الداخلية في الأندلس؛ إلى أن تولى حكم هذه البلاد عبد الرحمن الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية في عهد هشام بن عبد الملك، فوطد النظام في أرجاء البلاد، وأصلح ما أصاب الجيش والإدارة من خلل، ثم تفرغ للقتال في بلاد غالة، فخرج في ثمانية آلاف رجل واستولى على دوقية أكيتانيا.

وقد استعان دوق أكيتانيا بالفرنجة، فجمع شارل مارتل جيشاً ضخماً لقي به العرب على مقربة من بواتييه حيث دارت بينهم الموقعة المشهورة بموقعة تور، في الموضع المعروف ببلاط الشهداء، وتعرف هذه الغزوة بغزوة البلاط كما عرفت غزوة السمح بن مالك من قبل[٢]. وكانت الغنائم التي غنمها المسلمون في أكيتانيا من الكثرة بحيث خشي عبد الرحمن أن تشغل الجند وتعطل حركات الجيش. وبعد مناوشات دارت ثمانية أيام دارت رحى القتال إلى أن غابت الشمس. وفي اليوم التالي هجم المسلمون على العدو وكاد النصر يتم لهم، لولا ما أشيع من أن العدو استولى على ما خلفوه من غنائم. فأسرع الجند لحمايتها ووقع الاضطراب في صفوفهم وأصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته، فتفرقت كلمة المسلمين، واختلف رؤساء الجند

---

(١) أرنولد الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ١٥٧، ١٥٩

(٢) المقري نفح الطيب حـ ٢ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٦

واصطروا إلى الانسحاب في ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون، ولم يتعقب شارل مارتل فلول جيش المسلمين خشية أن يكون انسحابهم تدبيراً للإيقاع بهم.

وتعتبر موقعة تور من المواقع الحاسمة في التاريخ، إذ لو تم النصر للعرب لوقعت أوروبا في أيديهم وانتشر الإسلام فيها، ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة، بل أخذوا يتراجعون إلى بلاد الأندلس، حتى أنه لم يبق لهم فيما وراء البرنس إلا مقاطعة سبتمانيا، ولم تكن حروبهم بعد ذلك إلا غارات لا أهمية لها.

وكان من أثر ما أحرزه شارل مارتل من انتصار على العرب أن ذاع صيته ولقبه الفرنجة شارل مارتل أي شارل المطرقة.

٥ ـ الأندلس في أواخر العصر الأموي: على أن العصبية القبلية لم تلبث أن ظهرت بين العرب في الأندلس، بين الشاميين والبلديين (وهم عرب الحجاز)، وبين البربر والعرب، بل بين العرب أنفسهم من يمنية ومضرية، وأصبح بعض المسلمين يستعين بالفرنجة على إخوانهم في الدين، ورأى الفرنجة تغلب المسلمين على بلاد الأندلس، فهالهم هذا الأمر وعملوا على مناوأتهم وإخراجهم من البلاد. وخشي الفرنجة توغل العرب في بلادهم، فاجتمعوا إلى ملكهم (قارلة) (هو شارل مارتل)... فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أوتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لها، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغنى كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع. ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر[1].

ولا غرو فقد قام النزاع بين العرب والبربر. وما كاد شر البربر يزول من الأندلس، حتى قام النزاع بين المضرية واليمنية: فقد تولى أبو الخطار بلاد الأندلس سنة ١٢٥ هـ، فقام في وجهه الصميل بن حاتم ـ وكان مضرياً ـ وخلعه وأسره وولى عليهم واحداً منهم (١٢٧ هـ). ولكن هذا الوالي الجديد، أو الثائر بعبارة أدق، توفي بعد سنتين (فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار وامتنعت مضر ورأسهم الصميل وافترقت الكلمة، فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير... فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري، فوليها يوسف وكان (مضرياً) سنة تسع وعشرين (ومائة)، فاستقر الأمر على أن يلي سنة

---

(١) المقري نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٠

ثم يرد الأمر إلى اليمن فيولون من أحبوا من قومهم. فلما انقضت السنة أقبل أهل اليمن بأسرهم يريدون أن يولوا رجلاً منهم، فهم الصميل فقتل منهم خلقاً كثيراً... واجتمع الناس على يوسف ولم يعترضه أحد... وبقي يوسف على الأندلس إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام[١].

٧ ـ سليمان بن عبد الملك
(٩٦ ـ ٩٩ / ٧١٥ ـ ٧١٧)

Gener ı'

اتسعت رقعة الدولة الأموية في الشرق والغرب في عهد الوليد بن عبد الملك كما تقدم. أما في عهد سليمان فإنه لم يكن هناك من فتح غير بلاد جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب أمير بلاد المشرق وحصار القسطنطينية.

١ ـ فتح القسطنطينية:

وكان الوليد قد شرع في إرسال حملة للاستيلاء على القسطنطينية، ولكنه توفي قبل مسير هذه الحملة. فلما ولي سليمان الخلافة، أنفذ هذه الحملة ورابط في مرج دابق على بعد أربعة فراسخ من حلب[٢]. وقد دافع أنستاسياس الثاني امبراطور الروم عن حاضرة ملكه بكل ما أوتي من قوة، وأرسل إلى الثغور حملة لتحول دون وصول الأقوات والمؤن إلى جند المسلمين، ولكنها أخفقت، وانضم إلى جيش المسلمين في آسيا الصغرى ليو الأزوري البيزنطي، وكان يطمع في الملك، واتحد مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان أمير هذه الحملة. ومن ثم أخذ المسلمون يستولون على بلاد آسيا الصغرى مدينة تلو مدينة حتى عبروا البحر ووصلوا إلى أسوار القسطنطينية، وتبعهم أسطول المسلمين من الثغور الشامية والمصرية، واشترك في حصار حاضرة البيزنطيين.

غير أن ليو خرج على صفوف المسلمين وأعلن نفسه امبراطوراً بدلاً من انستاسياس الذي كان مكروهاً من الأهلين. واشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر، وهاجمها أسطولهم، فعمل ليو على استدراج سفن المسلمين، ففتكت بها النار الإغريقية ونفذت أقواتهم، فتحملوا آلام الجوع والمرض حتى فني جلهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم، وعادت الحملة تجر ذيل الخيبة، كما أخفقت الحملة التي سبقتها في عهد معاوية.

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٩٨ ـ ١٩٩. المقري جـ ٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) والمرج كان ينزله مسلمة بن مروان إذا غزوا الصائفة في ثغر المصيصة، وبه قبر سليمان بن عبد الملك.

٢ ـ تنكيله بولاة أخيه الوليد ـ وفاته:

هذا إلى ما كان من إيثار بعض ولاة سليمان وعماله عن النيل من البعض الآخر. ومن هؤلاء محمد بن القاسم في الهند، وقتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر، وموسى بن نصير في الأندلس، وأسرة الحجاج في العراق.

كان سليمان بن عبد الملك يبغض الحجاج وأهله وولاته، حتى أن الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان، وذلك لما كان من إجابة الوليد إلى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز. فلما ولي سليمان الخلافة وولى يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند، أخذ محمد بن القاسم ابن أخت الحجاج وقيده وحمله إلى العراق. وكا حمد محبوباً من أهالي السند لحسن سيرته فيهم، حتى إنهم بكوا عليه حين فارقهم، ولما وصل محمد إلى العراق حبس في واسط، ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن وقتله. وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة الذي نسي بلاءه وعظيم أعماله.

وحقد سليمان بن عبد الملك كذلك على قتيبة بن مسلم الباهلي لأنه كان ممن وافق الوليد على عزله من ولاية العهد، وأما موسى بن نصير فقد تعجل الذهاب إلى الخليفة الوليد قبيل وفاته ومعه الأموال والغنائم، ولم يصغ إلى طلب سليمان إياه التريث حتى يموت الوليد ويؤول إليه غنائم الأندلس. ومن هذا ترى أن سليمان كان مدفوعاً في حقده على أولئك الرجال بعوامل شخصية، ومن ثم لم يكن من سبيل إلى نبوغ القواد وإخلاص قلوبهم لخلفائهم بعد أن رأوا أن إخلاصهم كان وبالاً عليهم.

لم يعمر سليمان في الخلافة أكثر من سنتين. وقد اشتهر بالفصاحة بعكس أخيه الوليد وكان فوق ذلك نهماً مغرماً بالطعام والنساء. وقد دب الترف والبذخ في البلاط في عهد سليمان، وتسرب إليه الفساد، فأكثر من الخصيان، وتعددت هذه الرذائل إلى الولاة والأمراء. وقد قيل عن وفاته إنه لبس يوماً حلة وعمامة خضراء ونظر في المرآة وقال: أنا الملك الفتي فنظرت إليه جارية من جواريه وقالت:

أنت نِعمَ المتاع لو كنت تبقى غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسان
ليس فيما علمتُه فيك عيبٌ كان في الناس غير أنك فان

ولم يمض أسبوع واحد على ذلك حتى مات.

٨ ـ عمر بن عبد العزيز
(٩٩ ـ ١٠١ هـ)

١ ـ عمر منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

يعد عمر بن عبد العزيز من أحسن خلفاء بني أمية سيرة، وأنقاهم سريرة، وأنزههم يداً، وأعفهم لساناً، وأسبقهم إلى نشر الإسلام وإعلاء كلمة الدين. وقد أصبح حكمه غرة في جبين دلك العصر الذي تلطخ بالاستبداد وسفك الدماء، حتى لقد شبه المسلمون خلافته بخلافة جده عمر بن الخطاب في عدله وزهده.

ولد عمر بن عبد العزيز في مدينة حلوان التي اتخذها أبوه عبد العزيز بن مروان دار الإمارة ونقل إليها الدواوين وطالت أيامه في مصر حتى أربت على العشرين سنة (٦٥ ـ ٨٦)، وتغنى المؤرخون والشعراء بأعمال البر والإحسان والكرم التي قام بها هذا الأمير كما تقدم.

في هذه البيئة المترفة وفي ذلك النعيم المقيم، ولد عمر بن عبد العزيز من أبوين كريمين، ولا عجب في ذلك: فأبوه ذلك الأمير السمح الكريم الذي اشتهر بالورع والتقوى وعكف على مجالسة الصحابة ورواة الحديث والاستماع إلى الشعر والأدب، حتى كان مجلسه ندوة للفقهاء وللعلماء والأدباء. وأمه أم عاصم بنت عمر بن الخطاب، وكانت لينة الجانب رضية الخلق على جانب عظيم من الورع والتقوى.

حفظ عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير، ثم أرسله أبوه إلى المدينة لطلب العلم، فتفقه في الدين وروى الحديث وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر، وبلغ من علو كعبه واستبحاره في العلم أن قيل: (كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة).

ظل عمر بالمدينة حتى مات أبوه وآلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، فبعث في طلب ابن أخيه وزوجه من ابنته فاطمة. وأقام عمر بدمشق حتى ولي الوليد الخلافة سنة ٨٦ هـ، فعرف لعمر صلاحه وكفايته، فولاه المدينة في تلك السنة، فبقي بها سبع سنين، كان فيها مثالاً يحتذى في الورع والتقوى، حتى أنه روي عن أنس بن مالك أنه قال: (ما صليت وراء إمام بعد رسول الله أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى، يعني عمر بن عبد العزيز، وهو أمير على المدينة).

على أن عمر كان برغم هذا كله متأثراً بجاهه وطيب أرومته، حتى لقد أخذ عليه البعض أنه كان في صباه يبالغ في تنعمه ويختال في مشيته. ولعل ذلك كان راجعاً إلى أنه كان لا يزال حينذاك في ميعة الصبا وشرخ الشباب. حتى إذا تقدمت به السن وأثقلت أعباء الإمارة والخلافة كاهله زهد في الدنيا وزينتها.

نعم! إن هذا التنعم لم يله هذا الشاب المترف عن التمسك بأهداب الدين وما يتطلبه ذلك التمسك من الوفاء بالعهد والميثاق. فقد أراد الخليفة الوليد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد وأن يبايع ابنه، وأطاعه كثير من الأشراف رغبة أو رهبة. ولكن عمر أبى أن يخلع رجلاً له في عنقه بيعة، ولم يخش في الحق لومة لائم ولا سخط خليفة ولا خشية عذاب أو موت حين قال للخليفة: (في أعناقنا بيعة)، وأصر على موقفه، فانقلب عليه الوليد حتى مالت عنقه وأشرف على الهلاك، لولا أن بعضهم شفع فيه، فأطلقه الخليفة واكتفى بعزله عن المدينة[١].

ثم دارت الأيام دورتها، وآلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، فلم ينس ذلك الموقف الرائع الذي وقفه منه عمر حتى كاد أن يضحي بحياته في سبيل الوفاء بعهده. فإن سليمان لما مرض مرض الموت أراد أن يبايع أحد أولاده، فنهاه السدي وكان أحد خاصته، وقال له: يا أمير المؤمنين! إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستحفظ على الناس رجلاً صالحاً، فقال سليمان: استخير الله وأفعل، ثم استشاره في عمر بن عبد العزيز، فأثنى عليه خيراً وأشار بتوليته العهد (الفخري ص ١١٧).

ولم يتردد سليمان في تولية عمر عهده، مدفوعاً بذلك الموقف الذي وقفه منه عمر وما آنسه فيه من حسن الخلق وكريم السجايا. فكتب عهده، وختمه بدير سمعان من أعمال حمص[٢]، ودعا أهل بيته وقال لهم: (بايعت لمن عهدت إليه في هذا الكتاب)، ولم يعلمهم به فبايعوا. ولما مات سليمان جمعهم السدي وكتم موته عنهم وقال لهم: بايعوا مرة أخرى. ولما رأى أنه قد أحكم الأمر أعلمهم بموت سليمان، فبايعوا عمر بن عبد العزيز، ولم يتخلف عن بيته إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك.

ضربت عمر دابة في جبهته وهو غلام، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك لسعيد. وقد أثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلاً[٣]. وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بالعدل حتى قيل: الأشج والناقص أعدلا بني مروان: أما الناقص فهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك، لقب بذلك لأنه نقص من أعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الفخري ص ١٢٢).

٢ ـ خلافة عمر:

ولما ولي عمر الخلافة جاءه سالم السدي فقال له عمر: أسرك ما وليت أم ساءك فقال: سرني للناس وساءني لك. قال له عمر: إني أخاف أن تكون قد أوبقت (أهلكت) نفسي. قال

---

(١) السيوطي؛ تاريخ الخلفاء ص ١٢٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٧.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٥٢.

السدي: ما أحسن حالك إن كنت تخاف وإني أخاف عليك ألا تخاف، قال عمر: عظني! فقال السدي: أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة[١].

ولما بويع عمر بالخلافة وقرئ كتاب العهد باسمه قال: والله إن هذا الأمر ما سألته الله قط. ولما قدم إليه مركب الخليفة أبى وقال: ائتوني ببغلتي. فلما جاء أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها قال: ابعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريدون، واجعل أثمانها في مال الله، تكفيني ببغلتي هذه الشهباء[٢].

ولما فرغ عمر من تشييع جنازة سليمان وعاد إلى داره قال له مولاه: ما لي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه ولا طالبه مني، ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ألا وإني لست بقاض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً. وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

بذلك كان عمر أشبه بجده عمر بن الخطاب في زهده وتقشفه، وإيمانه بالله وتمسكه بكتابه وسنة رسوله.

٣ ـ إصلاحات عمر:

أدخل عمر بن عبد العزيز كثيراً من الإصلاحات، ولكن هذه الإصلاحات كانت في الواقع في مصلحة الإسلام أكثر منها في مصلحة بيت المال. فقد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين وبخاصة الموالي من الفرس، ومن السهل أن نتنبأ بنتائج هذه السياسة الجديدة التي كان من أثرها أن زاد إقبال الناس على الإسلام. ولتحاشي ذلك الخطر اشترط بعض الولاة الختان وحفظ شيء من القرآن. ومن ثم كان لزاماً العودة إلى فرض الجزية كما كانت من قبل أو ضياع ثمار ما فتحه المسلمون من البلاد.

وقد نقص إيراد بيت المال نقصاً محسوساً ورأى بعض الولاة عندما نقصت جزية الرءوس على أثر ازدياد دخول الناس في الإسلام أن يرفع الجزية عمن أسلم، فأبى عمر أن يجيب هؤلاء الولاة إلى ما طلبوه، مدفوعاً في ذلك بشدة إيمانه، وحرصه على إعلاء كلمة الدين يدل على ذلك جواب عمر على كتاب واليه على مصر وقد شكا إليه أن الإسلام أضر بالجزية واستأذنه في أن يفرضها على من أسلم، فكتب إليه عمر كتابه الخالد الذي يقول فيه: (فضع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمد ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمر أشقى

---

(١) المسعودي: مروج الذهب حـ ٢ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ (٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٥٣

من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام عن يديه).

ولا غرو فقد قام عمر بن عبد العزيز بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة الإسلامية، وقدم لأهالي البلاد التي فتحها العرب كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام، حتى أنه كان يمنحهم هبات من المال. وقد قيل إنه أعطى قائداً نصرانياً ألف دينار تألفه بها على الإسلام، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام. وقد قيل إن الجراح بن عبد الله عامله على خراسان أدخل في الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص، كما قيل إن عمر كتب إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه إلى الدخول في الإسلام[١].

بل لقد كان من أثر دعوة عمر بن عبد العزيز الناس إلى الإسلام أن أدخل فى هذا الدين كثيراً من أهالي بلاد ما وراء النهر[٢]، كما استجاب كثير من أمراء السند لدعوة عمر الذي أرسل إلى إسماعيل بن عبد الله حين ولاه بلاد المغرب عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في أمور دينهم. وقد أظهر هذا الوالي الجديد نشاطاً ملحوظاً في دعوة البربر إلى قبول الإسلام بحيث لم يبق واحد منهم لم يدخل في هذا الدين[٣].

وبلغ من تسامح عمر ورعايته لأهل الذمة وما ذاع عن زهده وورعه وتقشفه أن أحد كتاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم الرسول وإلى أسماء الخلفاء الأول كلما عرض لذكرهم، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[٤].

كان من سياسة عمر أن يجنح إلى المسالمة، ويرى أنها كفيلة بحل المشكلات وجمع الشمل وتوحيد الكلمة، فإن الخوارج لما خرجوا في عهده لم يشأ أن يسلك معهم سبيل العنف والشدة كما فعل عمه عبد الملك بن مروان من قبل، بل إن أخلاقه الكريمة وحبه للمسلم قد أبت عليه إلا أن يقارعهم بالحجة. وقد نجح في إقناع الرسل الذين أرسلهم إليه زعيم الخوارج، ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر فلم يجن ثمار ما زرع[٥].

وكان عمر في غاية النسك والصلاح والتواضع، حتى أنه لم يكن للشعراء نصيب في بلاطه الذي امتلأ بأهل التقوى والزهد وصرف عمال من كان قبله من بني أمية (واستعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، وترك لعن علي عليه السلام على المنابر)[٦]، وكان بنو أمية

---

(١) ابن سعد كتاب الطبقات جـ ٥ ص ٢٥٨. أرنولد الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٧٦.

(٢) البلاذري. فتوح البلدان ص ٤٤١

(٣) أرنولد: ص ٣٥١ نقلاً عن Fournel Les Berbères, p. 270.

(٤) أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦٦.

(٥) راجع ما ذكرناه عن سياسة عمر بن عبد العزيز مع الخوارج في الباب السادس

(٦) المسعودي مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٧ ـ ١٦٨

يسبونه. ولا عجب فقد سار عمر سيرة أبيه عبد العزيز في مصر، فقد أثر عنه أنه كان (إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، تتعتع). فلما قال له (ابنه) عمر: لم فعلت ذلك؟ قال: يا بني! اعلم أن العوام لو عرفوا عن علي بن أبي طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا إلى ولده. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قطع السب وجعل مكانه قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (الفخري ص ١٧٧).

وقد بلغ من زهد عمر أنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة. روي أنه قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله: اختاري؛ إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وهو في بيت واحد، فقالت: لا بل أنا أختارك عليه وعلى أضعافه. فأمر به حتى وضع في بيت مال المسلمين. فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لأخته فاطمة: إن شئت رددته إليك، قالت: لا والله لا أطيب به نفساً في حياته وأرجع فيه بعد موته.

وكان يشتري لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها. فلما أتته الخلافة كان يشتري له قميص بعشرة دراهم، فإذا لبسه استلانه.

كان عهد عمر بن عبد العزيز، برغم قصره من أحسن عهود الخلفاء، حتى أن بعض المؤرخين عده متمماً لعهد الخلفاء الراشدين بل لعهد أبي بكر وعمر، فقالوا: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر، وعمر، وعمر بن عبد العزيز.

ولو أن خلافة عمر التي لم تزد عن سنتين وخمسة أشهر قد طالت، لفتح صفحة رائعة مجيدة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الدولة الأموية. ومات هذا الخليفة في شهر رجب من سنة ١٠١ هـ. ولا عجب إذا نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبد العزيز الذي ظل معظماً يغشاه كثير من الناس كما ذكر المسعودي المتوفى سنة هـ.

٩ ـ يزيد بن عبد الملك
(١٠١ ـ ١٠٥ / ٧٢٠ ـ ٧٢٤ م)

ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة في شهر رجب سنة ١٠١ هـ. وبعد توليته الخلافة أعلن شوذب الخارجي الحرب على الأمويين، وهزمهم في عدة وقعات، إلى أن ولى مسلمة بن عبد الملك الكوفة من قبل يزيد، فأرسل إلى شوذب سعيد بن عمرو الحريشي في جيش كثيف، فدارت الدائرة على شوذب ومن معه من الخوارج، ولم يفلت منهم إلا القليل.

وفي أيام يزيد خرج يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. وقد فر من سجن عمر بن

عبد العزيز، فسار إلى البصرة وأسر واليها، ثم واصل السير إلى الكوفة، فانضم إليه الأزد، كما انحاز إليه أهله وخاصته، فعظم أمره واشتدت شوكته، فبعث إليه يزيد أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد في جيش عظيم. ولما التقى الجيشان اقتتلوا قتالاً شديداً، فولى أصحاب يزيد عنه، ففتل في المعركة.

اشتهر يزيد بن عبد الملك باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء. قيل إنه شغف بجاريتين إحداهما تسمى: سلامة والأخرى خبابة (بضم الخاء)، وقد غنت خبابة يوماً ليزيد:

بين التراقي واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال: أريد أن أطير! فقالت له خبابة: فعلى من تدعو الأمة؟ قال: عليك، وقبل يدها؛ فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك!.

فانظر إلى هذا وإلى أبيه عبد الملك حين خرج إلى قتال مصعب بن الزبير وصدته زوجه عاتكة، فلم يلتفت إليها واستشهد بقول كثير غزة:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان[1] عليها در نظم يزينها
نهته فلما لم تر النهي نافعاً بكت فبكى مما شجاها قطينها[2]

ذكر المسعودي[3] أن أبا حمزة الخارجي كان إذا ذكر بني مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال: أقعد خبابة عن يمينه وسلامة عن يساره، ثم قال: أريد أن أطير، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه.

ولما اعتلت خبابة أقام يزيد أياماً لا يظهر للناس. فلما ماتت مكث معها أياماً لا يدفنها جزعاً عليها. فقال له بعض خاصته: إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك، فدفنها وأقام بعدها أياماً قلائل ومات.

في أيام يزيد ظهرت النفرة بينه وبين أخيه هشام لما كان من سوء سورة يزيد. ولما بلغه أن أخاه هشام ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه لهوه كتب إليه: أما بعد! فقد بلغني استثقالك حياتي واستبطاؤك موتي، ولعمري إنك بعدي لواهي الجناح أجذم الكف[4]، وما استوجبت منك ما بلغني عنك. فأجابه هشام: أما بعد! فإن أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم، يوشك أن يقدح ذلك في فساد ذات البين وتقطع الأرحام. وأمير المؤمنين

---

(١) امرأة حصان: (بفتح الحاء) أي عفيفة.

(٢) القطين. من يسكن مع الإنسان والمراد بها حاشيتها وخدمها.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧٥: الفخري ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٤) أجذم الكف: مقطوع الكف.

بفضله وما جعله الله أهلاً له، أولى أن يتعهد ذنوب أهل الذنوب. فأما أنا فمعاذ الله أن أستثقل حياتك أو أستبطىء وفاتك؛ فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك. فاحفظ وصية عبد الملك إيانا وقوله لنا في ترك التباغي والتخاذل، وما أمر به من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء، فهو خير لك وأملك بك... فلما أتى الكتاب هشاماً ارتحل إليه، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعاية حتى مات يزيد[1].

١٠ ـ هشام بن عبد الملك
(١٠٥ ـ ١٢٥ / ٧٢٤ ـ ٧٤٣)

ولي هشام بن عبد الملك الخلافة في شهر شعبان سنة ١٠٥ هـ في اليوم الذي مات فيه أخوه يزيد، وبقي في الخلافة إلى أن توفي بالرصافة من أرض قنسرين في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ بعد أن مكث في الخلافة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأياماً.

وقد بادر الخلفاء بعد موت عمر بن عبد العزيز إلى فرض ضرائب فادحة لسد النقص الذي جرته سياسة عمر إزاء الموالي وإعفائهم من الجزية. فقد فاجأ هشام الموالي بضريبة خراجية لا قبل لهم باحتمالها، فسار الحارث بن سريج وحارب الأمويين، وكان يزعم أنه المهدي الذي أرسله الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين. بل انضم إليه في ثورته هذه أنصار من العرب، وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على ضفاف نهر سيحون.

ولما تولى أسد بن عبد الله القسري هذه البلاد بعد عاصم بن عبد الله، استرد من الحارث البلاد التي استولى عليها من الأمويين، واضطره إلى الانسحاب إلى طخارستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر حيث انضم إلى الأتراك ضد العرب.

وفي سنة ١٢٠ هـ ولى هشام بن عبد الملك نصر بن سيار خراسان، وكان أكثر الموالين للعرش الأموي كفاية، فاستطاع أن يوطد دعائم الحكم الأموي في بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣ هـ[2].

وفي عهد هشام خرج زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين بن علي على ما سيأتي في الباب السادس.

كان هشام غزير العقل حليماً عفيفاً؛ اشتهر بالتدبير وحسن السياسة، حتى قيل إن السواس من بني أمية ثلاثة: «معاوية وعبد الملك وهشام». وكان أبو جعفر المنصور يقتدي

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧٩.

(٢) كتاب السياسة العربية، ترجمة المؤلف ص ٦١ ـ ٦٣.

بهشام في أكثر أموره، وفي سياسته وتدبيره شؤون الدولة.

ومن إصلاحات هشام اهتمامه بتعمير الأرض وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك في طريق مكة، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي العباسي. وفي أيامه ظهرت صناعة الخز والقطيفة، وكان هشام كلفاً بالخيل، وهو أول من أقام لها الحلبات من الخلفاء كما سمي بعدد الحرب ولامتها.

ومما يؤخذ على هشام إمعانه في الانتقام من العلويين والتنكيل بهم، كلما أمكنته الفرصة. ناهيك بما فعله يزيد ويحيى ابني علي بن الحسين بن علي. هذا إلى ما عرف عنه من الغلظة وخشونة الطبع وشدة البخل. ومما يدل على بخله أن رجلاً أهدى إليه طائرين فأعجب بهما، فقال له الرجل: أين جائزتي يا أمير المؤمنين؟ فقال له هشام: وما جائزة طائرين؟ قال: ما شاء أمير المؤمنين. قال: خذ أحدهما، فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه فقال له: وتختار أيضاً؟ قال: نعم! والله أختار، فقال: دعه، وأمر له بدريهمات. ودخل هشام بستاناً له ومعه ندماؤه فطافوا به، وبه كل الثمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين، فقال هشام: وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه! ثم نادى حارسه فقال له: اقلع شجره واغرس فيه زيتوناً حتى لا يأكل منه أحد شيئاً[1].

١١ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك
(١٢٥ ـ ٧٤٣)

بويع الوليد بن يزيد في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ في اليوم الذي توفي فيه هشام، وبقي في الخلافة سنة وشهرين وأياماً إلى أن قتل بقرية من قرى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ.

اشتهر الوليد باللهو والخلاعة والمجون، وكان شاعراً مجيداً، له أشعار حسنة في العتاب والغزل ووصف الخمر.

كان السبب في قتل الوليد أنه كان قبل أن يلي الخلافة من سوء السيرة وانتهاك حرمات الله عز وجل. فلما أفضت إليه الخلافة لم يزدد إلا انهماكاً في اللذات واستهتاراً بالمعاصي، وإغضاب أكابر أهل بيته والإساءة إليهم. فاجتمعوا عليه مع غيرهم من رجالات دولته وهجموا عليه. فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال: يوم كيوم عثمان بن عفان، ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد وقتله.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥

١٢ ـ مروان بن محمد
(١٢٧ ـ ١٣٢ / ٧٤٤ ـ ٧٤٩)

ولي يزيد بن الوليد الخلافة بدمشق في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ، وتوفي في ذي الحجة من هذه السنة بعد أن بقي في الخلافة خمسة أشهر، وقام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم ابن الوليد، فلم يمكث في الخلافة أكثر من شهرين.

وكان يزيد بن الوليد أحول، يظهر التنسك، وقد سمي الناقص لأنه نقص أرزاق بعض الجند وخاصة جند الحجاز كما تقدم. وكان يميل إلى تعاليم المعتزلة. وفي عهده أخذ حبل أمية في الاضطراب. ولما مات بويع أخوه إبراهيم بيعة لم تأت بطائل، (فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالإمارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما). ولم يلبث مروان بن محمد أن سار إليه وخلعه. وهرب إبراهيم من دمشق فظفر به مروان فقتله وصلبه وقتل من مالأه، ومن بينهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسري، عند ذلك اشتعلت نار العصبية بين النزارية أو المضرية وبين القحطانية أو اليمنية، وتحزبت القبائل وثارت العصبية في البدو والحضر، وتعصب مروان بن محمد لنزار على اليمن وانصرفت اليمن عنه ومالوا إلى الدولة العباسية[1].

بويع مروان بدمشق في شهر صفر سنة ١٢٧ هـ، وكان يلقب بالحمار، لأنه كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه؛ فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكايد الحرب. ولقب الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم من أصحاب المقالات في الاعتزال، وكان يكنى أبا عبد الملك، واشتهر بالشجاعة والدهاء والمكر.

ولما ولي الخلافة ثارت الفتن والقلاقل فنشطت الشيعة في بث دعوتها التي قضت على البيت الأموي، وظهرت عقيدة المهدي التي كان لها أثر كبير في سقوط الدولة الأموية.

سقوط الدولة الأموية وأسبابه

١ ـ تولية العهد اثنين:

من الأسباب التي أضعفت البيت الأموي وآذنت بذهاب ريحه تولية العهد اثنين يلي أحدهما الآخر، فقد لقي هذا بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورثهم الحقد والبغضاء. ولا غرو فإنه لم يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على إقصاء الثاني من ولاية العهد

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٣. الفخري ص ١٢٣

وإحلال أحد أبنائه مكانه، مما أوغر صدور بعضهم على بعض. ولم يقتصر النزاع بين أفراد هذا البيت بل تعداهم إلى القواد والعمال. فإنه لم يكد يتم الأمر لثانيهما حتى ينكل بمن ظاهر خصمه وساعده على إقصائه من ولاية العهد.

وأول من سن هذه السنة مروان بن الحكم، فقد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولم يأبه بما كان في مؤتمر الجابية حيث بايعوا عبد الملك ثم خالد بن يزيد وعمرو ابن سعيد بن العاص. وكان من أثر ذلك أن خرج عمرو بن سعيد على عبد الملك.

سار عبد الملك على سنة أبيه مروان، فقد فكر في خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد وتولية ابنيه الوليد ثم سليمان، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون ما كانت تحدثه به نفسه من خلعه. ولم يمنعه ذلك من ارتكاب تلك الغلطة التي أورثت البغض والعداوة بين الأخوين، بل تعدتهما إلى القواد والعمال. فإن الوليد بن عبد الملك لما ولي الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه عبد العزيز، وكتب بذلك إلى العمال، فأجابه الحجاج ابن يوسف الثقفي والي العراق، وقتيبة بن مسلم والي خراسان، ومحمد بن القاسم والي السند. وأجزل الوليد العطاء للشعراء للإشادة بفضل عبد العزيز مما أثار روح الكراهة والبغضاء بينه وبين أخيه. فلما ولي سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد، انتقم ممن كان لهم ضلع في خلعه. وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً وأضحت خطراً على الدولة الأموية. فقد كان الخليفة ينتقم من القواد والعمال لمجرد اتهامهم بمماألأة الخليفة السابق على خلعه.

هكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال والتشفي منهم، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل الوليد. على أن ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من أهل بيته، فقد أمر يزيد بن المهلب، وكان عدو الحجاج الألد، وصالح بن عبد الرحمن أن يذيقا آل الحجاج أشد صنوف العذاب. كذلك انتقم سليمان من محمد بن القاسم، ذلك القائد العظيم الذي بسط نفوذ الدولة على الهند والسند، وكذلك كان نصيب قتيبة بن مسلم الذي بسط نفوذ الدولة في بلاد ما وراء النهر.

٢ - ظهور روح العصبية:

بعث روح العصبية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية، غير أنها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر في انحلال الحزب الأموي الذي ظل حافظاً لكيانه كحزب سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذي اعترى ذلك الحزب فقد كان عمر صالحاً عادلاً، قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال

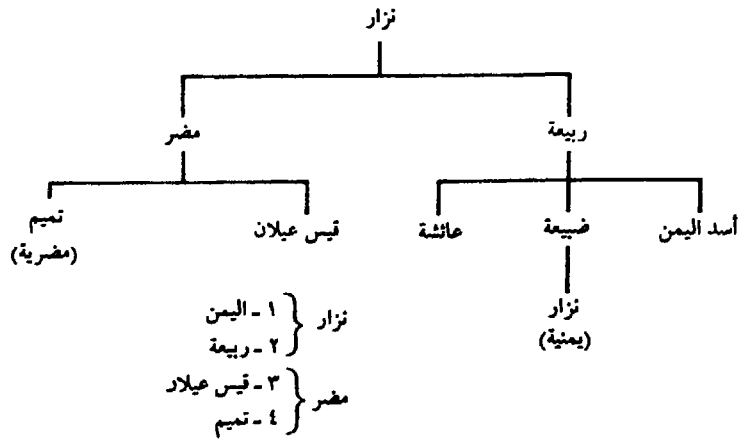

رضاه جميع العناصر الثورية، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يول والياً إلا لكفايته وعدالته، سواء أكان من كلب أو من قيس. فسكنت في عهده الفتن التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها.

فلما توفي عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر في حزب بني أمية، وكانت هذه الفتنة في الواقع نزاعاً بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن. ولما كان الخليفة من عرب الشمال لم يتورع عن خوض غمار تلك الفتنة.

وكانت هذه الفتنة سبباً في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة، فقد قتل بعضهم في الحرب، وحمل بعضهم في الأغلال إلى يزيد بن عبد الملك، فأمر بهم فقتلوا جميعاً.

وقد أخلصت أسرة المهلب في خدمة بني أمية، فأبلى هو وأبناؤه في حرب الأزارقة من الخوارج بلاءً حسناً، كما حارب أهل خراسان والخزر والترك. وخلفه أبناؤه، فكانوا مثله في النبل والشجاعة والفضل، فمدحهم الشعراء وتغنى بفضلهم الركبان، وقصدهم الشعراء وذوو الحاجات. فأجزلوا لهم العطاء ووصلوهم بالصلات الجمة، فعظم أمرهم وبعد صيتهم ونبه شأنهم، فكانوا غرة في جبين الدولة الأموية، كما كان البرامكة في دولة بني العباس. لذلك لا ندهش إذا انحاز إليهم العنصر اليمني الذي أصبح منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان حزب بني أمية، وقد زج يزيد بنفسه في تلك العصبية التي عادت سيرتها الأولى يوم مرج راهط، وأخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلف بين هذين العنصرين اللذين كانا عصب دولتهم ومصدر قوتهم، فنراهم ينضمون إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية حيناً آخر.

كان طبيعياً بعد هذه الحادثة أن يأخذ يزيد جانب القيسيين، فولى أخاه مسلمة الذي قضى على ثورة يزيد بن المهلب على المشرق، ثم ولى عمر بن هبيرة وهو قيسي. واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً لا يملك من الأمر شيئاً.

ولما توفي يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه هشام، رأى أن القيسية قد علت كلمتها وخاف ازدياد نفوذها على الدولة، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ليعيد التوازن بين العنصرين اليمني والقيسي. فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين. فولى خالد ابن عبد الله القسري على العراق وولى أخاه أسداً على خراسان. وبذلك أخذ العنصر اليمني يستعيد قوته وأخذ العنصر القيسي في الضعف، وتعصب خالد وأخوه لليمنية، فأخذوا ينتقمون من المضريين[1].

على أن هشاماً لم يتبع سياسة ثابتة بإزاء القبائل المختلفة، فإنه بعد أن انحاز إلى جانب اليمنيين لم يلبث أن تحول عنهم إلى المضريين وولى منهم العمال: فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق، ونصر بن سيار خراسان، وكذلك فعل في بلاد الأندلس.

وكان مقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمنية من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط حزب بني أمية، فإن اليمنية الذين لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب، فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله، لاتهامه بممالأة العلويين وإغداقه عليهم حتى خرج زيد بن علي زين العابدين، كما اتهم بالزندقة والإلحاد فعادت القلاقل سيرتها الأولى، وعمل اليمنية على التخلص من سيادة الأمويين.

لزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين لأن أمه كانت منهم وأقصى العنصر اليمني، فأثار هذا عوامل السخط والغضب في نفوس اليمنية عليه بعد أن قتل زعيمهم وأقصاهم من مناصب الدولة، فأخذوا يدبرون المكائد لقتله، وسخط عليه عامة الناس، فانتهز اليمنيون هذه الفرصة وثاروا عليه، وانضم إليهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي كان يظهر التنسك والتواضع، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ وبايعوا يزيد.

ولم يضع قتل الوليد حداً للنزاع الذي قام بين أفراد البيت الأموي وظهر بين العنصرين اليمني والمضري، بل ساعد على تفاقم ذلك النزاع، فإن يزيد لم يكد يعتلي عرش الخلافة حتى أخذ بسيرة أسلافه. فانضم إلى اليمنيين ولزم جانبهم، وأخذ يولي العمال منهم لأنهم ساعدوه على الوصول إلى الخلافة.

وأطلق اليمنيون يدهم في الإساءة إلى المضريين الذين ثارت ثائرتهم، فأشعلوا نار الثورة

---

(١) الطبري جـ ٨ ص ١٩٢ - ١٩٣.

في حمص، وانضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وغيره من أفراد البيت الأموي، كما ثاروا في فلسطين بزعامة يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وحذا أهل الأردن حذوهم بزعامة محمد بن عبد الملك. غير أن يزيد بن الوليد استطاع بمساعدة اليمنيين أن يتغلب على هؤلاء جميعاً، فأخضعهم وزج بزعمائهم من أهل بيته في أعماق السجون.

توفي يزيد بعد أن حكم ستة أشهر (١٢٦ هـ)، فولي الخلافة بعده أخوه إبراهيم، وكان يزيد قد عهد إليه بالخلافة التي فقدت ما كان لها من هيبة في نفوس المسلمين. ولم يلق إبراهيم الاحترام الذي كان لمن سبقه من الخلفاء، حتى كان الناس يسلمون عليه بالخلافة تارة، وبالإمارة تارة أخرى، وطوراً لا يسلمون عليه بواحدة منهما[1].

سار مروان بجنوده من الجزيرة يريد الشام مطالباً بدم الوليد بن يزيد، وتظاهر بعزمه على إعادة الخلافة إلى ابنه إبراهيم. وسرعان ما انضمت إليه القيسية لمناهضة اليمنية التي دبرت مؤامرة لقتل الوليد، فأخذ إبراهيم يحشد الجيوش لقتال مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينية. ولكن مروان كان قائداً شجاعاً حنكته الحروب مع الخزر والترك، فاستطاع أن يتغلب على جنود إبراهيم وهزمهم شر هزيمة ودخل الشام، وفر إبراهيم هو وكثير من أنصاره.

وكان مروان يريد أن تكون الخلافة في ولد الوليد، ولكن اليمنيين عمدوا إلى ابني الوليد فقتلوهما في السجن خوفاً من أن يليا الخلافة فيقتصان منهم، وشهد محمد السفياني بأنهما جعلا الخلافة من بعدهما لمروان، ثم قال السفياني لمروان: ابسط يدك أبايعك، فبايعه وتبعه أهل الشام، وبذلك أصبح مروان خليفة المسلمين (١٢٧ هـ). وفي عهده ثارت روح العصبية في جميع أنحاء الدولة الأموية وتقوض بناء البيت الأموي وأشرف على الزوال.

على أن مروان سار سيرة سلفه، فتعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد الذي قتلوه انتقاماً لخالد بن عبد الله القسري. فانتفض أهل حمص بزعامة ثابت بن نعيم، وانضم إليهم أهل تدمر برياسة الأصبغ بن ذؤالة الكلبي. غير أن مروان استطاع أن يتغلب عليهم ويهزمهم شر هزيمة، كما ثار يزيد بن خالد القسري بدمشق وانضمت إليه اليمنية، فأرسل مروان جيشاً أحل بهم الهزيمة وقتل يزيد، فخلصت له دمشق وحذت اليمنية حذوهم في فلسطين، فأرسل إليه مروان جيشاً قضى عليهم.

ولم يكد الأمر يستتب لمروان في بلاد الشام حتى خرج عليه بها سليمان بن هشام بن عبد الملك، ودعا أهلها إلى خلعه، فانضمت إليه اليمنية، فسار إليه مروان وهزمه بعد حروب طويلة، وفر سليمان إلى العراق وانضم إلى الخوارج لمناوأة مروان، كما انضم إليه عبد الله بن

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١١٥، ١١٧ ـ ١١٨، ١٢٥.

عمر بن عبد العزيز.

هذه هي حال العصبية في الشام، وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمني، وربما كان ذلك هو السبب الذي حدا مروان على عدم اتخاذها مقراً لملكه، وانتقل إلى الجزيرة حيث أقامت القيسية الذين كانوا عماد دولته.

وأما بلاد العراق فإن الحالة لم تكن فيها أحسن مما كانت عليه في بلاد الشام. فقد اشتعلت نار العصبية في هذه البلاد حتى ظهر الضحاك بن قيس الخارجي الذي استولى عليها، كما استولى فريق من الخوارج على بلاد اليمن والحجاز بقيادة المختار بن أبي عبيدة[١].

وهكذا أصبحت البلاد مرتعاً للفتن والاضطرابات، وشغل إخماد هذه الفتن مروان، فلم يلتفت إلى خراسان وما كان يجري فيها من بث الدعوة العباسية التي اشتد أمرها وعظم خطرها. ولم يلبث أن باغتته الرايات السود من خراسان، وطاردته، وقضت على جيشه، ففر إلى مصر حيث أدركه عبد الله بن علي العباسي ثم أخوه صالح بن علي الذي قتله سنة ١٣٢ هـ، ويعتبر القضاء على بني أمية قضاء على نفوذ العرب الذين كان الأمويون يعتمدون عليهم دون سواهم.

٣ ـ انغماس بعض الخلفاء في الترف:

كان لانصراف بعض خلفاء بني أمية إلى حياة البذخ والترف اللذين أخذوهما عن البلاط البيزنطي أثر كبير في سقوط دولتهم. فقد اشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو. وكان ـ كما يقول المسعودي[٢] ـ صاحب طرب وجوارح وكلاب وفهود ومنادمة على الشراب.

أما يزيد بن عبد الملك فإنه لم يكن أحسن حالاً من يزيد بن معاوية، فقد كان كما ذكر البلخي[٣] ـ صاحب لهو وقصف، شغف بحبابة واشتهر بذكرها. كذلك اشتهر ابنه الوليد باللهو والمجون، وكان شاعراً مجيداً له أشعار كثيرة في العتاب والغزل[٤].

٤ ـ تعصب الأمويين للعرب:

كانت الدولة الأموية دولة عربية لحماً ودماً، ومن ثم تعصب الأمويون للعرب والعربية، وأخذوا ينظرون إلى الموالي نظرة الاحتقار والازدراء، بما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية في الإسلام: وكان منشأ تلك الحركة اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم وأن لغتهم أرقى اللغات.

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٣١، ١٣٥.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٤.

(٣) كتاب البدء والتاريخ، وينسب إلى أبي زيد بن سهل البلخي، وهو المطهر بن طاهر المقدسي (طبعة باريس) جـ ٦ ص ٤٨ ـ ٤٩

(٤) الطبري جـ ٨ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

وإذا نظرنا إلى حركة الشعوبية ألفيناها حرباً سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكاً لا يقل أثراً عن اشتباك الألسنة والرماح. وترجع هذه الحركة ـ على ما يظهر ـ إلى الوقت الذي دخل فيه العرب بلاد الفرس وغيرها من بلاد الأعاجم. ولما جاء الأمويون حملوا لواء تلك الحركة طوال خلافتهم، وانحازوا إلى العرب ولم يساووا بينهم وبين الموالي، فأجمع هؤلاء أمرهم وثاروا على الأمويين في عهد عبد الملك بن مروان، فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفي ليقضي على حركاتهم.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر عماله بوضع الجزية عمن أسلم، سواء كان عربياً أم غير عربي. ولقد نجحت سياسته في حياته، ثم تبدلت الحال بعد وفاته، فعاد الأمويون يفرقون في المعاملة بين العرب والموالي.

فلا عجب إذا أثارت هذه المعاملة حنق الموالي وسخطهم على الأمويين وأخذوا يتلمسون الفرص للإيقاع بهم، فانضموا إلى المختار، ثم إلى الخوارج واشتركوا في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، كما ثاروا مع يزيد بن المهلب للقضاء على هذه الدولة. فلما نشط دعاة العباسيين انضموا إلى الدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة. وقد فطن العباسيون إلى ما كان يضمره الموالي لبني أمية ودولتهم من كراهة فاستعانوا بهم في نشر الدعوة لهم.

الباب السادس

الحركات السياسية والدينية

تمهيد:

امتاز هذا العصر بقيام حركات كان لها أثر بعيد في السياسة والدين، فإننا نرى الخلاف يدب بين العرب منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه، فلا تخضع أكثر القبائل لسلطان أبي بكر وترتد عن الإسلام ويمتنع بعضها عن أداء الزكاة، بل إن بعض العرب يدعون النبوة. كما شاهد هذا العصر تلك الفتنة الجامحة التي أودت بحياة عثمان بن عفان نتيجة لظهور النزعات السياسية والعصبية.

ولا غرو فقد اختلف المسلمون إثر وفاة الرسول فيمن يولونه الخلافة، وانتهى الأمر بتولية أبي بكر، وانضم كثير من العرب إلى علي، وأدى ذلك إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين: جماعية وشيعة. أما الجماعية فهم الذين رضوا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. ولما استقر الأمر لبني أمية دخلوا في طاعتهم، ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية، وأما من عداها فأحزاب ثائرة أو طوائف خارجة لم تجتمع على واحدة منها كلمة المسلمين، ولا كانت لها دولة جامعة، وإن ملك بعضها ملكاً واسعاً في حقب من التاريخ، وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي، وقرروا أنها حق لعلي بن أبي طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده.

وكذلك ظهر في أواخر عهد الخلفاء الراشدين حزب الخوارج الذي وقف مع حزب الشيعة في وجه بني أمية. واستمر النزاع بين الجماعية والخوارج والشيعة طوال العصر الأموي. كما ظهر في هذا العصر حزب الزبيريين الذي تفاقم خطره في الحجاز والعراق ومصر وكاد يقضي على نفوذ الأمويين في بلاد الشام. ولا يقل أثر المرجئة والمعتزلة في توجيه السياسة الإسلامية في ذلك العصر عن هذه الأحزاب التي أضعفت نفوذ الأمويين وساعدت على سقوط دولتهم على أيدي العباسيين وأنصارهم كما سيأتي:

١ ـ ردة العـرب

كانت حكومة الرسول حكومة دينية تعتمد إلى حد كبير، في سلطتها التنفيذية على عقيدة الناس في أن هذا النبي إنما يصدر في أحكامه وتصرفاته عن وحي الله وأمره. قال تعالى: ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى ﴾ [سورة النجم ٥٣: ١ ـ ٥]. كما كان في حكمة الرسول وتسويته بين أبناء القبائل المختلفة، وعدم خضوعه لنزعات النفس وميلها إلى إيثار الأهل والعشيرة، واختصاصهم بالفائدة وتقديمهم على الأكفاء من غيرهم، وفي محوه العصبية والشعور القبلي، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها ـ كان في هذا كله ما سهل على العربي طاعته والإذعان له، وسهل على القبائل المختلفة أن تنضوي تحت لوائه وأن تدين له بالزعامة، لقد بلغ من افتتان بعض العرب بشخصية الرسول أنهم ما كانوا يستطيعون أن يصدقوا بموته.

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه وتحققوا من ذلك، شك فريق منهم في أمر هذا الدين الذي خلفه، واعتقد غيرهم أن قريشاً أو غيرها إذا وليت هذا الأمر سوف تحيله ملكاً عضوداً. فأخذوا يفكرون في موقفهم وينظرون إلى مصيرهم، فرأوا أن هذا النبي الذي كان يقوم بالسفارة عن الله عز وجل، ويبلغهم أمره ونهيه، ويتمتع بالعصمة عن الخطأ والتنزه عن الزلل، فقد فارقهم إلى ربه. وليس ثمة إنسان في العالم يتصف بهذه الصفات التي كانت الضمان الوحيد لمساواة القبائل بعضهم ببعض وجعل الناس كأسنان المشط.

فمن المحتمل إذن أن يحكم من يخلف هذا الرسول هواه وأهله وعشيرته في الناس ومصالحهم، كما لا يبعد أن يُعلي هذا المركز (الخلافة) من شأن القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة، ويغض من شأن غيرها من القبائل فيميل ميزان العدل بين الناس.

ويفسر لنا هذا تسابق القبائل والبطون عند وفاة الرسول على أن يكون الأمر لها دون غيرها، فتكشف ما في الصدور وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية إذ ذاك: فالأنصار يخافون قريشاً والمهاجرون إن استأثروا بالأمر دونهم وهم جميعاً فيما بينهم يتوجسون، وتخشى كل من الأوس والخزرج صاحبتها. ولم يكن الحال في مكة بأقل منه في المدينة، فقد دب التنافس في هذا الأمر بين بطون قريش. فلما تم الأمر لأبي بكر، وجد عليه بنو هاشم وامتنع علي عن بيعته أشهراً، وسعى أبو سفيان بن حرب في إيغار صدر علي على أبي بكر ونعت علياً والعباس (الأذلين والمستضعفين)[1].

---

(١) الطبري حـ ٣ ص ٢٠٢

ولئن كان للمهاجرين من بني هاشم وغيرهم، وللأنصار أوسهم وخزرجهم من القرابة لرسول الله أو الفضل والسبق في الإسلام، أو النصر والإيواء لدين الله والذود عنه ـ لئن كان لهؤلاء وأولئك سبب من هذه الأسباب يتذرعون به ويطمعون من أجله في الخلافة، فإن القبائل العربية الأخرى لم تجد لنفسها من السابقة في الإسلام ولا من القرابة للرسول ما تعتز به.

وقد رأت هذه القبائل المهاجرين والأنصار يتنازعون هذا الأمر فيما بينهم، فيقول المهاجرون: (منا الأمراء ومنكم الوزراء)، ويقول الأنصار: (بل منا أمير ومنكم أمير). فيئست هذه القبائل وضاع أملها في الخلافة، فأعلنت العصيان ورفض أكثرهم أن يخضعوا لسلطان أبي بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة التي ظنوها إتاوة، ولا غرو فقد كان بعضهم يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد موت زعيمهم، لأنهم كرهوا سيادة قريش الذين ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين[1] وما زال دبيب العصيان ينمو في النفوس، والتمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل، حتى كاد يتزعزع مركز الإسلام وانكمشت أطرافه إلى مكة والمدينة والطائف وبني عبد القيس.

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشيء المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها. فقد هم أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل رسول الله على أم القرى، فتوارى منهم. ولولا أن قام فيهم سهيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر لهم وفاة النبي: (إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأى غير رأينا ضربنا عنقه) لترددوا في موقفهم. على أن سهيلاً أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره: (والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ). ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً في نفوسهم من التهديد، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردتهم؛ فقد رأوا الأمر في المدينة قد آل إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه.

وهمت ثقيف بالطائف أن ترتد، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي عليهم فقال: (يا أبناء ثقيف! كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد). وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حنين، وذكر ما بينها وبين مكة من أواصر النسب والقربى، (فاستمسكت بالإسلام ولعل قيام أبي بكر بالخلافة ونهوض أهل المدينة إلى جانبه في أمرها، قد كان له من الأثر في ثقيف مثل ما كان له في أم القرى)[2].

هذا هو الشعور الذي شاع في القبائل التي ارتدت عن الإسلام. أما قريش، وقد آل إليها هذا التراث المجيد، فقد اضطلعت بعبئه وتلقته بما يليق به من العناية والجد في تحمل

---

(١) انظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) انظر هيكل: الصديق أبو بكر ص ٧٦ ـ ٧٧.

مسؤولياته، ولم تضن في سبيله بفلذات أكبادها وساداتها وأشرافها، فوجهتهم لمحاربة هذه القبائل، وبرهنت على أنها زعيمة العرب، وأحقهم بهذا الأمر وأقدرهم على الاضطلاع به. يدل على ذلك قول عمر لنفر من الصحابة: (أظن قلتم ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يقروا بهذا الأمر)، ثم قال: (فلا تخافوا هذه المنزلة، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في أثركم، فاتقوا الله فيه)[1].

أ ـ موقف أبي بكر من المرتدين

وليس غريباً أن تحمل العصبية العرب على ركوب هذا الأمر الصعب والارتداد عن دين الله من أجل حرمانهم من الخلافة؛ فنحن نعلم أن العصبية من أهم العوامل وأبعدها أثراً في القبائل التي أسلمت أو حاربت الإسلام في عهد الرسول: فالأوس والخزرج قبلوا الإسلام لأنهم سيعتزون به ويستنصرونه على اليهود الذين كانوا يدلون عليهم بدينهم وكتبهم ويتهددونهم بقتلهم قتل عاد وإرم حينما يبعث نبي آخر الزمان. وهؤلاء اليهود ـ والنصارى أيضاً ـ أعرضوا عن الإسلام ونفروا منه لأنه لم يوح به إلى رجل منهم. وحاربت القبائل الأخرى المشهورة مثل هوازن وثقيف الإسلام خشية أن يظهر عليها ويخضعها كما أخضع القبائل الأخرى.

بل لقد دفعت هذه العصبية بعض القبائل إلى انتحال النبوة، فتنبأ فيها رجال قبل وفاة الرسول وبعدها، وشايعتها هذه القبائل، وكان أشد هؤلاء المتنبئين خطراً مسيلمة الكذاب الذي استفحل خطره وتفاقم شره لانضمام الرجّال بن عنفوة من بني حنيفة إليه وخديعته سجاح التميمية حتى تزوجته وانضم أتباعها إليه[2].

وقد كتب مسيلمة إلى الرسول كتاباً يدَّعي فيه مشاركته في الرسالة ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب، فكتب إليه الرسول: (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

ثم لم يلبث الرسول أن توفي. فلما ولي أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة بن أبي جهل، وألحق به شَرحبيل بن حسنة. فتعجل عكرمة حتى حلت به الهزيمة، فوجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش كثيف على مقدمته شرحبيل، والتحم جيش المسلمين بجيش مسيلمة، واستماتت بنو حنيفة في القتال، وفي مقدمتهم الرجّال، حتى كاد النصر يتم لهم، لولا أن صدق المسلمون في الجهاد وصبروا في الحرب، كما دعا خالد مسيلمة للمبارزة عساه يقتله فيقضي

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٤٦.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

على رأس تلك الفتنة ويخمد جذوتها، ولكن مسيلمة لم يستطع صبراً أمام خالد، فولى هارباً. وحمل المسلمون عليه وعلى أصحابه فهزموهم. وأكثر المسلمون القتل في بني حنيفة حتى قتل مسيلمة على يد وحشي قاتل حمزة عم الرسول في غزوة أحد ورجل من الأنصار[١].

كذلك ادعى الأسود العنسي النبوة في اليمن وتابعه قومه، فاشتد بهم ساعده، وغزا بلاد نجران فدانت له كما دانت له مذحج التي استخلف عليها عمرو بن معد يكرب. وعدا على شهر بن باذان صاحب صنعاء فقتله وتزوج امرأته، وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك إلى الرسول، فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسود، فأتمروا به حتى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول في صبيحتها[٢].

وممن ادعى النبوة أيضاً طليحة بن خويلد، وهو كاهن من بني أسد، اتبعه قومه ودعوا إليه حلفاءهم من طيِّىء والغوث ومن إليهم. فلما توفي النبي ظهر أمره وانضمت إليه غطفان ومن حولها، فبعث إليهم أبو بكر عدياً ثم خالد بن الوليد، فأسلمت طيِّىء وجَديلة وصبرت معه فزارة وأسد، حتى إذا استعر القتال وأيقن طليحة بالهلاك فر إلى الشام. وذكر الطبري في رواية له أن طليحة مضى حتى نزل إلى كلب، فأسلم، ولم يزل مقيماً بينها حتى مات أبو بكر. فلما ولي عمر الخلافة أتاه فبايعه واشترك في الفتوح العربية في عهده.

وممن التف حول هؤلاء المتنبئين عرب لم يؤمنوا بنبوتهم، وإنما فكروا في الارتداد، وانحازوا إلى هؤلاء المتنبئين يستنصرون بهم على قريش ليتخلصوا من زعامتها وسيادتها التي فرضتها عليهم.

وهناك فريق من العرب ارتدوا ولم ينضموا إلى واحد ممن ادعوا النبوة، ومن هؤلاء سكان البحرين الذين ارتدوا بعد وفاة ملكهم المنذر بن ساوَى، حتى قيض الله الجارود بن المعلى العبدي، فنصحهم حتى ثابوا إلى الإسلام. ولكن الحطم بن ضبيعة ومن اتبعه من بني بكر بن وائل، أحاطوا بالمسلمين وحاصروهم حتى بعث إليهم أبو بكر العلاء الحضرمي، فحارب الحطم ومن معه ولم يستطع أن يقهره حتى بدت له فرصة فانتهزها. ذلك أنهم سمعوا في معسكر المشركين ضجة فدسوا فيهم من يتعرف خبرهم، فعرف أن القوم سكارى، فهجم عليهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف واستولوا على ما في المعسكر[٣].

واجه أبو بكر كل هذه الصعاب بما عرف عنه من حزم وعزم وغيرة على الدين، فبادر إلى تسيير الجيوش إلى المرتدين والمتنبئين ومانعي الزكاة، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائداً

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٣٢ Muir, The Caliphate pp. 20-22.

(٣) الطبري: جـ ٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٦١.

في وقت واحد وهم:

١ ـ خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح.

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل ووجهته مسيلمة الكذاب في بني حنيفة.

٣ ـ المهاجر بن أبي أمية ووجهته العنسي باليمن ومعونة الأبناء على قيس بن العاص.

٤ ـ عمرو بن العاص ووجهته قضاعة ووديعة والحارث.

٥ ـ سعيد بن العاص ووجهته الحمقتان من مشارف الشام.

٦ ـ حذيفة بن محصن الغلقاني وأمره بأمر دبا.

٧ ـ عرفجة بن هرثمة ووجهته مهرة.

٨ ـ شرحبيل بن حسنة بعثه في إثر عكرمة بن أبي جهل على أن يلحق بعمرو بن العاص إذا فرغ من بني حنيفة في اليمامة.

٩ ـ طريفة بن حاجز ووجهته بنو سليم ومن معه من هوازن.

١٠ ـ سويد بن مقرن ووجهته تهامة باليمن.

١١ ـ العلاء بن الحضرمي ووجهته البحرين.

وأمر أبو بكر كل قائد بالمسير إلى ناحية من نواحي بلاد العرب بعد أن كتب له عهداً يأمره فيه: (بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان)، وأمره (أن لا يرد المسلمين عن قتال عدوهم)، وأن (لا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله، ثم نصحه بأن لا يدخل في المسلمين حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم حتى لا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم)[1].

وأرسل أبو بكر إلى جميع المرتدين كتاباً يدعوهم فيه الرجوع إلى حظيرة الدين ويرد الشبهة التي نشأت عن موت الرسول بأنه بشر يموت كما يموت كل إنسان ثم هددهم بالقتل والإحراق وسبي النساء والذراري إذا لم يرجعوا.

بعث أبو بكر هذه الكتب مع الرسل إلى المرتدين أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم العهود. وكانت الغلبة للجيوش الإسلامية، وعلت كلمة الدين من جديد بعد أن أعمل هؤلاء القواد وجنودهم السيف في رقاب المرتدين.

ومما ساعد على انتصار المسلمين في حروب الردة قوة إيمانهم التي بعثت في نفوسهم الشجاعة والإقدام والاستخفاف بردة العرب. يدل على صحة هذا القول ما رواه المؤرخون عن

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٢٧.

مرقف عمرو بن العاص، من قرة بن هبيرة من بني عامر، إذ نزل به فأكرمه ثم خلا به وقال: (يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أعفيتموها فتسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم). فأجابه عمرو على الفور جواباً يدل على استهانته بردة العرب فقال: تخوفنا بردة العرب؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفش[١] أمك.

ولما أتى بقرة بن هبيرة أسيراً إلى أبي بكر رضي الله عنه، استشهد بعمرو على إسلامه، فأحضر أبو بكر عمراً فسأله، فأخبره بقول قرة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة، فقال قرة: مهلاً يا عمرو، فقال: كلا والله لأخبرنه بجميعه، فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه[٢].

يقول ميور[٣] عن سبب نجاح المسلمين في القضاء على الردة واستئصال شأفها من بلاد العرب: (وإنما يرجع الفضل في تتويج هذه الجهود بالنصر والظفر إلى تلك الروح القوية التي بثها محمد في نفوس أتباعه المخلصين).

ب ـ موقف الإسلام من المرتدين

اتخذ بعض المستشرقين ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام بعد وفاة الرسول، دليلاً على أن الإسلام إنما قام بحد السيف، وأن الخوف وحده هو الذي أدخل العرب في هذا الدين. وفي الحق أن العرب الذين حاربهم أبو بكر رسموا مرتدين لم يرتدوا عن الإسلام كما يتبادر إلى الذهن من تسميتهم مرتدين، وإنما كانوا فريقين:

١ ـ فريقاً منع الزكاة فقط زاعماً أنها إتاوة تدفع إلى الرسول، فلما انتقل إلى جوار ربه، أصبحوا في حل من عدم دفعها إلى خليفته، وفي شأن هذا الفريق عارض عمر أبا بكر في حربهم، محتجاً بقوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله». ولكن أبا بكر رأى في امتناع هؤلاء عن دفع الزكاة هدماً لركن من أهم أركان الدين قد يؤدي التهاون فيه إلى هدم سائر الأركان.

وكان من رأي أبي بكر أن يأخذ هذا الفريق من المرتدين في غير هوادة حيث قال: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً[٤] كانوا يؤدونه

---

(١) الحفش بكسر السكون بيت تنفرد فيه النساء.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٣١. انظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٨

(٣) The Caliphate, p. 18.

(٤) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة، لأن على صاحبها التسليم، وإنما يقع القبض بالرباط. وقيل أراد ما يساوي عقالاً من حقوق الصدقة إذا أخذ المتصدق أعيان الإبل. قيل أخذ عقالاً، وإذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً. وقال المبرد في الكامل: إن المتصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالاً، وإذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً.

إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه)، فقال عمر: (فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق)[١].

على أن هؤلاء لم يرتدوا عن الإسلام لبغضهم إياه أو كراهتهم له، وإنما ظنوا أن الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول، أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد التي هي عماد هذا الدين، بل زعموا أن الزكاة إنما هي إتاوة يدفعونها للرسول، ومن ثم لم يجدوا مبرراً لدفعها بعد وفاته[٢].

٢ ـ وأما الفريق الثاني فقد ارتدوا عن الإسلام ولم يكونوا مسلمين حقاً، لأن السواد الأعظم منهم كان من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق ولم يمض عليهم من الزمن ما يكفي لأن يؤثر الدين في قلوبهم ولا غرو فالدين عقيدة ومبدأ يملآن القلب ويؤثران في كل ما يصدر عنه. وقد نعى الله سبحانه وتعالى عليهم هذه الطبيعة الجافية في غير آية من القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم[٣] من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون. قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩: ١٤ ـ ١٦]. وقال تعالى: ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ [سورة التوبة ٩: ٩٨ ـ ٩٩].

وأما معاقبة الإسلام من ارتد عنه بالقتل، فذلك أمر اقتضته سياسة الدولة أكثر من الحرص على إسلام هؤلاء، إذ كان أخوف ما تخافه الدولة الإسلامية من الإبقاء على هؤلاء المرتدين أن ينقلبوا عيوناً عليها، وبذلك يصبحون شراً مستطيراً يهدد كيانها. ولا غرو فإن السياسة والدين لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر عند المسلمين[٤].

٣ ـ على أن الإسلام شديد الحيطة في أمر المرتدين، فهو لا يأخذهم بالشبه ولا يحكم فيهم بالظنة، وإنما يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليهم من أمر الدين، وما عرض له من الشبه في صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة.

---

(١) صحيح البخاري (طبعة بولاق) جـ ٢ ص ١٠٥.

(٢) انظر تعليق المؤلف على كتاب السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية ص ٨٧.

(٣) لا ينقصكم من أجور أعمالكم

(٤) انظر Nicholson, p. 197.

وإلى القارىء طائفة من أقوال الأئمة في هذا الصدد قال أبو حنيفة: إذا ارتد المسلم عرض عليه الإسلام وأجل ثلاثة أيام، لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها، فعلينا إزالة تلك الشبهة، أو هو يحتاج إلى التفكر لنبين له الحق، فلا يكون ذلك إلا بمهلة، فإن استمهل كان على الإمام أن يمهله. ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام في الشرع كما في الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية في البيوع)، فلهذا يمهله ثلاثة أيام[١].

ويقول بعض فقهاء المالكية: (واستتيب المرتد وجوباً ولو عبداً أو امرأة ثلاثة أيام بلياليها من يوم الثبوت لا من يوم الكفر بلا جوع ولا عطش، بل يطعم ويسقى من ماله وبلا معاقبة وإن لم يتب)[٢].

وقال الإمام الشافعي: (ويجب استتابة المرتد ذكراً أو غيره لأنه كان محترماً بالإسلام، وربما عرضت له شبهة فتزال، وقيل يمهل ثلاثة أيام)[٣]، وقال الإمام أحمد بن حنبل: (ومن ارتد عن الإسلام من الرجال والنساء وهو بالغ عاقل، دعي إليه ثلاثة أيام)[٤].

على أنه ينبغي ألا يكفر مسلم يحتمل عمله أو قوله الكفر وعدمه إلا إذا كان التكفير بقوله أو بعمله مجمعاً عليه. وقد صرح العلماء بأنه لا يكفر مسلم بقول يحتمل الكفر من تسع وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه واحد[٥].

من ذلك نرى أن محاربة أبي بكر من ارتد من المسلمين بعد وفاة الرسول لم تكن سوى قمع ثورة داخلية أراد بعض من لم يخالط الإسلام قلوبهم القضاء عليه وهو لا يزال في مهده، فلم يكن بد إذاً من أن يقضي أبو بكر على هذه الثورة حتى لا تتصدع أركان الوحدة العربية وتتفرق كلمة المسلمين.

وأما من دخلوا الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه، فإنه لم يرتد منهم أحد. وقد أجمع المؤرخون على أن أهل مكة والمدينة والطائف ثبتوا على إسلامهم، ولم تؤثر فيهم تلك العاصفة التي عصفت بشبه جزيرة العرب على أثر وفاة الرسول.

---

(١) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسي (القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ) جـ ١٠ ص ٩٨ ـ ١٠٠.

(٢) انظر باب الردة وأحكامها في الشرح الكبير للدردير (طبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ) جـ ٤ ص ٢٧٠ حاشية الدسوقي جـ ٤ ص ٢٦٧.

(٣) انظر باب الردة حاشية البجرمي على شرح المنهج (طبعة بولاق سنة ١٣٩٩ هـ).

(٤) انظر كشاف القناع على متن الإقناع (طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) جـ ٤ ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

(٥) انظر باب المرتد في حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين (طبعة مصر سنة ١٢٧٢ هـ). وهذه هي الروح التي أملت على أبي بكر كتابه إلى المرتدين وعهده إلى القواد.

٢ ـ الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان

كان عثمان في السبعين من عمره حين آلت الخلافة إليه. وكان سهلاً ليناً؛ فلم يكن له حزم أبي بكر وعمر، تلك الصفة التي كان لا بد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية في ذلك العهد، وخاصة في دور انتقال العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والاستمتاع بالأموال المتدفقة من البلاد المفتوحة.

ولقد اغتبط المسلمون بخلافة عثمان لما وجدوا فيه من لين وتيسير بعد شدة عمر وتضييقه. فقد سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها[١]، وترك الأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون. كما بدأت الثروات تتدفق على المدينة ومكة تفعل فعلها في نفوس العرب فتغريهم بالاستمتاع بها التي استمتاعاً دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف. فانتشر في المدينة بعض أنواع اللهو[٢]، فاضطر عثمان إلى الضرب على أيدي أصحابها وكبح جماحها ونفى بعضهم عن المدينة فتذمروا[٣]، وتذمر ذووهم وذوو فريق من

---

(١) قال الطبري (جـ ٥ ص ١٣٤): (كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج إلى البلدان إلا بإذن وأجل. فشكوه فبلغه فقام وقال: ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثنياً، ثم رباعياً، ثم سديساً ثم نازلاً (الجزع من الإبل ما كان في السنة الخامسة، والثني ما كان في السادسة، والرباعي (منقوص على وزن ثماني) من الإبل ما كان في السابعة، والسديس ما كان في الثامنة، والبازل ما كان في التاسعة)، ألا فهل ينتظر بالبذل إلا النقصان؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ألا وأن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده. ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار، فلما ولي عثمان الخلافة لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر؛ فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام، فكان مغموماً في الناس وصاروا أوزاعاً إليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك. فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقريب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك).

(٢) قال الطبري (جـ ٥ ص ١٣٤): أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا (أي كثرت الأموال) وانتهى وسع الناس (أي بلغوا من الثروة والترف الغاية) طيران الحمام (أي تطييره) والرمي على الجلاهقات (جمع جلاهق وهو السدق الذي يرمى به الطير)، فاستعمل عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثماني (من خلافته) فقصها (أي قص الحمام) وكسر الجلاهقات.

(٣) روى الطبري (جـ ٥ ص ١٣٧): أن عثمان لما عاقب كعب بن ذي الحبكة على لهوه، غضب ونفر في الناس الذين نفروا فضرب معهم ثم نفى إلى الشام. ولما عاقب ضابىء بن الحارث البرجمي بالحبس وظل فيه حتى مات عثمان، خرج ضابىء وهو يقول:

همت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

وذكر الطبري أيضاً أن نفراً اجتمعوا بالكوفة وفيهم الأشتر وزيد بن صوحان وكعب بن ذي الحبكة وأبو زبيب وأبو مورع.. فقالوا: والله لا يرفع رأس ما دام عثمان على الناس فقال عمر بن ضابىء وكميل بن زياد: نحن نقتله فأما عمير فقد رجع عن عزمه، وأما كميل فإنه جسر وحاول قتل عثمان لولا أن عثمان لكمه.

الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر . فقد روى السيوطي[١] أن بني هذيل وبني زهرة حنقوا على عثمان لهناة (إساءة) كانت منه إلى صاحبهم عبد الله بن مسعود، وكذلك غضب بنو غفار وأحلافها لأبي ذر الغفاري، وبنو مخزوم الذين حنقوا على عثمان لما صنع بعمار بن ياسر.

لذلك لا نعجب إذا رأينا هؤلاء يسارعون إلى إجابة دعاة الثورة على عثمان في الأقاليم. وكان ذوو قرباهم في المدينة وما حولها أول من استاء من سياسة عثمان، كما كانوا أكثر الناس مجاهرة بالتبرم من أعماله ونقداً لسياسته، مما اضطر عثمان ـ وهو صحابي جليل وخليفة المسلمين ـ إلى تبريرها أمام جمهور المسلمين[٢]. فكان تبرير بعضها كافياً لبيان صحتها وإخلائه من المسؤولية، ولكن الدعاية السيئة التي قامت ضده كثيراً ما كانت تغلب على حججه وأدلته، وكان تبريره بعضها الآخر ضعيف الحجة[٣]، لم يقتنع به شيوخ الصحابة ولم يخله من لومهم واعتراضهم عليه.

وذكر الطبري والدينوري والسيوطي وغيرهم عدة أشياء استحدثها عثمان في الدين لم يسبق بها في عهد الرسول ولا في عهد أبي بكر وعمر. فهو أول من أقطع القطائع، وأول من خفض صوته بالتكبير، وأول من أمر بالأذان يوم الجمعة، وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة، وأول من فرض الناس إخراج زكاتهم، وأول من أخذ الزكاة على الخيل، وكان النبي قد أعفى من زكاة الخيل والرقيق، وأول من حمى الحمى[٤]. يقول بعض إنه حمى الحمى لإبل الصدقة ولإبله وخيله وإبل بني أمية وخيلها. ويقول عثمان: إنه لم يحم الحمى إلا لإبل الصدقة. ولما لامه المسلمون على أنه حمى الحمى لإبل الصدقة كانت حجته إنما أراد ألا

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠٦.

(٢) مما عابوه على عثمان أنه حمى الحمى، فأجابهم عنه بأن عمر قد اتخذه من قبله ولم يفعل إلا أن وسع هذا الحمى لما زادت إبل الصدقة وامتنع بعض المسلمين الذين يملكون أرضاً بجوار المسجد النبوي عن تسليمها إليه ليوسع بها المسجد، فأحذها عنوة وقال: قد فعل ذلك عمر من قبل.

(٣) قال عثمان حين سئل عن بذخه وترفه وأكله ألين الطعام وشدة أسنانه بالذهب ومقارنة ذلك بما كان يصنع عمر: يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق؟ وقوله عن الأموال التي كان يغدقها على نفسه والأعوان من أهله وأقربائه على حين كان عمر يستغني من بيت المال بالكفاف: كان هذا حقاً لعمر وقد تركه وتبرع به للمسلمين وليس عليّ من لا يتبرع بشيء من حقه لوم ولا تثريب وكذلك كان موقفه من الولاة الذين عينهم من أقربائه، فاستغاث منهم رعيتهم فلم يردعهم ولم يكفهم.

(٤) يقال حمى فلان الأرض يحميها حمى حتى لا يقرب. والحمى موضع فيه كلأ يحمي من الناس أن يرعى. وقال الشافعي رضي الله عنه في تفسير قوله ﷺ: «لا حمى إلا لله ولرسوله». وكان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى خاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره فلم يرعه معه أحد. وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله، فنهى النبي ﷺ أن يحمي على الناس كما كانوا في الجاهلية يفعلون.

يكون هناك اختلاف بين الأفراد والدولة فيما يتصل بالمراعي.

كذلك أخذ المسلمون على عثمان أنه أعاد عمه الحكم بن العاص وأهله إلى المدينة، وكان الرسول قد أخرجهم منها بسبب إيذاء الحكم للرسول. ولكن عثمان شفع عند الرسول في إعادته فلم يعده. فلما ولى الخلافة أعاد الحكم إلى المدينة. ولما مات الحكم ضرب عثمان على قبره فسطاطاً وولى ابنه الحارث بن الحكم سوق المدينة، فأساء السيرة وطمع في جمع المال، وآثر ابنه الآخر مروان بن الحكم فاتخذه وزيراً ومشيراً، فأنكر المسلمون ذلك وسعى إليه أعلام الصحابة فلاموه فيه، ولكنه زعم لهم أنه كلم النبي في رد الحكم فأطعمه في ذلك، ثم توفي قبل أن يرده[1].

كما نقم المسلمون على عثمان أنه عزل ولاة عمر عن الأمصار وولاها ذوي قرباه ومن بينهم وبينه صلة.

كان هذا في داخل المدينة وهي حاضرة الدولة وقلبها النابض. أما في الولايات الإسلامية فقد وجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتذمرين من عثمان الحانقين عليه طبقتان من الشعب: طبقة الأرستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة، وطبقة المقاتلين المتبرمين من فقرهم وحرمانهم.

أوجد الطبقة الأولى عثمان، فقد أباح لأعلام قريش ـ كما أسلفنا ـ أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات الإسلامية المفتوحة كالعراق والشام ومصر. كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملاكهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار، وقد تصدى المسعودي لذكر نفر من هؤلاء الصحابة الذين رحلوا إلى الولايات واستقروا بها فقال: (وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور).

خرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار إلى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز، وأنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمها السبق في الإسلام وصحبه الرسول. وإنا لنستطيع من وراء تلك الثروات التي وصف لنا المسعودي بعضها ـ أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية ذات الزعامة الدينية، ويلتفون حولهم معجبين بأخلاقهم ومحامدهم مأخوذين بأحاديثهم عن مواقفهم المجيدة وحسن بلائهم في نصرة النبي على أعدائه المشركين، ومفتونين بما يضفيه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات، حتى أصبح كل فريق منهم يتمنى أن تصير الخلافة في يد صاحبه.

ومن بين هؤلاء الأشياع والأتباع نفر كان يتمنى أن يلي صاحبهم الخلافة لتكون لهم

---

(١) طه حسين: فتنة عثمان ص ١٨٠ ـ ١٨٥

الحظوة عنده. فتعظم مكانهم ويعلو مقامهم. وإن اختلاف الوفود التي أتت من الولايات الإسلامية لخلع عثمان، على من توليه خلفاً له ـ حتى قال أهل البصرة نولي الزبير وقال أهل الكوفة نولي طلحة... الخ ـ لأكبر دليل على صحة هذا القول.

كما وجد إلى جانب هذه الطبقة الأرستقراطية طبقة أخرى فقيرة معدمة أنشأها عمال عثمان، باستئثارهم بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وحرمان المقاتلة منها. مدعين أن بالفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه. فلما رأى هؤلاء المحاربون ـ وجلهم من البدو ـ هذه الثروات الضخمة والأموال الكثيرة يستأثر بها الحكام والقواد من قريش، ورأوا أنفسهم قد خرجوا من الصحراء يطلبون الغنى والمجد في ظلال السيوف، فاحتكرتها قريش لنفسها حرمتهم حتى من الغنائم التي كانت تعطى للمحارب في عهد الرسول ثم في عهد أبي بكر وعمر، حقدوا على قريش واعتبروها مغتصبة لحقوقهم وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها. لذلك لا نعجب إذا أعلن المقاتلة من العرب بأن أموال الفيء والغنائم إنما هي لهم وليست للحكومة، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله.

من هذا كله يتبين أن حال الدولة الإسلامية قد تغيرت تماماً في عهد عثمان، وأن هذا التغير أثار روح المعارضة لسياسة الحكومة والاستياء من تصرفاتها، وبعث على التمرد عليها في المدينة وفي جميع الأمصار. فكان هذا الجو ملائماً تمام الملاءمة ومهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لف لفه والتأثر بها إلى أبعد حد.

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم اشتهر بالورع والتقوى ـ وكان من كبار أئمة الحديث ـ وهو أبو ذر الغفاري[1] الذي تحدى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ. وكان يهودياً فأسلم، ثم أخذ يتنقل في البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة والشام ومصر.

وفد ابن سبأ إلى الشام وحرض أبا ذر على معاوية وقال له: يا أبا ذر! ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله؟ ألا أن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه[2] دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين[3] (أي من ديوان العطاء).

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن استياءه من سياسة معاوية، ويحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الإقلاع عن ادخار الأموال وكنزها، محتجاً بقوله تعالى: ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار

---

(١) كان أبو ذر من أهل الصفة، ولا يبعد ان يكون لهذا أثر في ميوله الاشتراكية.

(٢) احتجن المال: ضمه واحتواه.

(٣) الطبري ١: ٢٨٥٩.

جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ [سورة التوبة ٩: ٢٤]. كما لا نعجب أيضاً إذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسيئون إلى الأغنياء حتى شكوا ذلك إلى معاوية. فلما رفع معاوية الأمر إلى عثمان أيقن أن الفتنة قد أخرجت بخطمها[١] وعينها.

وقد بعث عثمان في طلب أبي ذر الذي آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسة. وكأن أبا ذر قد تنبأ بتلك الثورة التي ذهب ضحيتها. ولما دخل المدينة وجد المجتمعات تعقد للتآمر على عثمان، نادى في المجتمعين: (بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار).

وقد أذن عثمان لأبي ذر بالإقامة في الربذة، وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة ـ أو نفاه إليها على ما ذهب إليه ابن هشام[٢] والخوارزمي[٣] ـ ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات سنة ٣١ هـ وهو كاره لها.

ولقد وجد ابن سبأ ـ وهو أول من حرض الناس على كره عثمان ـ الطريق ممهدة لخلعه. ولسنا نشك في حسن نية أبي ذر، وما كان من استيائه من عثمان ومن سياسته. فقد كان مصدر استيائه ما كان يعتقده في عثمان في هوادة في الدين وتهاون في أحكامه، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ.

وقد صادفت دعوة ابن سبأ في البصرة مرعى خصيباً؛ بيد أن عبد الله بن عامر والي عثمان طرده من هذه البلاد، فرحل إلى الكوفة، حيث تفاقم استياء الناس من عثمان ووالية، ومن قريش الذين استولوا على أرض السواد[٤]، واتخذوه بستاناً لهم، وواصل الثائرون الاجتماعات في منازلهم ولعن عثمان جهاراً وخاض الناس فيما ارتكب من عظائم الأمور.

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً، فقصد الشام، فلم يلق من أهلها ما لقي في البصرة والكوفة، فرحل إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين، واتصل بالثائرين في البصرة والكوفة، وتبادل معهم الكتب والرسل، وبعث الدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلي، واستطاع أن يؤثر في نفوس الناس: فوضع مذهب الرجعة أي رجعة محمد، ثم نشر مذهب

---

(١) الخطم: (بفتح الخاء وسكون الطاء) مقدم الأنف والفم من الدابة، والمراد هنا: بدأت أوائل الفتنة.

(٢) سيرة ابن هشام (طبعة أوربا) ٢: ٩٧١.

(٣) رسائل الخوارزمي ص ١٣١. مروج الذهب للمسعودي جـ ١ ص ٤٨٣.

(٤) موضعان إحداهما بنواحي البلقاء، حيث السواد لسواد حجارتها، والثاني يراد به رسباق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب. سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، كانوا إذا حرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار فيسمونه سواداً، كما ترى شيئاً من بعد فتقول: ما ذلك السواد؟ وهم يسمون الأخضر سواداً والسواد أخضراً.

الوصاية، بمعنى أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين. واتهم أبا بكر وعمر وعثمان بالتعدي على حق علي في الخلافة، كما روج بين المسلمين نظرية الحق الإلهي التي أخذها عن الفرس الذين احتلوا قبل الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله. وبذلك هيأ ابن سبأ العقول إلى الاعتقاد بأنْ عثمان اغتصب الخلافة من علي وصي الرسول، وأخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى ولاته، فقال لهم: (إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وهذا علي وصي الرسول ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر)[1].

وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته في مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان وعلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامله على مصر ومن ذوي قرباه. كما ساعد انضمام محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر على إذكاء نيران السخط في مصر ونجاح ابن سبأ في سياسته.

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبي بكر إلى صلة النسب بينه وبين علي بن أبي طالب وابنه الحسين بن علي. فقد تزوج علي أسماء بنت عميس أم محمد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه. فكان ابن أبي بكر ربيباً في بيت علي؛ ولأن الحسين بن علي ومحمد بن أبي بكر كانا زوجين لابنتي يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان من الفرس، ولأن كتاب مروان بن الحكم قد كتب إلى ابن أبي سرح بقتل محمد بن أبي بكر والتمثيل به وبمن معه من المهاجرين والأنصار.

وأما مسلك ابن أبي حذيفة العدائي لعثمان فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبي سرح في غزوة ذات السواري التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ على ما تقدم.

ولما وضعت الحرب أوزارها. رجع هو ومحمد بن أبي بكر إلى الفسطاط حيث انضما إلى ابن سبأ[2]. وذكر المقريزي السبب الذي حدا ابن أبي حذيفة على أن يسلك هذا المسلك العدائي لعثمان فقال: إن ابن أبي حذيفة تربى في كنف عثمان بعد وفاة أبيه؛ فلما ولي عثمان الخلافة طلب أن يوليه بعض أمور المسلمين، فأبى ذلك عليه، إذ نُمي إليه أنه شرب الخمر فقال له: لو كنت رضا لوليتك ولكنك لست هناك.

وقد أصبحت الحالة في البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطر عثمان إلى ندب أربعة من رجاله ليبحثوا أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال في الولايات الإسلامية: فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، وهو أحد أصحاب رسول الله ومن السابقين إلى الإسلام.

---

(١) الطبري ١: ٢٩٤٢.

(٢) الطبري جـ ٥ ص ٧٠ ـ ٧١، ١٣٥.

وقد عاد هؤلاء إلى الخليفة إلا عمار بن ياسر، فقد استماله الثائرون في مصر[١]. وساعد على ذلك ما كان بين عمار وعثمان الذي أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب.

وقد حقق ابن سبأ ما كان يرمي إليه من تأليب الولايات الإسلامية على عثمان وولاته. وليس أدل صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه من أمثال محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر.

ولا غرو فقد قام ابن أبي حذيفة بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ. فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة واتفقوا على الشخوص إلى المدينة، وهو ما يمكن تسميته دور العمل. وخرج كل منهم في ستمائة رجل توافوا خارج المدينة حيث اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان: فمال أهل البصرة إلى الزبير، وأهل الكوفة إلى طلحة، ورغب أهل مصر - وعلى رأسهم ابن سبأ - في علي بن أبي طالب، وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره[٢].

أجاب عثمان وفد مصر إلى مطالبه، فقفل راجعاً، وبينما هم في الطريق رأوا راكباً يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى ففتشوه، فإذا هو يحمل كتاباً عن لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله على مصر، يأمره فيه أن يستأصل شأفة هذا النفر قتلاً وتصليباً، فعادوا إلى المدينة ودخلوا على عثمان، فأغلظ الإيمان على أنه ما كتب ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ولا علم له به. فطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان بن الحكم، إذ قام عندهم الدليل على أنه هو الذي بعث بهذا الكتاب، فأبى عثمان، فحاصروه اثنين وعشرين يوماً، فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه، فناشدهم الله أن يكفوا حتى لا يندلع لسان الفتنة ويتفاقم خطرها.

ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى، وأن المدد الذي طلبه عثمان من الولايات الإسلامية أوشك أن يباغتهم، جدوا في أمرهم واقتحموا عليه الدار بعد أن دار القتال بينهم وبين من تصدى للدفاع عنه، كمحمد بن أبي بكر والحسن والحسين ابني علي وعبد الله بن الزبير. ولما حوصر عثمان أشرف على المتآمرين وقال لهم: أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ، ألستم تعلمون أن رسول الله قال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»، فجهزته. ألستم تعلمون أن رسول الله قال: «من حفر بئر رومة فله الجنة»، فحفرتها[٣]؟.

---

(١) المصدر نفسه ١: ٢٩٤٥ - ٢٩٤٦.

(٢) الطبري ١: ٢٩٥٥.

(٣) الطبري جـ ٥ ص ١٣٠ - ١٣٢. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

وقد قتله الغافقي بحديدة كانت معه، وجاء غيره ليضربه بسيفه فأكبت زوجه نائلة وتلقت السيف بيدها، فقطع إصبعها. وانتهبوا بيته وبيت المال. وكان ذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٦ م). وتولى علي بن أبي طالب الخلافة في الخامس والعشرين من هذا الشهر، فكان ذلك أول فصول هذه المأساة وما أعقبها من تحزب العرب أحزاباً مما أضعف الإسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقاً.

ويظهر أن أهل المدينة تواكلوا في الدفاع عن عثمان، إذ يبعد كل البعد أن يعجزوا عن نصرته وصد تلك الفئة الباغية عنه، وهم الذين مرنوا على الحرب وبرهنوا في مواقفهم مع رسول الله وأبي بكر وعمر عن شجاعة نادرة واستبسال لا يزال مضرب الأمثال، فلو أنهم نشطوا للذود عن عثمان لما تمكن الثوار مع قلة عددهم من قتله والاستبداد بالأمر والتحكم في المدينة ومن بها.

ولا شك أن كثيراً من علية القوم في المدينة نقموا على عثمان إيثاره بني أمية على غيرهم من جلة الصحابة، فنفضوا أيديهم من تلك الفتنة لما بلغ الهياج أشده، ولم تجد نصائحهم نفعاً، فظلوا يشاهدون تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد، ظناً أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق.

روى ابن قتيبة أن عثمان خرج إلى المسجد، فإذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس فقال عثمان: (والله يا أبا الحسن ما أدري، أشتهي موتك أم أشتهي حياتك؟ فوالله إن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأني لا أجد منك خلفاً).

وقال صاحب الفخري (ص ٥٥): (وما زال علي عليه السلام من أكبر المساعدين لعثمان الذابين عنه، وما زال عثمان يلجأ إليه في دفع الناس عنه، فيقوم عليه السلام في دفعهم عنه القيام المحمود. ولما حوصر عثمان أرسل إليه عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام لنصرة عثمان رضي الله عنه، فقال: إن الحسن عليه السلام استقتل مع عثمان، فكان عثمان يسأله أن يكف فيقسم عليه وهو يبذل نفسه في نصرته).

٣ ـ الأحزاب بعد مقتل عثمان

أ ـ خروج طلحة والزبير وعائشة ـ موقعة الجمل:

نصح علي بن أبي طالب الذين طالبوا بدم عثمان أن يتريثوا، حتى إذا هدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه أجرى الحق مجراه وتمكن من إنزال الجزاء بقتلة عثمان. إلا أن نصائحه لم تجد أذناً مصغية. فقد ساء عائشة قتل عثمان. وانضم إليها طلحة والزبير. وقيل إن الزبير كان يطمع في ولاية العراق، وطلحة في ولاية اليمن. فلما أرسل علي الولاة ولم يكن لهما حظ

في الولاية، نقما عليه وندما على بيعتهما وعزما على الخروج، فاستأذنا علياً في الخروج إلى مكة لأداء العمرة، ولكنه لم يخف عليه أمرهما، فقال لهما: والله ما العمرة تريدان.

وقد عولت حفصة بنت عمر زوجة الرسول على الخروج مع عائشة، ولكن أخاها عبد الله ثناها عن عزمها. ولم يكن من رأي أم سلمة زوج الرسول أن تمضي عائشة في هذا السبيل، فأرسلت إليها كتاباً طويلاً تطلب إليها العدول عن الخروج وتقول لها: (لو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك. أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة[١] في الدين؟ فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ولا يرأب بهن إن انصدع. جهاد النساء غض الأطراف وضم الذيول وقصر الموادة. ما كنت قائلة للرسول ﷺ لو عارضك[٢] ببعض هذه الفلوات[٣] ناصة قعوداً[٤] من منهل إلى منهل؟ وغداً تردين على رسول الله ﷺ؛ وأقسم لو قيل لي يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتُكة حجاباً ضربه عليّ. فاجعليه سترك وقاعة البيت حصنك، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرتهم. ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشت نهش الرقشاء[٥] المطرقة والسلام).

فردت عائشة عليها بهذا الكتاب: (أما بعد، فما أقبلني لوعظك وأعرفني لحق نصيحتك، وما أنا بمعمرة بعد تعريج، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه فئتين متشاجرتين من المسلمين، فإن أقعد فعن غير حرج، وإن أمض فإلى ما غنى بي عن الازدياد منه، والسلام)[٦]؟.

عمل طلحة والزبير على استمالة زعماء البصرة[٧]، كما استمالا عبد الله بن عمر؛ لكنه كان يرى في القعود النجاة والخير، كما كان يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم[٨].

ولم يصغ طلحة والزبير لنصح الناصحين ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التي كادت تتمزق شر ممزق، بل لم يكن لنصيحة أم سلمة أي أثر في نفس عائشة. وسرعان ما خرج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة في ستمائة رجل. فلما وصلوا (إلى ماء الحوأب) في طريق البصرة، نبحتهم كلابه، فسألت عائشة محمد بن طلحة: أي ماء هذا؟ قال: هذا ماء الحوأب. فقالت:

---

(١) الإفراط مجاوزة الحد.

(٢) قابلك أو التقى بك.

(٣) جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة.

(٤) نص البعير أو الفرس، استخرج أقصى ما عنده من السير، والقعود الناقة.

(٥) الرقشاء: من الحيات المنقطة بسواد وبياض.

(٦) انظر هذين الكتابين في العقد الفريد جـ ٣ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٧) هم كعب بن سور سيد اليمن، والمنذر بن ربيعة سيد ربيعة، والأحنف بن قيس سيد مضر.

(٨) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٠، ١٠٣.

ما أراني إليّ راجعة، قال: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «كأني بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب، وإياك أن تكوني أنت يا حميراء». فقال لها محمد بن طلحة: تقدمي رحمك الله ودعي هذا القول، وأتى عبد الله بن الزبير فحلف لها بالله أنها غادرته أول الليل، وأتاه بينة من الأعراب فشهدوا بذلك فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الإسلام.

استأنف الجيش السير إلى البصرة. وقد عرض لهم سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة في الطريق، ونصحا لهم بالرجوع، كما نصحا الجند. وسار علي بن أبي طالب نحو البصرة. والتقى الجيشان في مكان يقال له الخريبة[١] في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ. ونشب القتال، وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكراً، واقتتل الناس حوله حتى صار كالقنفذ من النشاب، وثبتت عائشة وحماها مروان بن الحكم في نفر من قيس وكنانة وبني أسد، وظل مروان كلما وثب رجل إلى الجمل ضربه بالسيف وقطع يده، حتى قطع نحو عشرين يداً، وأتاه رجل من خلفه وضربه وضرب عرقوب الجمل، وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة وطلحة والزبير، وأسرت عائشة ومروان بن الحكم، وقتل طلحة، رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله لما كان يتهمه بتحريض الناس على عثمان. وانصرف الزبير إلى المدينة، فقتله ابن جرموز غيلة في الطريق. وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل، وأدخلها أخوها محمد بن أبي بكر إلى البصرة. وسأل علي عائشة: أترتحل إلى المدينة؟ قالت: أرتحل. فجهزها بما احتاجت إليه، وسير معها أولاده مسيرة يوم، وشيعها الناس. وقيل إن عدد القتلى في يوم الجمل عشرة آلاف من الفريقين[٢].

وإنا لا ندهش أن يقابل علي إساءة عائشة إليه بالعفو فيحسن إليها الإحسان كله، ويجهزها بما تحتاج إليه في سيرها، ويزورها في البيت الذي نزلت فيه، ويوفد أولاده ليشيعوها، ويودعها بنفسه، لذلك قالت عائشة يوم رحيلها لمشيعيها: إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي ـ على معتبتي ـ من الأخيار[٣]. قال علي: (أيها الناس! صدقت والله وبرت، وإنه ما كان بينهما إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة)[٤].

على أننا نرى أنه لم يكن هناك مبرر لخروج طلحة والزبير وعائشة، ما دام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم والحدود، ولا سيما بعد أن وعدهم علي بالنظر في أمر عثمان والبحث عن قاتليه

---

(١) سميت بذلك فيما ذكره الزجاجي، لأن المرزبان كان قد بنى به قصراً خرب بعده. فلما نزل المسلمون بالبصرة ابتنوا عنده، وسموه الخريبة.

(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) لهذا القول علاقة بحادثة الإفك التي أشرنا إليها في غزوة بني المصطلق.

(٤) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٢٠، ٥٦.

والقصاص منهم عندما تستقر الأمور وتهدأ تلك الفتنة. ونرى من جهة أخرى أن مجرد قبول علي في جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان في الوقت الذي يطالب فيه الناس بدمه، كاف لأن تحوم حوله الشبهة التي تبرر اتهامه بالاشتراك في دمه.

ب ـ النزاع بين حزب عثمان وحزب علي ـ موقعة صفين ـ التحكيم:

على إثر انتصار علي في موقعة الجمل انحصر النزاع بين حزبين اثنين:

١ ـ حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأناً والمطالب بدمه.

٢ ـ حزب علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين، ورأس بني هاشم، الذين كان العداء بينهم وبين بني أمية قديماً منذ الجاهلية، ولم يزده الإسلام إلا شدة: فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علي يوم بدر، كما أن بني هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد.

وقد صورت أم الخير بنت الحريش البارقية، الخلاف بين علي ومعاوية، وذكرت أسبابه في تلك الخطبة التي ألقتها يوم صفين: (يا أيها الناس! اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم؛ إن الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل، ورفع العلم؛ فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة. فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [سورة محمد ٤٧: ٣١]؟ قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وبيدك يا ربي أزمة القلوب. فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصديق الأكبر. إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس.. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته وأبي ابنيه؟ (تعني الحسن والحسين). خلق من طينته، وتفرع عن نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك حتى يؤيده الله بمعونته، ويمضي على حسن استقامته، لا يعرج لراحة اللذات، وهو مفلق الهام ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون: فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي

---

(١) سورة محمد ٣١: ٤٨.

بدر، وأفنى أهل أحد، وفرق جمع هوازن. فيا لها وقائع زرعت في قلوب القوم نفاقاً وردة وشقاقاً. وقد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق،.والسلام عليكم ورحمة الله).

بادر علي لما عرف عنه من شدة في الحق بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وخروج الثوار عليه. وقد أذعن جميع الولاة لأمر علي وانصرفوا عما كانوا يلونه من الولايات.

أما معاوية بن أبي سفيان الذي مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوي من المرتزقة الذين انضموا إليه طمعاً فيما كان يضفيه عليهم من الأرزاق ويسبغه من الأعطيات، فقد أبى الإذعان لأمر علي وشق عصا الطاعة عليه، واتهمه بدم عثمان لأنه آوى قتلته في جيشه.

وأصر معاوية على أن يقاتل علياً بجند الشام بعد أن أوغر صدورهم عليه لإيوائه قتلة عثمان في جيشه. فلما بلغ علياً أن معاوية استعد للقتال ومعه أهل الشام، توجه إلى الكوفة بعد انتصاره في موقعة الجمل ووجه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته والدخول في طاعته، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما. فماطله معاوية واستنظره وكتب إلى عمرو بن العاص: (أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، فقد قدم علي جرير بن عبد الله في بيعة علي، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني، فأقدم على بركة الله تعالى)[1].

ولما قدم عمرو على معاوية، أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى[2].

رجع جرير إلى علي وأخبره بحال معاوية، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين بكوا حين وضع لهم معاوية على المنبر قميص عثمان الذي قتل فيه مخضباً بدمه وإصبع زوجه نائلة معلقة فيه. وكتب بالخبر إلى الأجناد، فآلوا على أنفسهم ألا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان، وأجمعوا على قتال علي اعتقاداً منهم أنه قعد عن نصرة وعثمان وآوى قتلته.

سار علي من الكوفة إلى صفين في تسعين ألفاً، وسار معاوية من الشام في خمسة وثمانين ألفاً على ما رواه المسعودي[3]. وعسكر في موضع سهل على الفرات، وبات علي وجيشه في البر عطاشاً لأنه حيل بينهم وبين الماء.

---

(١) اليعقوبي جـ ١ ص ٣١٥.

(٢) هذا ما ذكره الطبري، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبي من أن عمراً أشار على معاوية ألا يذكر عثمان لأن معاوية خذله؛ وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب إلى فلسطين.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥ ـ ١٧.

ولكن علياً أرسل من أجلى رجال معاوية عن الماء. فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده، فأذن له. وبعد يومين من نزول علي في هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوه إلى توحيد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين. وطالت المراسلات بينهما، فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ. ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد[١].

ويظهر من رواية الطبري[٢] أن رسل علي إلى معاوية لم يكونوا ليصلحوا رسل صلح؛ فقد كانت فيهم شدة، وكان رسل معاوية يسيئون الرد عليهم، مما وسع مسافة الخلف بين الفريقين.

وفي اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ هـ عاد القتال بين علي ومعاوية سيرته الأولى. فكان يخرج قائد من هنا وقائد من هناك للمبارزة، حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ فباتوا يصلحون أمرهم، وغدت الأمة العربية على حد قول الشاعر:

أصبحتِ الأمةُ في أمر عجب والأمر مجموعٌ غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

اشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياماً متوالية. فلما قتل عمار استاء أصحاب علي لمقتله، فزحفوا على جند معاوية حتى أشرفوا على الفتح. فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام: الله الله في الحرمات والنساء والبنات! وقال: هلم مخبأك يا ابن العاص فقد هلكنا. غير أن عمرو بن العاص استطاع بما أوتيه من فنون الدهاء أن يفرق بين جند علي وقال لجنده: (أيها الناس! من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه)، فرفعوا المصحف وقال قائلهم: (هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم). فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا: (نجيب إلى كتاب الله)[٣]: وأراد عمرو بحيلته هذه أن يكسر من حدة جند علي وحميتهم ـ وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ـ وأن يفرق بينهم ويفت في عضدهم فيكفون عن قتالهم.

ولما رغب أهل العراق في الموادعة نصح لهم علي ألا يغتروا بقول معاوية وأصحابه وقال لهم: إن ذلك لم يكن إلا خديعة أرادوا بها أن يفرقوا كلمتكم ويقضوا على وحدتكم. فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال، فأرسل إليه، فقال الأشتر للرسول: (ليس هذه الساعة التي ينبغي أن تزيلني فيها عن موضعي وقد رجوت أن يفتح لي فيها فلا تعجلني) فرجع الرسول بالخبر، فما انتهى إليه حتى ارتفع الضجيج وعلت الأصوات بين جند الأشتر، فقال له

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٧٢.
(٢) جـ ٥ ص ٣٤٣.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠ ـ ٢٢.

القوم: (والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل. ابعث إليه فليأت، وإلا والله اعتزلناك). فقال علي للرسول: (ويحك! قل للأشتر أن يقبل فإن الفتنة قد وقعت)، فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة القتال.

أرسل علي الأشعث بن قيس إلى معاوية يستطلع رأيه، فقال له معاوية: (نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه: تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله).

ثم رجع الأشعث إلى علي فأخبره برأي معاوية، فقال الناس: رضينا وقبلنا، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال أهل العراق قد رضينا أبا موسى الأشعري، فقال علي: "(قد عصيتموني أول الأمر فلا تعصوني الآن)، وبين لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه، فأبوا إلا إياه، فأذعن على كره منه[1].

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدومة الجندل[2]، حيث كتبا عقد التحكيم في شهر صفر سنة ٣٧ هـ. وهذه صورة ذلك الكتاب نقلاً عن الطبري (جـ ٦ ص ٢٩ ـ ٣٠):

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضي عليّ على أهل الكوفة ومن معه من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين: إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات. فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل، وهما أبو موسى الأشعري عبد الله ابن قيس، وعمرو بن العاص القرشي، عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه . . . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان. وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما، وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة، وأرادا فيه إلحاداً وظلماً. المهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة.

---

(١) اليعقوبي جـ ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩، المسعودي: جـ ٢ ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) بضم الدال وفتحه تبعد عن دمشق بسبعة مراحل وتقع على الطريق من دمشق إلى المدينة.

ولما حان وقت اجتماع الحكمين بعث علي بن أبي طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي وعبد الله بن عباس يُصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام، فتوافوا بدومة الجندل. وذكر المسعودي[1] أنه لما دنا وفد علي من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبي موسى: إن علياً لم يرض بك حكماً لفضل على غيرك، والمتقدمون عليك كثيرون، وإن الناس أبوا غيرك. وإني لأظن ذلك لشر يراد بهم. وقد ضم داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة. ووصى معاوية عمراً حين رافقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى فقال: يا أبا عبد الله! إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأخذ الجد. . لا تلقه برأيك كله. ووافى عمراً سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة وغيرهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي. ويتبين لنا مما ذكره المسعودي:

١ ـ أن أبا موسى لم يكن بالرجل الذي يقف أمام عمرو داهية العرب هذا الموقف الذي يحتاج إلى الحنكة في السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين.

٢ ـ أن علياً أكره على اختيار أبي موسى، فلم يثق به لأنه فارقه وعذل الناس عنه. وأما معاوية وأهل الشام فقد كانوا راضين بعمرو.

اجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ. وفي هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره. إذ استدرج أبا موسى حتى خلع علي حين ثبت عمرو موكله معاوية. قال المسعودي[2]: قال عمرو: يا أبا موسى! رأيت أول ما نقضي لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل الغدر بغدرهم، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحديث الذي حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله، ثم قال: يا عمرو! هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين، فجزاه عمرو خيراً وقال: إن الكلام أولاً وآخراً، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه في كتاب يصير إليه أمرنا؛ فقال أبو موسى: فاكتب، فدعا عمر بصحيفة وكاتب، فتقدم إليه ليبدأ به أولاً دون أبي موسى لما أراد من المكر به، ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا. اكتب. . !

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٥.

بسم الله الرحمن الرحيم، هـذا ما تقـاضى عليه عبـد الله بن قيس وعمرو بن العـاص، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ثم قال عمرو: نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذي عليه. قال أبو موسى: اكتب! ثم قال في عمر مثل ذلك. قال عمرو: اكتب! وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضـا منهم، وأنه كان مؤمناً. فقال أبو موسى: ليس هذا والله مما قـعدنا له. قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كـافراً. قـال أبو مـوسى: اكتب! قال عمـرو: فظالمـاً قتل أو مـظلوماً، قـال أبو موسى: بل قتل مظلوماً، قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم! قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا! قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى! فقال عمرو للكاتب: اكتب! وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإنا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان، قال أبو موسى: وهذا أمر حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لله، فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد. قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: لقـد علمت أن أهل العـراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله ابن عمر؟ فعمد عمر إلى ما قاله أبو موسى فصوبه، وعدد له جماعة وأبو موسى يأبى إلا ابن عمر. فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً.

ويتبين ممـا كتب في تلك الصحيفـة مبلغ تفـوق عمـرو على أبي مـوسى في الـدهـاء والسياسة. فلا غرو فقد استدرجه حتى أقر له بأن عثمان قتل مظلوماً، وأن لمعاوية الحق في أن يطلب بدمه المسفوك. وهكذا تمكن عمرو من تنفيذ غرضه والوصول إلى غايته وهو خلع علي ابن أبي طـالب وتثبيت معاويـة بن أبي سفيان، على الـرغم من تشبث أبي موسى بخلع معـاوية واستخلاف عبد الله بن عمر دون غيره من الصحابة.

قال الطبري (٦: ٣٩): قال عمرو لأبي موسى (بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتـولية الخـلافة): مـا رأيك؟ قـال: رأيي أن نخلع هذين الـرجلين ونجعل الأمـر شورى بين المسلمين فيختاروا لأنفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: إن الرأي ما رأيت وقال: يا أبا موسى! أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق فتكلم أبو موسى: إن رأيـي ورأي عمرو قد اتفق عـلى أمـر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة، فقال عمرو: صدق. تقدم يا أبا موسى فتكلم، فتقدم أبا موسى ثم قال: أيها الناس! إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمـرها ولم شعثها من أمر قد أجمع رأيـي ورأيه عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، فتستقبل هذه الأمة هذا

الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم. وإني قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه؛ فتنابذا، وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة، ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة!

ونحن نشك في هذا ونميل إلى ما قاله المسعودي[1] إنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب في الصحيفة، وما كان من إقرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك، وأنهما لم يخطبا، وإنما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وأن يولي المسلمون من أحبوا.

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأي، ونرى أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم، وصادف أن خالف رأيه رأي علي وبني هاشم، فكان هذا مصدر سخط بعض المسلمين عليه. ولا شك أن رأي أبي موسى كان رأي طائفة عظيمة من معاصريه، ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافياً وحده لتثبيت ملك صاحبه، بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر منها:

١ ـ اضطراب جند علي بن أبي طالب الذي أراد إعادة الكرة على معاوية وبخاصة بعد موقعة صفين وانشقاق الخوارج عليه.

٢ ـ اتحاد جند معاوية والتفافهم حوله وتفانيهم في نصرته. ولا غرو فقد عمل منذ ولي بلاد الشام في عهد عمر على استعمارها بأتباعه وذوي قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح.

وإن الناظر في أمر التحكيم ليجد أنه لم يكن قائماً على أساس، إذا لم يكن من وراء الحكمين قوة من المسلمين تستطيع تنفيذ حكمهما. فقد اتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية، وأن يستقبل المسلمون أمرهم من جديد فيولوا عليهم من يختارونه للخلافة، وقد دونا ذلك في صحيفة ختما عليها جميعها. بيد أننا نرى أن الفريقين لم يذعنا لهذا الحكم، مع أن الحكمين قد فوض إليهما الفصل في هذا الخلاف. وكل ما كان للتحكيم من أثر هو أنه أعطى الفرصة لجند الشام بالاستئثار بالأمر بعد أن انقسم جند علي.

ولما علم علي بهذه الخدعة أراد أن يحكم السيف بينه وبين معاوية وأخذ يستعد لقتاله من جديد. فلما تكامل جيشه واعتزم المسير إلى الشام، جاءته الأخبار أن الخوارج الذين اعتزلوه قد ساروا نحو «المدائن».

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧.

٤ - الخـوارج

أ - نشأة الخوارج - يوم النهروان :

كانت الأمة الإسلامية حين ولى معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب :

١ - شيعة بني أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية وخاصة مصر، وكانوا يرون أن تكون الخلافة في قريش وأن البيت الأموي أحق بها.

٢ - شيعة علي بن أبي طالب، وكانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر، وكانوا يرون أن تكون الخلافة في قريش وأن علياً وأولاده من بعده أحق المسلمين بها.

٣ - الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين. وكان هؤلاء الخوارج يمثلون الديمقراطية الإسلامية، إذ كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفؤاً لا فرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي.

كان لكل من الأحزاب أتباع وأشياع يدينون برأيه في الخلافة. ومنها الديمقراطي كحزب الخوارج، وغير الديمقراطي كسائر الأحزاب الأخرى. وعلى هذا أخذ كل حزب يناضل غيره من الأحزاب، واشتد النزاع بينها وجرد كل منها السيف، واستمر النزاع بين الأمويين والهاشميين حتى قامت الدولة العباسية. وبعد موقعة صفين انصرف علي مع أشياعه إلى العراق وعاد معاوية مع أنصاره إلى الشام. ولكن أهل الشام عادوا متفقي الكلمة وعاد أهل العراق وقد وقع الانقسام في صفوفهم[1]، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط. يقول الخوارج: يا أعداء الله أرهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم. ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا. فلما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا قرية بظاهر الكوفة تسمى حروراء، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم: إن أمير القتال شبث بن ربعي وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويسمى هؤلاء الذين اعتزلوا علياً الخوارج، كما يسمون الحرورية.

مما تقدم يتضح أن الخوارج خرجوا على عليّ وانشقوا عليه مع أنهم كانوا بالأمس من حزبه وأعوانه، لأنهم كانوا يعتقدون أن علياً إمام بويع بيعة صحيحة، فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه، بل كان خليقاً به أن يمضي في حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس أو يقتلوا عن آخرهم.

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ٣٥.

أخذ علي في مفاوضة هؤلاء الخوارج عسى أن يرجعوا عن رأيهم، فأرسل إليهم عبد الله ابن العباس، فناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته، فرجعوا عن رأيهم وامتنع آخرون، فخرج إليهم عليٌّ نفسه ثم سألهم: (ما أخرجكم علينا؟) قالوا: حكومتكم يوم صفين. فقال: (أنشدكم الله! ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم علي رأيي؟ ولما أبيتم إلا ذلك اشترطنا على المحكمين أن يحكما بما في القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما في القرآن، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء؟) قالوا له: فخبرنا، أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: (إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال). قالوا: فخبرنا (عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟) قال: (ليعلم الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ادخلوا مصركم) فدخلوا إلى أن ينتهي الحكمان من حكمهما (الطبري: ٦: ٣٦).

هؤلاء هم نواة الخوارج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ الإسلام، وهذا مبدأ ظهورهم. ومن ثم أصبح في الدولة العربية ثلاثة أحزاب بعد أن كان بها حزبان هما: حزب علي وحزب معاوية، أو إن شئت فقل حزب الشيعة وحزب الأمويين.

وإن الناظر إلى هذا الحزب الجديد، وهو حزب الخوارج، ليرى أنهم كانوا من حزب الشيعة أنصار علي، ولكنهم انشقوا على هذا الحزب بسبب قبول علي التحكيم.

ولكن أمر هذا الحزب الجديد يدعو إلى العجب، فإنهم لم يبنوا خروجهم على أمر معقول يبرر هذا الخروج، لأنهم هم الذين أشاروا بهذا التحكيم، وأن علياً لم يقبله إلا بعد أن أكرهوه على قبوله. فكيف إذن يسوغون لأنفسهم أن يخرجوا على ما أبرموه؟ وأما قولهم إن علياً بقبوله التحكيم قد شك في خلافته. فهذا أمر غير صحيح، صاحب الحق كثيراً ما يتحقق أن الحق له، فإذا رأى من خصمه إنكاراً لهذا الحق وتمسكاً بوجهة نظره، فإنه لا يجد أمامه سبيلاً إلا أن يرفع الأمر إلى قاض حسماً النزاع.

وصفوة القول أن هذه الطائفة الجديدة بنت أمرها على مقدمات لم تتضح بعد، فزادوا كلمة المسلمين تفريقاً وخدعوا بما ظهر لهم أنه الصواب، كما قال لهم على حين رددوا قولتهم المشهورة: (لا حكم إلا الله)، (كلمة حق يراد بها باطل).

لم يستطع علي أن يجاري هؤلاء القوم في رأيهم، وهو أنه أخطأ أو كفر، على الرغم مما أبدوه من استعداد للعودة إلى صفوفه. وقولهم إنه ليس عليه من حرج إذا أجابهم إلى ما طلبوه، مع أنه كان يعتبر رجوع هذه الطائفة إلى صفوفه من شأنه أن يزيده قوة أمام مناوئيه. فقد رأى في إجابة طلبهم إقراراً بكفره على الرغم من أنه كان يعتقد أنه يعمل للمصلحة العامة ابتغاء مرضاة الله.

اجتمع الخوارج من أهل البصرة والكوفة وقصدوا إلى النهروان، واستخلفوا عليهم رجلاً منهم هو عبد الله بن وهب الراسي، وأخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم رأيهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعلياً.

ولما التقى علي بالخوارج في النهروان ولوا هاربين إلى ناحية الجسر، فظن الناس أنهم عبروه، فقالوا لعلي: يا أمير المؤمنين! إنهم عبروا الجسر فالقهم قبل أن يبعدوا. فقال علي: ما عبروا وأن مصارعهم دون الجسر، ووالله لا يقتل منكم عشرة ولا يبقى منهم عشرة، فشك الناس في قوله. فلما أشرفوا على الجسر رأوهم لم يعبروا، فكر أصحاب علي وقالوا: هو كما قلت يا أمير المؤمنين قال: نعم! والله ما كذبت ولا كذبت. فلما انتهت الواقعة وسكنت الحرب، أحصى القتلى من أصحاب علي فكانوا سبعة، وأما الخوارج فذهبت طائفة منهم قبل أن تنشب الحرب وقالوا: والله ما ندري على أي شيء نقاتل علي بن أبي طالب سنأخذ ناحية حتى ننظر إلى ماذا يؤول الأمر. وأما الباقون فثبتوا وقاتلوا فهلكوا جميعاً. فلما فرغ علي من هزيمة الخوارج، رجع إلى الكوفة وندب الناس إلى قتال أهل الشام، فتثاقلوا، ولما وعظهم وحثهم على الجهاد قالوا: يا أمير المؤمنين! كلت سيوفنا وفنيت نبالنا ومللنا من الحرب، فأمهلنا نصلح أمورنا ونتوجه. وكان علي قد عسكر بظاهرة الكوفة، فأمهلهم وأمرهم أن يوطنوا نفوسهم على الحرب، ونهاهم عن الرجوع إلى أهليهم حتى يعودوا من الشام، فصاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم، فلم يجد علي منهم أذناً مصغية، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين من الهجرة.

ب ـ الخوارج في عهد معاوية:

كانت الأمة الإسلامية حين ولي معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب: شيعة بني أمية، وشيعة علي، والخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين.

وكان الخوارج أشد هذه الأحزاب خطراً، وكان من الصعب ردهم إلى جماعة المسلمين بالحجة والإقناع. ولا عجب فقد كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفار وأن دماءهم وأموالهم حلال. لذلك لم يكن بد من أن يسلك معاوية معهم سبيل الشدة والقمع ليأمن شرهم ويحول دون ما يلقونه من بذور التفرقة التي كادت تودي بالأمة الإسلامية.

وكان معاوية أبغض إلى الخوارج من علي، لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين، واتخاذه القصور والحراس والحجاب وما إلى ذلك من مظاهر الملك التي اتخذها عن البلاط البيزنطي، وأنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضا منهم.

فلما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ عول الخوارج على قتاله، وكان على رأسهم فروة

بـوائقكم[٢]؛

ابن نوفل الأشجعي الذي اعتزل علياً والحسن في خمسمائـة من الخوارج بشهـر زور[١]. فلما بايع الحسن معاوية قال فروة لأصحابه: جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فخرج هو وأصحابه إلى الكوفة حيث كان معاوية، فأرسل إليهم جيشاً من أهل الشام، فلما هزمه الخوارج، قال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عنـدي حتى تكفوا بـوائقكم[٢]؛ فخرج أهل الكوفة لقتال الخوارج، فقالوا لهم: (ويلكم ما تبغون! أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا نقاتله، فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا)، فأبى أهل الكـوفة إلا القتال حتى يغلبوهم [٣].

ولـم يكن انهزام الفريقين ليثني الخـوارج عن عزمهم ولا ليثبط همتهم في الـدفاع عمـا يعتقدون أنه الحق. فسرعان ما قام فريق آخر بزعامة حيان بن ظبيان السلمي وتذاكروا إخوانهم بالنهروان وما لاقوه في سبيل الدفاع عن مبادئهم.

وكان حيان من هؤلاء الذين قاتلوا علياً يوم النهروان، وقد عفا عنه علي عندما أصابه جرح في هذه الموقعة. فلما برئ خرج هو وجماعته من الخوارج إلى الري وأقاموا بها حتى بلغهم قتل علي. فحث حيان من معه من الخوارج على المسير إلى الكوفة ومناجزة أعدائهم. فقد سار الخوارج إلى الكوفة ودخلوها. وكان من حسن حظهم أن كان عليها المغيـرة بن شعبة، وكـان حسن السيرة يكره إراقة الدماء، فلم يتدخل في شؤون الخوارج الذين اجتمعوا في ذلك الوقت في دار حيان حيث ولوا أمرهم المستورد بن علقمة التيمي، واتفقوا على أن يكون خروجهم في غرة شعبان سنة ٤٣ هـ[٤].

على أن أحلام الخوارج لم تتحقق حين عول المغيرة على التنكيل بهم واستئصال شأفتهم بما عرف عنه من الدهاء والمكر. ولا غرو فقد كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين العرب بالدهاء: هم عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة هذا الذي كان يقول فيه الناس: لو كان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها.

ولما علم المغيرة بأمر الخوارج شدد في طلبهم وعول على القضاء عليهم قبـل أن يشتد خطرهم؛ فقبض على جماعة منهم من بينهم حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين الطائي وأودعهم السجن[٥]؛ وضيق على إخوانهم حتى غادروا الكوفة وأخذوا يتنقلون في البلاد الإسلامية. ثم ساروا إلى نهير الصراة (قرب مدينة بغداد التي بنيت في عهد أبي جعفر بن المنصور) ومنها إلى

---

(١) إقليم واسع في بلاد الجبل بين أردبيل وهمذان وأهلها من الأكراد يمتازون بالبأس والشدة.
(٢) جمع بائقة وهي الأمر المهلك.
(٣) الطبري جـ٦ ص ٩٥.
(٤) الطبري جـ٦ ص ١٠٠.
(٥) الطبري جـ٦ ص ١٠٤.

بهرسير[١] القريبة من المدائن، ولما علم المغيرة بمسيرهم جمع لقتالهم جيشاً من الشيعيين يربو عدده على ثلاثة آلاف وأمر عليه رجلاً من كبار الشيعة هو مَعقل بن قيس الرياحي[٢]، فأدرك الخوارج بالمذار، بين واسط والبصرة، بديلمايا، وهي قرية من قرى إستان بهرسير بجانب دِجلة، على مقربة من ساباط حيث قتلهم عن آخرهم.

ولما وجد معاوية تفاقم خطر الخوارج في العراق ولى زياد بن أبيه[٣] البصرة سنة ٤٥ هـ، فخطبهم خطبته المشهورة بالبتراء، لأنه لم يبتدئها بحمد الله على ما جرت به عادة خطباء الإسلام منذ عهد النبي. وقد أوضح فيها السياسة التي سيسير عليها في حكم هذه البلاد، وهي سياسة حزم كان من أثرها أن توطدت أركان ملك معاوية في هذه البلاد واستتب الأمن والطمأنينة في ربوعها، واستطاع بذلك أن يضرب على أيدي هؤلاء الخوارج الذين أخذهم بالشدة وأوقع الرعب في قلوبهم فانقادوا له، وحذا حذوه المغيرة في الكوفة، وبذلك أمن معاوية جانب أهل العراق.

وفي سنة ٥٣ هـ أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة بعد موت واليها المغيرة بن شعبة. فلما وصل إليها خُصب وهو على المنبر، فأغلق أبواب المسجد واستحلف الناس على ذلك فمن حلف خلى سبيله ومن لم يحلف حبسه، وأودع السجن ثلاثين رجلاً قطعت أيديهم، وكان زياد يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة ستة أشهر.

وقد ضعفت شوكة الخوارج بما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة في معاملتهم، فلم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق حتى ولي البصرة عبيد الله بن زياد، فظنوه سهلاً ليناً، فتحركوا في سنة ٥٨ هـ. ولكن ابن زياد قتل منهم جماعة صبراً.

ويروي الطبري أن ابن زياد خرج في رهان له. فلما جلس ينظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية، فأقبل على ابن زياد وقال له: خمس كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا ﴿ أتبنون بكل ربع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم

---

(١) بفتح الباء وضم الهاء وفتح الراء وكسر السين.

(٢) الطبري جـ ٦ ص ١٠٨ - ١١٨.

(٣) كان زياد والياً على فارس من قبل علي بن أبي طالب؛ فلما قتل علي اعتصم زياد في ولايته فبعث إليه معاوية، المغيرة ابن شعبة، فما زال زياد حتى ثناه عن رأيه وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان. فسار إليه وسلمه ما بقي عنده من أموال فارس، واستحلفه معاوية بأبي سفيان الذي اعترف ببنوته في حياته على ما قيل، وشهد بذلك نفر من الناس، وإن كان بعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين. لهذا يقال له زياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية وزياد ابن أبيه لجهلهم اسم أبيه، وبعضهم يلحقه بأبي سفيان، ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع ما في هذا الأمر من العار والخزي، وإنما هي السياسة تفعل ما تشاء.

جبارين ﴾ [سورة الشعراء ٢٦ :١٢٨ - ١٣٠] . فلما سمع ابن زياد ذلك ترك رهانه وأضمر لعروة الشر ، فهرب ، غير أن ابن زياد تمكن من القبض عليه وقتله . فغضب لقتله أخوه أبو بلال، وخرج الى الأهواز في أربعين رجلاً من الخوارج ، فبعث إليهم عبيد الله بن زياد ألفي رجل على رأسهم ابن حصن التميمي ، فهزمته الخوارج ، فقال شاعرهم :

أألفـا مؤمـنٍ منـكـم زعـمـتـم ويـقـتـلهـم بـآسـك أربـعـونـا؟
كـذبـتم لـيس ذاك كـمـا زعـمـتـم ولـكـن الـخـوارج مـؤمـنـونـا
هـي الفئـة الـقـليلة قـد عـلمـتـم على الفئـة الكثيـرة ينصـرونـا[1]

على أن ما أصابه أبو بلال لم يأت بطائل، فقد عول ابن زياد على استئصال شأفته وشأفة من معه، فأرسل إليه ثلاثة آلاف أوقعوا به وقتلوه هو وكثيراً من أصحابه سنة ٦١ هـ.

جـ - الخوارج في عهد عبد الملك:

لما اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج في العراق وسد في وجوههم كل طريق، اجتمعوا وتذاكروا ما حل بهم على يد الأمويين، فقال لهم نافع بن الأزرق: (إن الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم الجهاد واحتج عليكم، وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف، فأخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة؛ فإن كان على رأينا جاهدنا معه، وإن لم يكن على رأينا دافعناه عن البيت). ثم سار الخوارج إلى مكة حيث لحقوا بعبد الله بن الزبير ، فعول على استمالتهم إليه واتخذ من انضمامهم إليه فرصة للوصول إلى غايته، وأخبرهم أنه على رأيهم فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد.

ولما وضعت الحرب أوزارها بين ابن الزبير ويزيد بن معاوية اجتمع الخوارج وقالوا: إن الذي صنعتم أمس ليس رأياً ناجحاً، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس مثل رأيكم. ثم اتفقوا على أن يفدوا على ابن الزبير ويسألوه عن رأيه في عثمان وعلي وما أحدثه كل منهما. فلما كاشفوه بذلك قال لهم: (أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان وعدو أعدائه). ولما تبين الخوارج أن ابن الزبير ليس على رأيهم رحلوا من مكة، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي وعبد الله بن الصفار السعدي وعبد الله بن إباض وحنظلة بن بيهس حتى بلغوا البصرة، ومار أبو طالوت من بني بكر بن وائل وأبو فديك وعطية بن الأسود اليشكري إلى اليمامة[2] .

ولما دخل نافع بن الأزرق البصرة، اجتمع هو وأصحابه وأخذوا يتذاكرون الجهاد ثم خرجوا وكسروا باب السجن وأخرجوا من فيه من الخوارج الذين حبسهم ابن زياد، وساعدهم على ذلك خروج أهل البصرة على ابن زياد الذي ضعف نفوذه بعد موت يزيد بن معاوية وازدياد

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٧٥ .
(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨٠.

خطر الزبير الذي كان يدعو لنفسه في بلاد الحجاز.

ولما لحق نافع بالأهواز واستولى عليها وجبى خراجها، وكثر أتباعه وانتشر عماله في السواد وأوقع الفزع في قلوب أهل البصرة، أصبحت الحرب سجالاً بين الأمويين والخوارج حتى حلت الهزيمة بأهل البصرة في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ.

ولما رأى أهل البصرة أن خطر الخوارج قد تفاقم، طلبوا إلى الأحنف بن قيس أن يتولى حربهم، فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة، لما يعلمه فيه من الشجاعة وحسن الرأي والمعرفة بالحرب. ودارت رحى القتال بين الخوارج وأهل البصرة بقيادة المهلب والأحنف بن قيس فدارت الدائرة على الخوارج وقتل زعيمهم، فانحازوا إلى نواحي كرمان وأصفهان. ولم يزل المهلب يطارد الخوارج حتى تقلّد مصعب بن الزبير ولاية العراق؛ فولاه الجزيرة وولى عمر ابن عبيد الله بن معمر حرب الخوارج، واستطاع أن يجلبهم إلى أصفهان حيث جمع الخوارج شملهم في سابور، فسار إليهم قائد ابن الزبير وهزمهم. غير أنه لم يكن في حزم المهلب وشدته، وأتاح بذلك الفرصة للخوارج فعاثوا في الأرض وقتلوا الأطفال والنساء وجبوا الخراج. ولم ير أهل العراق بداً من أن يطلبوا إلى مصعب رجوع المهلب إلى قتالهم. وسرعان ما تلاقى المهلب مع الخوارج بزعامة قطري بن الفجاءة، واقتتل الفريقان ثمانية أشهر صمد فيها المهلب لقتالهم[١].

استفحل خطر الخوارج الذين أبلوا في كثير من المعارك لما اشتهر عن ولاة العراق من الضعف ووهن العزيمة. لذلك لم ير الخليفة عبد الملك بداً من تولية الحجاج بن يوسف على العراق ـ كما أشرنا ـ فأخذ أهلها بالشدة حتى انضموا إلى المهلب، وأخذ الحجاج يواليه بالمدد حتى تمكن من طرد الخوارج إلى كرمان، وأقام بفارس، ثم تبعهم إلى بجيرفت[٢] حيث قاتلهم أكثر من سنة صبر على قتالهم حتى دب الشقاق بينهم.

ولما علم الحجاج بمسير قطري ومن معه إلى طبرستان أرسل إليهم جيشاً كبيراً قضى عليهم وقتل قطري. ومن ذلك الوقت ضعفت شوكة الأزارقة[٣].

وكذلك حارب الحجاج الصفرية من الخوارج الذين هزموا الجيش الأموي في حران ـ وكان يبلغ مائة ألف ـ هزيمة منكرة وغنموا ما معه من سلاح ومال، كما أوقعوا بالأمويين في كثير من المعارك.

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) بكسر الجيم وفتح الراء وسكون الفاء بعدها تاء مثناة فوقية، من أشهر مدن كرمان وأوسعها، بها خيرات ونخل وفواكه، يتخللها نهر.

(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٨٣.

وعلى الرغم من قلة عدد الخوارج وقتل صالح بن مسرح، نراهم يهزمون جند الأمويين على كثرتهم في أكثر المواقع. ذكر ابن خلكان أن قطري بن الفجاءة خرج في بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود خشب، فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل من الأعداء. فحسر قطري عن وجهه، فلما رآه الرجل ولى هارباً، فقال له قطري: إلى أين؟ قال: لا يستحي الإنسان أن يفر منك.

وليس غريباً أن يولي هذا الرجل الأدبار أمام قطري وهو الذي يقول:

فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حي ... وداعية لأهل الأرض داعي
وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع[1]

ولما رأى الحجاج ضعف أهل الكوفة عن مقاومة الخوارج وتثاقل أهل العراق عن حربهم، سأل عبد الملك أن يمده بجيش من أهل الشام، فبعث إليه ستة آلاف حمل عليهم شبيب أكثر من ثلاثين حملة، فصمدوا حتى اضطروا الخوارج إلى عبور جسر على نهر دجيل. فهوت بشبيب رجل فرسه فغرق في النهر، فحمل أهل الشام على أصحابه وأفنوهم عن آخرهم[2]، واستراح الحجاج من خطر الخوارج، وطويت بموت شبيب صفحات من صفحات الفروسية النادرة.

ويمتاز هذا العصر بكثرة الحروب التي أضرم نارها الخوارج، وأظهروا فيها شجاعة نادرة وبسالة ممتازة ولا سيما منذ فارق بعضهم عبد الله بن الزبير بمكة؛ وأغار بعضهم ـ كالأزارقة والنجدية والصفرية ـ على بلاد الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان الذي يرجع إليه الفضل في إضعاف قوتهم وفل شوكتهم. ولو أنهم تعاونوا وكانوا يداً واحدة لكان لهم شأن غير هذا الشأن.

د ـ الخوارج في عهد عمر بن عبد العزيز:

لم يحرك الخوارج ساكناً في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة خرج رجل من بني يشكر من الخوارج يدعى شوذب. ولكن عمر، بما جبل عليه من الأخلاق الكريمة وما اشتهر عنه من حبه للسلم وجمع الكلمة، لم يشأ أن يأخذ الخوارج بالشدة والقسوة، بل أراد أن يعاملهم باللين ويقارعهم بالحجة، فأرسل إلى شوذب كتاباً يقول فيه: (بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست أولى بذلك مني، فهلم أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا). فكتب

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٠.

(٢) انظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٩٦.

شوذب إلى عمر: (لقد أنصفت، وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك).

وكان عمر بن العزيز يرمي بهذا العمل إلى إزالة الخلف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان. ولم ير، بما عرف عنه من كراهة لإراقة دماء المسلمين، إلا أن يسلك معهم سبل اللين. وقد أثمرت سياسة عمر، فشهد أحد هذين الخارجين المتناظرين بأن عمر على صواب، وذكر المسعودي[1] أن أحد هذين الرسولين قال لعمر: (ما سمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذاً من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا بريء منك) فقال عمر للرسول الآخر: (فأنت ما تقول؟) قال: ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت! ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى تعرض عليهم قولك فأنظر ما حجتهم. ثم مضى أحد الرسولين إلى شوذب وأتباعه ليطلعهم على ما دار في هذه المناظرة، ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر (٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ).

وقد نصب الخوارج أنفسهم في بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والطاغين. لذلك لا نعجب إذا أمد هؤلاء الخوارج البربر من أهل إفريقية المتذمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التي استعانوا بها على قتال ولاتهم في تلك البلاد.

هـ ـ الخوارج في أواخر الدولة الأموية ـ أبو حمزة الخارجي:

وفي عهد مروان بن محمد تفاقم خطر الخوارج واشتد أمر أبي مسلم الخراساني، وانتهز الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه إثر مقتل الوليد بن يزيد وإذكاء نار العصبية بين القبائل العربية: فخرج على بني أمية وانضم إليه الخوارج. وزاد هذه الحالة سوءاً عزل مروان بن محمد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عن العراق وتولية النضر ابن سعيد الحريشي. فامتنع عبد الله في الحيرة، فسار إليه النضر وانضمت قيس إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وطالبوا مروان بدم الوليد ـ وكانت أمه من قيس ـ كما انضمت إليه اليمنية لاشتراكهم في قتل الوليد.

فلما رأى الضحاك ذلك الخلاف زحف على الكوفة سنة ١٢٧ هـ، فانضم إليه عبد الله بن عمر بن سليمان بن هشام. وهكذا ظهر الانقسام بين أفراد البيت الأموي ظهوراً بيناً. وأخذ بعضهم ينضم إلى الثائرين ليكيد الفريق الآخر.

واشتد خطر الضحاك في الكوفة حتى بلغ أنصاره زهاء مائة ألف وغدا يهدد سلامة الدولة الأموية. وسرعان ما غادر الكوفة وسار إلى الموصل ثم إلى نصيبين، فكتب مروان إلى ابنه

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١

عبد الله أن يسير إليه، فحاصره في نصيبين، ثم لحق به مروان وقضى عليه وهزم أتباعه عند ماردين سنة ١٢٨ هـ[١].

على أن موت الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج في العراق، فقد ظهر زعيم جديد هو أبو حمزة الخارجي؛ وكان يفد إلى مكة كل سنة لإثارة الناس على مروان وحثهم على قتاله. وبلغ من تفاقم خطره أنه جاء إلى عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق (سنة ١٢٨ هـ) وقال له: (اسمع كلاماً حسناً، إني أراك تدعو إلى حق، فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي). فخرج معه حتى أتيا حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى قتال مروان[٢].

وفي سنة ١٢٩ هـ خرج أبو حمزة إلى مكة في سبعمائة رجل من قبل عبد الله بن يحيى، ففزع الناس حين رأوهم. ولم ير عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وكان على مكة والمدينة، بداً من أن يطلب منهم الهدنة حتى ينتهي موسم الحج.

ولما انتهى الموسم سار عبد الواحد إلى المدينة، وزاد أهلها في اعطياتهم وأمر عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان[٣]، فخرج لقتال أبي حمزة. فلما كان بالعقيق جاءته رسل أبي حمزة يقولون: (إننا والله ما لنا بقتالكم حاجة، دعونا نمضي إلى عدونا). فأبى ذلك عليهم وأصر على الحرب وسار حتى نزل قديداً، فأعمل فيهم أصحاب أبي حمزة السيف وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

ولما اتصل نبأ هذه الهزيمة بعبد الواحد هرب إلى الشام، فدخل أبو حمزة الخارجي المدينة في صفر سنة ١٣٠ هـ، وأحسن السيرة في أهلها، وأقام بها ثلاثة أشهر. ثم سار إلى الشام، فأرسل إليه مروان بن محمد جيشاً التقى مع الخوارج في وادي القرى، فقتل أبو حمزة وكثير من أصحابه. ثم سار عبد الملك إلى المدينة ثم إلى اليمن وهزم عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق، وكان أبو حمزة قد ولاه الخلافة، وقتله هو وكثيراً من أتباعه[٤].

وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج الذين حاولوا قلب نظام الحكم فيها فلم يفلحوا. وإلى مروان يرجع الفضل في القضاء على الخوارج، ولم يشغله تفكك عرى دولته عن الضرب على أيديهم بعد أن عاثوا في الأرض وقتاً طويلاً.

و - نظرية الخلافة عند الخوارج:

كان الخوارج أول الأمر حزباً سياسياً لا يعدو بحثه مسألة الخلافة وما يتصل بها، وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلي إلى أن حكم الحكمين.

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٣٥، ١٤٠، ١٤١.
(٢) المصدر نفسه جـ ٥ ص ١٤١.
(٣) المصدر نفسه جـ ٥ ص ١٥٧.
(٤) الطبري جـ ٩ ص ١١٩. ابن الأثير جـ ٥ ص ١٥٨.

ويمثل الخوارج ـ الجمهوريون كما يسميهم فان فلوتن[١] ـ المبادىء الديمقراطية المتطرفة. ويمكن تلخيص نظريتهم في الخلافة في أنها حق لكل عربي حر، وأنه إذا اختير الخليفة فلا يصح له أن ينزل عنها، وإذا جار استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة ذلك[٢].

وقد أدخل الخوارج بعض التعديل على الشرط الأول، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم، كثير من المسلمين من غير العرب. لذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على سواء، وخالفوا بهذا الرأي نظرية الشيعة التي تقول بانحصار الخلافة في آل بيت النبي.

وقد انضم إلى الخوارج وغذى صفوفهم أولئك العرب الخلص من رجال الصحراء، وبخاصة بعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن، مثل قبيلة تميم وأبطال القادسية ورؤساء الجند الذين انضم إليهم أولئك المتطرفون في الإسلام من أهل الصيام والصلاة كما سماهم بذلك الشهرستاني، ورأوا أن جماعة المسلمين أصبحت في خطر بسبب المطامع الشخصية، وأن مصالحهم أصبحت خاضعة لمصلحة بعض الأحزاب تعبث بها كما تشاء. وكذلك انضم إليهم بعض القراء من جند علي، وبخاصة حين رأوا إخفاق الحكمين في حكمهما وخيبة أملهم في حقن دماء المسلمين وإحلال الوئام بينهم.

كانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية خالصة بخلاف ما ذهب إليه نيكلسون الذي يرى أن الدفاع الأصلي للخوارج عن تلك الحركة وتركهم جند علي إنما هو دافع ديني برغم ما كان يشوبه من المظهر السياسي. وقد ظلت هذه الصبغة السياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا آراءهم السياسية بالأبحاث الدينية، فقال: إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب، فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر فهو كافر. وهكذا كانت أفكار الخوارج في الدين لا تقل شدة عن أفكارهم في السياسة. وكان لتعصبهم السياسي أثر كبير في وجهة نظرهم الدينية، فكانوا أشداء في الدين غير متسامحين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سبيلاً.

ومما امتاز به الخوارج شدة تمسكهم بالقرآن وإتباع أحكامه وتنفيذ أوامره، وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم التحمس للحق وشدة التمسك به والائتمار بأوامر الله واجتناب نواهيه، حتى لقد وصفهم الشهرستاني بأنهم (أهل صيام وصلاة) إلا أنهم غلوا في أفكارهم حتى عدوا مرتكب الكبيرة ـ بل مرتكب الصغيرة أيضاً ـ كافراً، وخرجوا على أئمتهم

---

(١) السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٦٩.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٠ ـ ١١١.

الحركات السياسية والدينية/ الخوارج . ...

إليهم. وكانوا يدفعون إليه واحداً من أسرى مخالفيهم ويأمرونه بقتله، فإن قتله صدقوه وإن لم يقتله قالوا هذا منافق ومشرك وقتلوه[١]. وكذلك يكفرون مرتكب الكبيرة مستدلين بكفر إبليس الذي يقولون عنه إنه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى وقال : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾.

وزاد نافع أن أسقط حد الرجم على الزاني المحصن لأنه لم يرد نص عليه في القرآن[٢]. وأسقط الحد عمن قذف الرجل المحصن، ولكنه أقامه على من قذف المحصنات من النساء، وحكم بقطع يد السارق في القليل والكثير، وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها[٣].

ومن فرق الخوارج النجدية: وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي. ومن تعاليمه التي انفرد بها، أن المخطىء بعد أن يجتهد معذور، وأن الدين أمران: معرفة الله ومعرفة رسوله، وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والإقرار بما جاء من عند الله جملة[٤]. وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهلهم إلى أن تقوم عليهم الحجة، ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور، ومن خاف العذاب على المجهد المخطىء قبل قيام الحجة عليه فهو كافر. وعظم جريمة الكذب[٥] على الزنا وأسقط حد شرب الخمر[٦]، وأجاز التقية[٧]، واحتج بقوله تعالى : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾، وقوله تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ كما قال إن القعود عن القتال جائز، والجهاد إذا أمكن كان أفضل، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾. واستحل دماء أهل الذمة وأموالهم وحكم بالبراءة ممن حرمها، وأجاز عدم إقامة إمام، وإنما على الناس أن ينصف بعضهم بعضاً فيما بينهم، فإن رأوا أن ذلك لا يتم بحملهم عليه فأقاموه جاز[٨].

أما البيهسية من الخوارج فهم أصحاب أبي بيهس بن جابر. ومن تعاليمه أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ، والولاية لأولياء الله. وكان يكفر

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٦٣.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٤.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٢ - ١٦٥.

(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٦٨.

(٥) قال: من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك ومن زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر فهو مسلم إذا كان من موافقيه (الفرق بين الفرق ص ٦٨).

(٦) الفرق بين الفرق ص ٦٨. يقول الشهرستاني (جـ ١ ص ٦٦): إنه غلظ على الناس تغليظاً شديداً.

(٧) هي اتقاء أذى الخصم بأن يكتم عنه اعتقاده عن غيره.

(٨) الشهرستاني جـ ١ ص ١٦٨ - ١٦٩.

الواقفية[١]، لأنه يعتبر أن من بين الأشياء التي جاء بها النبي والتي تجب معرفتها. المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها، فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها. ويقول إن هناك أشياء أخرى يجب على المسلم ألا يعرفها إلا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها. وكان يقول: إن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل. أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله ﷺ تحل الإقامة معهم كما فعل المسلمون في إقامتهم.

والإباضية من الخوارج هم أتباع عبد الله بن إباض التميمي. ويختلفون عن بقية فرق الخوارج في أنهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم. ولعل هذا يرجع إلى طبيعة ظروف نشأتهم، فإن صاحبهم عبد الله بن إباض لم يخرج إلا في أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الأمويون على الخوارج أو كادوا، وبعد أن كاد اليأس يدب إلى الأحزاب، وتحول نضالهم حول الحكم إلى آراء ومذاهب تكاد تكون علمية بحتة، بل قالوا إنه يجهل التزوج منهم، وأن يتوارث الخارجي وغيره.

وهم إلى المسألة أميل، حتى أنهم قالوا إنه لا يحل قتل الخوارج غيلة ولا يحل سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال. فإذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل. أما الذهب والفضة أو غيرهما فإنهم يردونه إلى أعدائهم وكانوا يرون أن بلاد مخالفيهم من المسلمين هي ديار توحيد إلا معسكر السلطان (يقصدون منها حاكم بني أمية أو غيره من الأمراء الجائرين)، فإنه دار بغي. كما قالوا: إن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة موحد مؤمن، فهو كافر كفر نعمة لا كفر ملة[٢]، وإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً، ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة إلى المؤمن فحسب، بل إن الكافر مطالب بها أيضاً، وليس في القرآن تخصيص الأمر أو النهي بواحد منهما، وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم[٣].

ومن فرق الخوارج أيضاً الصفرية: وهم أصحاب زياد بن الأصفر، وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ما داموا متفقين في الدين والاعتقاد، وقال: إن التقية جائزة في القول دون العمل ولم يحكم بقتل أطفال المشركين ولا بتكفيرهم أو تخليدهم في النار، وفرق بين الكبائر

---

(١) وهم الذين يقولون إنا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحلال أم حرام.

(٢) أي أنه مؤمن بالله وبوحدانيته وبالرسول، ولكنه مقصر في شكر نعمة الله عليه فهو كافر فضل الله عليه وجاحد له وإلا لما ارتكب ما نهاه عنه الله

(٣) هم أربع فرق: الحمصية والحارثية واليزيدية وأصحاب طاعة لا يراد بها الله (أي من يرون أن النفاق والرياء في طاعة الله لا يكفر) غير أنهم أجمعوا على أمور منها ما ذكرنا: ومنها القول بإمامة عبد الله بن إباض، وبأن كفار هذه الأمة أو كفار أهل القبلة (ويعنون مخالفيهم من المسلمين) ليسوا مشركين وليسوا مؤمنين، ولكنهم كفار (أي كفروا بنعمة الله وجحدوها ولو أنهم مؤمنون بالوهيته)، وأجازوا شهادة هؤلاء عليهم في القضايا (الفرق بين الفرق ص ٨٢ - ٨٣)

التي يلزم فيها والتي لا حد عليها[١]، فلم يكفر مرتكب الأولى[٢]، إنما كفر مرتكب الثانية[٣].

هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج. وإن الناظر إلى مذاهبهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار وعبدة الأوثان فلا عجب إذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة، وشغلوا ـ كما رأينا ـ الحزب الأموي وغيره مدة طويلة، وكلفوا الأمة الإسلامية ثمناً غالياً من الأرواح والأموال.

يرى نيكلسون[٤] أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ، وبرغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة؛ مما أدى إلى إخفاقهم. وقد لانت قناتهم قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم ويسود أفكارهم، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادتهم واستئصال شأفتهم. ويرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين.

وقد أصاب نيكلسون فيما ذهب إليه. فإنه ليس أدل على زهد هؤلاء الخوارج في حطام الدنيا وزينتها مما ذكره الطبري (٧: ٢٤٨) عن شبيب الخارجي وقد انتهى إلى إحدى المدن، فندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها. (فساروا حتى أتوا دار العامل ونادوا: أجيبوا الأمير، فقالوا: أي الأمراء؟ قالوا: أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيباً، فاغتر العامل بذلك وخرج إليهم، فضربوا عنقه، وقبضوا على ما كان في دار الإمارة من مال ولحقوا بشبيب. فلما انتهوا إليه قال: ما الذي أتيتمونا به؟ قالوا: جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال، والمال على دابة في بدره، فقال شبيب: أتيتمونا بفتنة للمسلمين. علم الحرية يا غلام؟ فخرق بها البدر وأمر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدره حتى وردت الصراة، فقال: إن بقي شيء فاقذفه في الماء).

---

(١) لعظم قدرها وفظاعة الجريمة فيها حتى لا يكفر عن الإنسان سيئتها أي عقوبة في الدنيا، ومثلوا لهذا النوع من الكبائر بترك الصلاة.

(٢) قالوا لا يصح أن يسمى إلا باسم الحد الذي يوقع عليه. فإذا سرق أو قذف قيل إنه سارق أو قاذف، ولا يصح أن يسمى كافراً أو مشركاً.

(٣) روى الشهرستاني أن زياداً (إمامهم) قال: الشرك شركان: شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان، والكفر كفران: كفر بالنعمة، وكفر بإنكار الربوبية، والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود (هم من يرتكبون جريمة السرقة أو جريمة الزنا أو القذف. .) وهي سنة وبراءة من أهل الجحود وهي فريضة (جـ ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥).

(٤) p.221.

٥ ـ الشيعة

أ ـ نشأة الشيعة:

اعتقد أنصار علي بن أبي طالب أنه أحق بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان أخذوا حق الإمامة المقدس من علي. وأتاح تذمر المسلمين من سياسة عثمان الفرصة لأنصار علي لتحويل الخلافة إلى أهل البيت، وأذكى نيران الثورة أبو ذر الغفاري بتحريض ابن سبأ الذي أخذ يتنقل بين الولايات الإسلامية. ووضع عقائد مذهب الشيعة الغالية في الإسلام، وانتهى به المطاف إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين، وأرسل دعاته إلى الأمصار الإسلامية لنشر الدعوة لعلي، ووضع مذهب الرجعة أي رجعة محمد ﷺ وقال في ذلك: «إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد» وقد قال الله عز وجل: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ [سورة القصص ٢٨: ٨٥]. وزاد ابن سبأ أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى. ومن هنا نشأ في الإسلام مذهب تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر.

كما نشر ابن سبأ مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم، بمعنى أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين، وأنهم من ناوءوا علياً وتعدوا على حقه في الإمامة. كماأخذ عن الفرس الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي نظرية الحق الإلهي، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبيُ، وأنه يستمد الحكم من الله سبحانه. وأعلن ابن سبأ (أن عثمان أخذها (أي الخلافة) بغير حق. وهذا وصي رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر)[١].

ولما ولي علي الخلافة تطور مذهب السبيئة. ذكر ابن حزم[٢] أن قوماً من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا علياً وقالوا له: (أنت هو)، فقال لهم: (ومن هو؟) فقالوا: (أنت الله). فغضب علي وأظهر الجد وأمر بنار فأوقدت، وأمر مولاه قنبراً بأن يلقي بهؤلاء الرجال فيها. فجعلوا يقولون وهم يلقون في النار، (الآن صح عندنا أنه الله)!

أمر علي بنفي ابن سبأ إلى المدائن، ولكن هذا لم يثنه عن مواصلة الدعوة لعلي. فلما مات علي قالت السبئية برجعته وتوقفه. وذكر ابن حزم[٣] أن ابن سبأ لما بلغه قتل علي قال: «لو

---

(١) الطبري (طبعه دي غويه) ١. ٢٩٤٢.

(٢) الملل والنحل جـ ٤ ص ١٨٦.

(٣) الشهرستاني جـ ٤ ص ١٨٠.

أتيتموني بدماغه سبعين مرة لما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» . وكذلك ذهبت السبئية إلى القول أن علياً يجيء في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره على ما ذهب إليه بعض)، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً[١].

ولما قتل علي دعا العرب إلى ابنه الحسن، وذكر المسعودي[٢] أنه استخلف في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ إلا أن خلافته لم يطل أمدها لما أشيع عن انهزام جيوشه أمام جند الشام وتخلى أهل العراق عنه، فلم يجد بدًّا من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين.

على أن الدافع الحقيقي الذي حمل الحسن على النزول عن الخلافة، إنما يرجع ـ على ما ذهب إليه اليعقوبي[٣] ـ إلى أنه لم يعد بحيث يستطيع أن يقف في وجه معاوية. ذكر الطبري (جـ ٦ ص ٩٢) عن السبب الحقيقي الذي حدا الحسن على النزول لمعاوية عن الخلافة: «وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن. وكان عم المختار بن أبي عبيد عاملاً على المدائن، وكان اسمه سعد بن مسعود، فقال له المختار وهو غلام شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية، فقال له سعد: عليك لعنة الله! أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ، فأوثقه، بئس الرجل أنت! فلما رأى الحسن عليه السلام تفرق الأمر عنه، بعث إلى معاوية يطلب الصلح، وبعث معاوية إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، فقاما على الحسن بالمدائن فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها. ثم قام الحسن في أهل العراق فقال: إنه سخى بنفسه عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي، ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس»

ب ـ الشيعة في عهد معاوية:

خمدت روح التشجيع في نفوس أهل الكوفة وانضووا تحت لواء معاوية الذي أصبح صاحب السلطان المطلق على أثر نزول الحسن بن علي له عن الخلافة ومغادرته الكوفة إلى المدينة. بيد أن السياسة التي سار عليها معاوية من سب علي بن أبي طالب وأهل بيته على المنابر أثارت حنق الشيعيين عليه. ذلك أن معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة أمره

---

(١) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١١ . انظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٥ ـ ١٢ .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣١ .

(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٥٥ .

بلعن علي، فأخذ المغيرة في لعنه كلما قام خطيباً. وبينما هو يخطب ذات مرة سب علياً ومدح عثمان، فقام حجر بن عدي وقال له: «إن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل، وإن من تزكون وتطرون أولى بالذم»[١]. فقال له المغيرة: «ويحك يا حجر! اتقِ السلطان وغضبه وسطوته فإن غضب السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك».

ظل حجر بن عدي على سياسته العدائية ضد سلطان بني أمية حتى مات المغيرة وولي الكوفة بعده زياد بن أبيه، فسار على سنة من كان قبله في سب علي، فزاد هذا في حنق حجر ومن معه، وأخذوا يعقدون الاجتماعات لسب معاوية. فلما نمى خبر هذه الاجتماعات إلى زياد غادر البصرة إلى الكوفة وأمر رئيس شرطته أن يأتي بحجر. فلما ذهب إليه سبه أصحاب حجر ومنعوه من أن يصل إليه، فجمع زياد أهل الكوفة وقال لهم: «تشجعون[٢] بيد وتواسون بأخرى، أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق، هذا والله من رجسكم، والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم»، فقالوا: معاذ الله أن يكون لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك، ثم أمر زياد صاحب شرطته مرة أخرى أن يقبض على حجر ويحضره إليه فتم له ذلك. ولم يلبث زياد أن أرسل حجراً وأصحابه إلى معاوية[٣]، فقتل منهم ثمانية وعفا عن ستة تبرءوا من علي بن أبي طالب (سنة ٥١ هـ).

بذلك ضعفت الشيعة وأصبح التشيع أمراً نظرياً. ولا غرو فقد كان بعضهم ينقصهم الحماس والإخلاص للمبدأ الذي كانوا يعتنقونه، ولم يكونوا كالخوارج في شجاعتهم وإخلاصهم لمبادئهم التي كانوا يضحون في سبيلها بأنفسهم.

جـ - خروج الحسين بن علي - مأساة كربلاء - التوابون:

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة أرسل إلى الوليد بن عقبة - وكان عامله على المدينة - أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة في الحجاز، فامتنع عبد الله بن الزبير وفر إلى مكة، وخرج الحسين بن علي من المدينة وسار إلى مكة دون أن يبايع يزيد وكاتب الشيعة بالكوفة، فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتاباً جاء فيه: «إنه ليس علينا إمام، فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن النعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد. ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناهُ من الكوفة وألحقناه بالشام». ثم أتبعوا هذا الكتاب بكتب

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٤٣.

(٢) من الشح وهو الجرح.

(٣) الطبري جـ ٦ ص ١٥٠.

أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذين حضروا الاجتماع. وطلبوا منه أن يبادر إلى الذهاب إلى الكوفة[١].

وقد قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٦٠ هـ. فلما وصلت هذه الكتب إلى الحسين أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل ليتبين حقيقة الأمر، فسار إلى الكوفة حيث التف حوله كثير من الشيعيين وبايعوه على النصر، فاغتر بما شاهده منهم وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة.

وفي هذه الأثناء عزل يزيد النعمان بن بشير عن الكوفة لضعفه، أو لأنه كان يؤثر العافية ويحب السلم، وولى مكانه عبيد الله بن زياد أمير البصرة وأصبح أميراً على البلدين. فأخذ الشُيعة بالشدة، وتفرق عن مسلم بن عقيل كثير من أهل الكوفة، فاستجار بهانىء بن عروة المرادي، فقتلهما عبيد الله بن زياد.

أما الحسين فإنه لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل. ولما استبطأ أخبار مسلم وعزم على الخروج، نصح له عبد الرحمن بن الحارث وعبد الله بن العباس أن يعدل عن الخروج وأن يسير إلى اليمن. وقد قيل إن الحسين كان يعرف ما يحدق به من خطر إذا بقي في مكة، لأن بني أمية سوف يتعقبونه حتى يقتلونه في الحجاز. لذلك آثر أن يكون قتله بعيداً عن البيت الحرام. ولما رأى عبد الله بن العباس إصرار الحسين على الخوارج قال له: فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فإني خائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه.

ولكن الحسين لم يلتفت إلى نصح الناصحين، بل سار إلى الكوفة على رأس فئة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلاً، ولم يكن قد علم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان الشيعة له، ولقي الفرزدق في الطريق فسأله عن أهل الكوفة فقال له: (خلفت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية عليك).

فلما دنا الحسين من الكوفة وعلم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان أهلها له، قابله الحر بن يزيد التميمي وقال له: ارجع فإني لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه. من ثم داخل الحسين الشك وهم بالرجوع. غير أن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بثأر أخيهم أو يقتلوا دونه، فنزل الحسين على رأيهم وسار حتى لقيته خيل ابن زياد، فعدل إلى كربلاء حيث نشب القتال في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ. «ثم قتل الحسين عليه السلام ـ كما يقول صاحب الفخري (ص ١٠٧) ـ قتلة شنيعة، ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر والاحتساب والشجاعة والورع

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٣ ـ ٤.

والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة؛ ومن أهله وأصحابه رضي الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس وكراهية للحياة بعده، والمقاتلة بين يديه عن بصيرة ما لم يشاهد مثله. ووقع النهب والسبي في عسكره وذراريه عليهم السلام، ثم حمل النساء رأسه صلوات الله عليه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة».

كان لمقتل الحسين في أرض كربلاء التي أصبحت ملطخة بدمائه ودماء أهل بيته أثر بعيد في إذكاء نار التشيع في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم، وكانوا قبل ذلك متفرقي الكلمة مشتتي الأهواء، إذ كان التشيع قبل مقتله رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة. فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل في أعماق قلوبهم وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم.

وعلى أثر مقتل الحسين انتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم به رابطة النسب، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأنقى دم فارسي. لذلك لا تعجب إذا أخذ شعور العداء منذ ذلك الوقت يثور لأوهى الأسباب. يؤيد هذا أن عبيد الله بن زياد لما ارتقى المنبر بعد قتل الحسين وخطب خطبته التي جاء فيها: (الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته)، قام عبد الله بن عفيف، وأخذ يفند قوله بهذه الكلمات المملوءة حنقاً المفعمة سخطاً على بني أمية وولاتهم فقال: (يا عدو الله! إن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه. تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين)[1]؟.

وقد وصف صاحب الفخري (ص ١٠٦) موقعة كربلاء فقال: (هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاماً لها واستفظاعاً. فإنها قضية لم يجر في الإسلام أعظم فحشاً منها. ولعمري إن قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامة الكبرى، ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبي أو التمثيل ما تقشعر له الجلود. واكتفيت أيضاً عن بسط القول فيها بشهرتها فإنها أشهر الطامات. فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضي بشيء منها ولا تقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وجعله من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. (سورة الكهف ١٨: ١٠٣ ـ ١٠٤)

ولنأت الآن برأي مؤرخ شرقي مسلم عن هذه الموقعة وما كان لها من أثر في نفوس الشيعة خاصة والمسلمين عامة، وهو سيد أمير علي[2]:

(لقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع في جميع البلاد الإسلامية، كما أذكت في نفوس أهل بلاد الفرس ذلك الحماس الوطني الذي ساعد بني العباس على ثل عرش الأمويين

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ١٤ ـ ١٥.

(٢) p. 87

وإسقاط دولتهم).

وكذلك علق نيكلسون[١] على مأساة كربلاء بهذه الكلمات فقال: (يعتبر جميع المؤرخين الإسلاميين الذين يكادون يجمعون ـ مع استثناء القليل النادر منهم ـ على بغض الأمويين والعداء لهم، ويعتبرون الحسين بن علي شهيداً في الوقت الذي يعتبرون يزيد بن معاوية سفاكاً؛ على حين يرى جمهرة المؤرخين المحدثين رأي سير وليم ميور الذي يذهب إلى أن الحسين بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعياً وراء العرش ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع وتطلبت من أولي الأمر (في الدولة الأموية) التعجيل بقمعها.

وكان هذا بطبيعة الحال وجهة نظر الفريق الذي كان بيده النفوذ والسلطان. وأما حكم التاريخ في هذا الموضوع ـ إذا تصدينا لبحثه وتمحيصه ـ فلن يعدو أن يكون حكم الدين على الملكية أو قضاء الحكومة الدينية على الدولة العربية. وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ بحق بإدانة الأمويين. على أنه يجمل بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له في نظر المسلمين. وقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يندموا على ما فرطت أيديهم، إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة فصاحوا صيحة واحدة: الأخذ بثأر الحسين، هذا النداء الذي دوى في كل مكان وعلى الأخص عند الموالي من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب.

هذه العبارات تصف حال الأمة العربية وصفاً دقيقاً في ذلك الحين، حتى أن العداء بين الأمويين والعلويين غدا شديد الخطر بعد مقتل الحسين وقتل كثير من ذوي قرباه.

اشتد شعور العداء بعد مقتل الحسين وتفاقم سخط سائر المسلمين وحنقهم على بني أمية وولاتهم. وفي عهد مروان بن الحكم غلا مرجل هذا العداء وتحركت الشيعة بالكوفة سنة ٦٥ هـ، فتلاقوا وندموا على ما فرطوا في حق الحسين وخذلانهم إياه وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم، وتابوا كما فعلوا، فسموا التوابين. ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأره ومقاتلة قتلته، وإقرار الحق في نصابه بتنصيب رجل من أهل البيت، وأمروا عليهم رجلاً منهم اسمه سليمان بن صرد، ثم دعوا الناس للأخذ بثأر الحسين، ونظموا القصائد في رثائه والتحريض على القتال.

اجتمع التوابون وساروا حتى وصلوا إلى عين الوردة (٦٥ هـ)، حيث اشتبكوا بعبيد الله ابن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق، ثم أقره عبد الملك بن مروان عليها، ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمدائن. ولما تلاقى الجيشان، حلت الهزيمة بالشيعيين بعد أن أبلوا بلاءً حسناً وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم[٢].

---

(١) pp 197 - 198.

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٧٣ ـ ٧٩.

د ـ المختار بن أبي عبيد:

ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنة ٦٦ هـ. وكان ذا أطماع كبيرة؛ تقلب كثيراً في الأحزاب. واتصل أخيراً بعبد الله بن الزبير وأراد أن يكون وزيراً له، ولكن بن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب: فقد كان أموياً ثم زبيرياً. ولما لم يجد من ابن الزبير ما كان يؤمله رجع إلى الكوفة وانضم إلى الشيعة، واستغل ثورة التوابين لنيل اغراضه ومراميه ضد ابن الزبير والأمويين، واستتر وراء ابن الحنفية وادعى أنه أميره ووزيره، وذلك لتنفيذ أغراضه والوصول إلى الخلافة، وبذلك وقف في وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وانضوت الشيعة تحت لوائه، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول في الدعوة التي قام بها ابن الزبير في مكة.

أما ما كان من أعمال المختار الحربية، فإنه بعد أن انضمت إليه فلول جيش التوابين والموالي الذين تعلقوا بحب آل البيت، وثب على عامل الكوفة من قبل ابن الزبير فطرده. ولما أتيحت له الفرصة أرسل إلى الكوفة جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد والأخذ بثأر الحسين بعد أن عجز التوابون عن الأخذ بالثأر.

سار إبراهيم حتى لقي ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر الخازر[1]، فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وكثير من أشراف أهل الشام وحمل رأسه إلى المختار، فبعث به إلى ابن الزبير بمكة، وكان من أثر انتصار المختار على ابن زياد أن ازداد تعلق الشيعة به والتف حوله كثير منهم.

ولما استفحل أمر المختار عمل ابن الزبير على الإيقاع به. فأرسل إليه جيشاً بقيادة أخيه مصعب بعد أن ولاه العراق. وقد عمل مصعب على استخلاص هذه البلاد من المختار، فوقعت بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ هـ حرب كان النصر فيها حليف مصعب بعد أن قتل المختار وسبعة آلاف من أتباعه الذين طالبوا بدم الحسين، واستولى مصعب بن الزبير على الكوفة.

وقد ظل عبد الملك في الشام يرقب الحوادث، فترك عبد الله بن الزبير يقاتل الشيعة والخوارج دون أن يتعرض لهم. ولا شك أنه كان يرمي بسياسته هذه إلى إضعاف قوة ابن الزبير، فلم يكد مصعب يفرغ من قتال المختار حتى خرج إليه عبد الملك بن مروان بعد أن هادن امبراطور الروم حين أغار على المصيصة سنة ٧٠ هـ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيغير على بلاد الشام، وبعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدي إليه نحو خمسين ألف دينار في كل عام؛ غير أنه عاد فقطعها عندما انقشعت سحب الصعاب التي

---

(١) بفتح الزاي وكسرها وبعدها راء: هو نهر بين إربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل ويصب في دجلة.

كانت تحيط به. ولما وثق عبد الملك من أن الروم لن يغيروا على بلاده في أثناء محاربته ابن الزبير، سار من الشام إلى العراق بحذاء الفرات.

وانتهز عمرو بن سعيد بن العاص فرصة انشغال عبد الملك بحرب ابن الزبير في العراق وشق عصا طاعته ودعا الناس إلى بيعته في دمشق، فلم ير الخليفة الأموي بداً من العودة إلى دمشق، وما زال بعمرو حتى ثناه عن رأيه بعد أن مناه ولاية العهد[١].

وقد عرف عمرو بن سعيد بالفصاحة والبلاغة والشهامة والإقدام، وكان يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك؛ فكتب إليه عبد الملك: (إنك لتطمع نفسك بالخلافة ولست لها بأهل)، فرد عليه عمرو يهدده ويتوعده في كتاب ينم عن الازدراء والاستهتار[٢].

هـ ـ الكيسانية:

فَتَّ إباء محمد بن الحنفية عن الدخول فيما قام به عبد الله بن الزبير في عضد هذه الدعوة وهيأ للمختار فرصة سانحة لتكوين حزب شيعي جديد هو حزب الكيسانية. بيد أن الجهود التي بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل.

قامت ثورة المختار في خلافة عبد الملك بن مروان. وقد قارن فان فلوتن بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال: يظهر أن عقيدة السبئية بنيت على الرأي القديم القائل بتجسد الألوهية. وزاد هذا المؤرخ أن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعي الآخر وهو حزب الكيسانية الذي ظهر في بادىء أمره بالكوفة تحت زعامة المختار حين ثار بها[٣]. وعلى الرغم من عقيدتهم الأصلية وهي القول بإمامة محمد بن الحنفية بعد أبيه علي، يغالي الكيسانية في اعتقادهم بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية، فيذهبون إلى أن ابن الحنفية هو الإمام، ويعتقدون أنه أحاط بالعلوم كلها[٤]، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا إليه بالأسرار وبعلم التأويل والباطن[٥]. وانتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة إلى القول بضرورة طاعته، إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون الإلهي (وهذا ما يميزهم عن غيرهم من المعتدلين من الشيعة).

---

(١) اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٢) المسعودي جـ ٢ ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٣) ذكر الشهرستاني (جـ ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام في القرن الخامس الميلادي)، والبراهمة في الهند، والفلاسفة القدماء والصابئة.

(٤) قيل: إن ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد وحذا حذوه غيره من الأئمة. قال فان فلوتن: وهنا يسأل المرء بأي مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المغرقة في الغلو التي كانت أشخاصهم السبب في ظهورها؟.

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ١٩٦ ـ ١٩٨.

ويعتقد الكيسانية في البداء، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد، وفي تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر، وفي الرجعة، أي رجعة محمد بن الحنفية؛ كما يعتقدون بنبوة علي والحسن والحسين وابن الحنفية. على أنهم يختلفون في أن ابن الحنفية ورث الإمامة عن علي مباشرة أو عن طريق أخويه الحسن والحسين. ويقول النوبختي[١]:

(وفرق قالت بإمامة محمد بن الحنفية، لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه، وادّعى (المختار) أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الإمام بعد أبيه. وكان يقول إن محمد بن الحنفية وصي علي بن أبي طالب، وأنه الإمام المختار قيمه وعامله).

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفية، واستفزتهم الأخبار التي ذاعت عن موته، فاعتقدوا أنه يقيم في جبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة[٢]. وأن عودته ستكون من هذا المكان. وقد نظم كُثَيِّر عزة والسيد الحميري أشعاراً كثيرة في هذا الاعتقاد حتى غدا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيساني. يقول كثير عزّة المتوفى سنة ١٠٥ (٧٢٣ م):

ألا إنَّ الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعةٌ سواء
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسبط غيبته كرْبلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً ... برضوى[١] عنده عسل وماء

ويقول الشهرستاني (١٩٦٠١): (إن جميع الكيسانية يعتقدون أن الدين طاعة رجل، وأن طاعتهم ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام كالصلاة والصوم والحج وهكذا).

وقد تكلم فان فلوتن[٣] عن الإمام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال: (إن السبئية، وإن كانوا يعتبرون إمامهم شخصاً مقدساً بطبيعته، فإن الكيسانية يبذلون له الطاعة باعتباره رجلاً رفيع المنزلة محيطاً بعلوم ما وراء الطبيعة).

هذا موجز عما بثه المختار بن أبي عبيد في نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع، لا يخفى على القارىء بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين الإسلامي.

---

(١) كتاب فرق الشيعة ص ٢٠ ـ ٢١

(٢) هو جبل قرب ينبع منيف ذو شعاب وأودية وبه أشجار ومياه كثيرة حتى ليرى من ينبع أخضر اللون.

(٣) السيادة العربية، ترجمة المؤلف، ص ٨٢.

ر ـ خروج زيد بن علي بن زين العابدين:

وفي عهد هشام خرج زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. وكان يحدث نفسه بالخلافة، ويرى أنه أحق بها حتى كانت أيام هشام بن عبد الملك. ذكر المسعودي (مروج جـ ٢ ص ١٨١) أن زيداً دخل على هشام، فلم يحفل به هو ولا رجال بلاطه، فجلس حيث انتهى به مجلسه فقال: يا أمير المؤمنين! ليس حد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله؛ فانتهره هشام وقال له: أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة، واتهمه هشام بوديعة لخالد بن عبد الله القسري أمير الكوفة، فبعث به إلى يوسف بن عمر الثقفي والي العراق من قبل هشام. فاستحلفه أنه ليس عنده مال لخالد فخلى سبيله[١].

فلما عاد زيد إلى المدينة تبعه زهاء خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة، وقيل أربعون ألفاً، وحرضوه على الخروج. ولما ظهر أمره حاربه يوسف بن عمر فتفرق أصحاب زيد عنه، وخذلوه، وحارب في نفر قليل فأصابه سهم في جنبه فمات من ساعته، ودفنه أصحابه في ساقية وأجروا الماء على قبره خوفاً أن يمثل به. وقد دل بعض العبيد يوسف على جثة زيد، فنبش القبر وأخرجها وصلبها، ثم حرقها وذرّ رمادها في الفرات[٢].

وإلى زيد تنسب جماعة الزيدية التي تفرعت منها جماعة الرافضة. ويرجع السبب في تسميتهم (الرافضة) إلى أن زيداً لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفي قالوا له: (إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب). فقال زيد: (إني لا أقول فيهما إلا خيراً وما سمعت أبي يقول فيهما إلا خيراً. وإنما خرجت على بني أمية لأنهم قتلوا جدي الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار)، ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم: رفضتموني، فأطلق عليهم الرافضة.

انقسمت الزيدية بعد موت زيد إلى طوائف عدة، فظل فريق منهم على ولائه لزيد، وبايعوا ابنه يحيى وقاتلوا معه في خراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م)، إلا أن أمره قد آل إلى ما آل إليه أمر أبيه من قبل، إذ أصابته نشابة فمات، وحز رأسه وصلب ثم أحرق حتى صار رماداً تذروه الرياح[٣].

---

(١) الفخري ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) كانت الزيدية ثماني فرق: الأولى: الجارودية وهم اصحاب أبي الجارود زياد بن المنذر العبدي، وذهبوا إلى أن الإمامة مقصورة في ولد الحسن والحسين دون غيرهما، الثانية: المرتدية، الثالثة: الأبرقية، الرابعة: اليعقوبية وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي، الخامسة: العقبية، السادسة: الأبترية وهم أصحاب كثير الأبتر والحسن بن صالح بن جني، السابعة: الجريرية وهم أصحاب سليمان بن جرير، الثامنة اليمانية وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفي، وقد غلا =

ز - عقيدة المهدي:

يقول فان فلوتن: (إن الاعتقاد بظهور المهدي وانتظاره لم يقتصر في بادىء الأمر على آل البيت وحدهم، بل إن ذلك الاعتقاد بدأ يذاع وينتشر بين المسلمين بحسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره[1]. وقد انتشرت فكرة المهدي المنتظر عند أهل السنة، حتى محت ذكر غيره من المهديين الذين كان بعض يتنبأ بهم، مثل: السفياني المنتظر والقحطاني المنتظر وغيرهما. ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً في نفوس المسلمين، وإنما صاروا بالنسبة إلى المهدي المنتظر كالدجال بالنسبة إلى عيسى بن مريم. لذلك كان من المعقول أن يظهر عليهم ذلك المهدي، ويهزمهم هزيمة حاسمة، وينتصر عليهم انتصاراً مبيناً)[2].

وكان البون شاسعاً بين تلك السعادة التي كان ينشدها الناس على يد المهدي المنتظر، وتلك الآلام التي كانوا يعانونها في ذلك الحين حيث الحروب الأهلية التي اشتعلت بسبب انقسام خلفاء بني أمية على أنفسهم، وبسبب تلك الإحن والأحقاد القديمة التي تفاقمت بين مضر وقحطان، تلك الحروب التي أنزلت الخراب ببلاد الشام حيث اندلع لهيبها أول الأمر، ثم تطاير شررها إلى غيرها من الولايات الإسلامية.

وقد ساد الاضطراب كافة أنحاء الدولة الأموية، واستولى على العرب من جديد الميل إلى الحرب والكفاح. فرفع الشيعة والخوارج رءوسهم، وظلت الحاميات السورية وحدها على ولائها للعرش الأموي، على حين كان المرابطون من الجنود العربية يشايعون أعداء الحكومة، حتى كادت تلك الفتن تقضي على ذلك التراث الذي خلفه النبي ﷺ، وتودي بذلك الإصلاح الذي قام به كل من أبي بكر وعمر. وهكذا كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل.

وتصف لنا هذه الأبيات التي نظمها عباس بن الوليد حرج الدولة الأموية وما وصل إليه الخلفاء الأمويون من يأس وقنوط:

إني أعيذُكُمُ بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البريَّة قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تُلحِمُنَّ[3] ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

هؤلاء في المذهب وفرعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم - أبو الحسن النوبختي: كتاب فرق الشيعة ص ١٩، ٤٩، ٥٠ - ٥١.

(١) ذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلاً من موسى بن طلحة وعمر بن عبد العزيز بالمهدي.

(٢) فان فلوتن: السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) (بضم التاء والميم): لا تطعموا.

لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع [١]

يقول فان فلوتن[٢]: هل كان الناس يعتقدون إزاء تلك الحالة السيئة بقرب ظهور المهدي (المخلص)؟ كل ذلك ممكن، بل من المحتمل جداً أن هذا الأمل كان العزاء الوحيد للتقاة من المسلمين (أهل السنة). ومع ذلك فلا ندهش إذا رأينا نبوءة أخرى تشغل الأذهان في ذلك الحين. لذلك كان من الضروري ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتي عليه ليعيد السبيل لذلك المهدي المنتظر. وهكذا ظهرت بجانب تلك النبوءات القديمة نبوءة أخرى هي نبوءة الرجل ذي الأعلام السود[٣] الذي يخرج من المشرق ويزيل عرش بني أمية[٤].

على أن دعوى الحارث هذه لم تصادف شيئاً من النجاح. فقد ظلت الحكومة وأنصارها من العرب اليمنية القحطانية صاحبة النصر والظفر. بيد أن ذلك الأمل الذي كان الحارث بن سريج أول من بعثه في النفوس لم يخب بعد، كما كان العامل الوحيد الذي جذب إلى الدعوة العباسية جميع هؤلاء الذين كانوا يشاطرون الحارث ميوله وآراءه السياسية. وليس بعيداً أن يكون الحارث قد اعتمد في دعوته هذه على هذا الحديث المشهور الذي رواه أبو داود[٥]: (ويخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث، على مقدمته رجل يقال له منصور، يوطىء أو يمكن لآل محمد، كما مكنت قريش لرسول الله ﷺ، وجب على كل نصره). ولم يلبث هذا الحديث ـ إن صح ـ أن أصبح نبوءة من تلك النبوءات التي وردت في كتب التكهن.

٦ ـ حزب الزبيريين

أ ـ نشأة حزب الزبيريين:

يرى كثير من المؤرخين أن نشأة هذا الحزب ترجع إلى الوقت الذي دعا فيه عبد الله بن الزبير إلى نفسه بمكة سنة ٦٣ هـ. على أننا نرى أن نواة هذا الحزب قد ظهرت بعد الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان. وخروج طلحة والزبير وعائشة على علي بن أبي طالب.

فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من تأمير عثمان له على داره سبباً كافياً لأحقيته بالخلافة، لأن استخلاف عثمان له دون أصحابه الذين كانوا معه يدل على كفاءته ومقدرته على القيام بمهام الأمور. وقد استند في ذلك إلى تأمير الرسول أبا بكر للصلاة وهو في مرضه الأخير مما عده

---

(١) الطبري (طبعة دي غوية) ٢ : ١٧٨٨ .

(٢) السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٣) كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين فاتخذ العباسيون السواد شعاراً لهم حداداً على الشهداء من آل البيت.

(٤) انظر المبرد: كتاب الكامل ص ٥٨٥ . الطبري (طبعة دي غوية) ٢ : ١٩٢٩ وما يليها.

(٥) كتاب السنن جـ ٢ ص ١٣٥ .

المسلمون كافياً لإسناد الخلافة إليه. فلا عجب إذا صار ابن الزبير يتحين الفرص من ذلك الوقت للوصول إلى الخلافة.

وكان عبد الله بن الزبير في عهد علي يرى أحقيته بالخلافة؛ ويعمل على تحقيق أغراضه، فأوقع بين معاوية وبين علي الذي وقف على ما تنطوي عليه أغراضه، فخاطب أباه الزبير في شأن ابنه عبد الله وقال له: (لقد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا)[١]. كما عمل عبد الله بن الزبير على تقوية حزب الزبير وطلحة وعائشة طمعاً في الخلافة. ولا غرو فقد كان يد هذا الحزب ولسانه الناطق، وكان لا يألوا جهداً في جمع كلمته. ولا عجب فقد كان عبد الله ربيباً في بيت خالته عائشة أم المؤمنين التي كانت تسعى لتحويل الخلافة إليه. وقد قيل إن مروان بن الحكم لما سار إلى طلحة والزبير وقال لهما: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة، أرسلت إليه عائشة رسولاً يقول له: (فليصل بالناس ابن أختي)[٢]، تريد عبد الله بن الزبير.

وقد بينا كيف ثنى عبد الله بن الزبير عزم خالته عائشة عن العودة إلى المدينة حين نبحتها كلاب الحوأب، وكيف ألح على أبيه الزبير بالعدول عن رأيه حين هم بالانصراف والعودة إلى المدينة، ورماه بالجبن حتى كفر عن يمينه وخاض غمار الحرب[٣].

على أننا لا نعلم أن ابن الزبير قد عارض معاوية قبل توليته يزيد العهد أو أنه خالفه في شيء، بل بالعكس نراه جندياً من جنود معاوية يشترك مع الجيوش في محاربة الأعداء. فكان في الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية سنة ٥٠ هـ بقيادة يزيد بن معاوية. ولا ريب أن معاوية كان يلمح في ابن الزبير ناحية المعارضة، فكان يترضاه ويتودد إليه ويحسن وفادته ويغدق عليه العطايا والمنح. وطالما كان يقول له: (مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواري رسول الله ويأمر له بمائة ألف). وليس ذلك ببعيد على معاوية الذي عرف بالمكر والدهاء.

ومهما يكن من شيء فقد كمن ابن الزبير في عقر داره طوال عهد معاوية تقريباً، ولعل هزيمة حزب طلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل كان لها أثر في انزوائه وعدم معارضته. على أنه لم يظل طويلاً على هذه الحال من الجمود والاستكانة؛ فإنه لما علم بتولية يزيد العهد هب من سباته وقاد حزب المعارضة الذي وقف في وجه معاوية، وعمل على إحباط مساعيه في هذه السبيل.

تطورت دعوة ابن الزبير بعد موت معاوية بن أبي سفيان، فقد خلا له الجو بعد مقتل

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٨٨.

(٣) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٢٠١.

الحسين بن علي ـ على ما تقدم ـ فدعا إلى نفسه سنة ٦٣ هـ، وصادفت دعوته نجاحاً عظيماً في بلاد العرب والعراق. على أن امتناع محمد بن الحنفية بن علي عن مبايعة ابن الزبير ـ وكان قد بايع يزيد بن معاوية ـ قد فت في عضد ابن الزبير وساعد على ظهور حزب الكيسانية بزعامة المختار بن أبي عبيد الذي قام في الكوفة بعد مقتل الحسين.

وعلى الرغم من ذلك كله استطاع حزب الزبيريين أن يعكر صفو الأمويين ردحاً من الزمن. وكانت هناك عوامل عدة ساعدت على إثارة المسلمين على بني أمية وأتاحت الفرصة لظهور هذا الحزب. ومن هذه العوامل:

١ ـ تحول الخلافة من طريق الشورى والانتخاب إلى طريق التعيين والوراثة، ومن الحكم الجمهوري إلى الحكم الملكي، ذلك النظام الذي جرى عليه الأكاسرة والقياصرة، وما أذاعه أعداء الأمويين عن صفات يزيد الخلقية مما حط قدره وباعد بينه وبين أحقيته بالخلافة في نظر المسلمين.

٢ ـ وقوع الحوادث الجسام في عهد يزيد ولا سيما مقتل الحسين بن علي، وغزو مكة والمدينة. فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من هذه الحوادث وسيلة لإثارة شعور المسلمين على بني أمية والدعوة لنفسه بالخلافة في الحجاز.

٣ ـ معاملة ولاة بني أمية أهالي الولايات بالقسوة والعنف حتى كرهوا حكم الأمويين وانضموا إلى أعدائهم.

٤ ـ ما عرف عن عبد الله بن الزبير من الصلاح والتقوى والتمسك بالدين حتى أنه اكتسب محبة المسلمين وظفر بتأييدهم.

ب ـ الدعوة لابن الزبير:

وسرعان ما ظهر أمر ابن الزبير بمكة. روى الطبري عن هشام عن أبي محنف في خطبة لعبد الله بن الزبير أنه قال عن أهل العراق بعد مقتل الحسين: (إنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه عليهم. فلما قدم عليهم ساروا إليه وقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سالماً فيمضي فيك حكمه، وإما أن تحارب. فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة. فرحم الله حسيناً وأخزى قاتل حسين. لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانه ما كان في مثله واعظ وناه عنه، ولكنه ما حم نازل (ما قد يكون)، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع. أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً؟ لا! ولا نراهم لذلك أهلاً. أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه

منهم، وأولى به في الدين والفضل. أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام وشرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلاب الصيد (يعرض بيزيد). فسوف يلقون غياً). فثار إليه أصحابه فقالوا: أيها الرجل! أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر (وقد كان يبايع الناس سراً ويظهر أنه عائد بالبيت) فقال لهم: لا تعجلوا! وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة، وقد كان أشد شيء عليه وعلى أصحابه، وكان مع شدته عليهم يداري ويرفق. فلما استقر عند يزيد بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة، أعطى الله عهداً ليوثقنه في سلسلة؛ فبعث بسلسلة من فضة، فمر بها البريد على مروان بن الحكم بالمدينة، فأخبر ما قدم له بالسلسلة، وبالسلسلة التي معه. ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير فأتى ابن الزبير فأخبره بممر البريد على مروان، فقال ابن الزبير: لا والله لا أكون أنا ذلك المستضعف، ورد ذلك البريد رداً رفيقاً. وعلا أمر ابن الزبير بمكة وكاتبه أهل المدينة، وقال الناس: (أما إذا هلك الحسين عليه السلام، فليس أحد ينازع ابن الزبير)[1].

استطاع ابن الزبير أن يثير أهل المدينة على ولاة يزيد حتى ثاروا وطردوا عامله (٦٣هـ). وقد بينا ما ترتب على هذا من حصار مسلم بن عقبة المري لها من ناحية الحرة وفتحها وإباحتها، وما تلا ذلك من حصار الحصين بن نمير مكة حيث دعا ابن الزبير إلى نفسه، ونشوب القتال بينهما وإحراق الكعبة. ثم توفي يزيد بن معاوية، وانقسم الأمويون على أنفسهم وكادت تضيع الخلافة من أيديهم واتسع نطاق الدعوة لابن الزبير بعد موت معاوية الثاني في الحجاز والعراق واليمن، ومصر. وانضم فريق من أهل الشام إليه: انضم إليه أهل مكة والمدينة عدا عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية، إذ كانا يعتقدان أن بني هاشم أحق بالخلافة، ودعا إلى ابن الزبير سلمة بن حنظلة التميمي في البصرة[2]. كما دخل أهل الكوفة في طاعته، ثم تبعهم سائر أهل العراق بعد أن نقضوا بيعة عبيد الله بن زياد الذي أقام نفسه نائب خليفة بعد موت يزيد وبايعوه بيعة مؤقتة.

أما في بلاد الشام فإن دعوة ابن الزبير لم تظهر إلا بعد موت معاوية بن يزيد حيث انضم أهل هذه البلاد إلى أمويين وزبيريين. يقول عبد الله بن عبد ربه[3]: (فلما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن. وبايع أهل مصر أيضاً ابن الزبير، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام).

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) الطبري جـ ٧ ص ٢٠. ابن الأثير جـ ٤ ص ٥٦٤.

(٣) العقد الفريد: جـ ٣ ص ١٤٥.

سار عبد الملك لقتال مصعب ابن الزبير بعد أن صالح القيسيين. فلما علم مصعب بمسيره إلى الكوفة أخذ يستعد لملاقاته. ولم يستطع جند مصعب الوقوف أمام جند عبد الملك، لأن جزءاً كبيراً من جيشه ـ وعلى رأسهم المهلب بن أبي صفرة ـ قد نهكته محاربة الخوارج. أضف إلى ذلك سخط الشيعة عليه لقتله المختار بن أبي عبيد.

وقد أرسل عبد الملك قواد مصعب وأعيان الكوفة ومناهم الأماني حتى أفسدهم عليه، إلا إبراهيم بن الأشتر، فإنه أعطى مصعب الكتاب الذي بعث به عبد الملك إليه. يقول ابن قتيبة[١]: (فكلهم أخفى الأمر عن مصعب إلا إبراهيم بن الأشتر، فإنه لما جاءه كتاب عبد الملك أخذه وأعطاه لمصعب فوجده يمنيه بولاية العراق، وأخبره خبر القواد وأنهم أخفوا كتب عبد الملك وطلب من مصعب أن يقتلهم حتى لا يفسدوا الجيش، فأبى مصعب ثم رجا منه حبسهم حتى يتبين الأمر، فأبى ذلك عليه أيضاً).

من ذلك نرى أن مصعب بن الزبير لم يتمتع بإخلاص جنده الذين استمالهم عبد الملك إليه بالأماني، كما نرى قصر نظر مصعب الذي سمح لهؤلاء الساخطين عليه بالبقاء في جيشه وعدم أخذه برأي إبراهيم بن الأشتر بعد أن أطلعه على الحقيقة.

وكان لهذه السياسة أثرها، فتفرق أصحاب مصعب عنه وترك في عدد قليل. وعلى مقربة من باحمرا[٢]. نشب القتال بين الفريقين، فقتل مصعب بعد أن أبلى بلاء حسناً وهزم من كانوا معه، ودخل عبد الملك الكوفة، فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ، وولى على البصرة والكوفة عمالاً من قبله[٣].

بذلك صفا الجو لعبد الملك في العراق، ولم يبق في يد عبد الله بن الزبير إلا بلاد الحجاز. فلما توطدت سلطته في العراق أعد جيشاً كثيفاً بقيادة الحجاج بن يوسف للقضاء على ابن الزبير.

خرج الحجاج إلى الطائف، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند؛ ثم سار إلى مكة وحاصرها، وضرب الكعبة بالمجانيق، وأرغم أهلها على طلب الأمان، فانضم بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوي قرباه إلى الحجاج وبقي عبد الله في عدد قليل من أنصاره[٤].

على أن عبد الملك لم يرد أن يحط شأن الكعبة، وإنما اضطر إلى قتال ابن الزبير، فحدث ما حدث عن غير قصد. وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٠.

(٢) بين الكوفة وواسط، وتبعد عن الكوفة بسبعة عشر فرسخاً.

(٣) الطبري جـ ٧ ص ١٨٧ ـ ١٨٨

(٤) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعاً في الدين.

خرج عبد الله بن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالاً شديداً، وأظهر شجاعة نادرة حتى حملوا عليه وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ.

جـ - عومل انحلال حزب الزبيريين:

جعل عبد الله بن الزبير مقر حكومته في الحجاز، وكان الحجاز بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية إلى الشام والعراق مأوى الطبقة الأرستقراطية التي مالت إلى حياة اللهو والمجون لتدفق الثروة عليها. لذلك لم تلق دعوة ابن الزبير نجاحاً في تلك البلاد.

ويظهر أن ابن الزبير كان متأثراً بهذه الفكرة القديمة، وهي إعادة النفوذ والسيطرة إلى بلاد الحجاز كما كان في عهد النبي وأبي بكر وعمر وعثمان، حتى أنه لم يسر إلى بلاد الشام حيث دعاه الحصين بن نمير ليبايع له بعد وفاة يزيد بن معاوية، فأبى ابن الزبير أن يغادر بلاد الحجاز.

أضف إلى ذلك تواكل عبد الله بن الزبير في نشر الدعوة لنفسه، فظل بالحجاز وترك أمر الدعاية إلى أنصاره كالضحاك بن قيس، وزفر بن الحارث بالشام، وأخيه مصعب بالعراق، على حين كانت السياسة الحكيمة تقضي عليه بأن يتولى ذلك بنفسه في الولايات الإسلامية الأخرى كالعراق ومصر.

وكان لظهور الشيعة والخوارج وقيامهم في وجه ابن الزبير أثر كبير في قتله. فقد توزعت قوته، فاشتغل فريق من رجاله المحنكين بقتال حزب الخوارج، وتعقب فريق آخر المختار، وحارب فريق ثالث بني أمية. ولو أن هذه الفرق تجمعت على بني أمية لما تمكن الأمويون من القضاء على الزبيريين.

أضف إلى ذلك ما اشتهر عن عبد الله بن الزبير من البخل. ذكر صاحب العقد الفريد (١ : ٢٠٩) أن مصعب بن الزبير لما قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي، وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق، فقال: يا أمير المؤمنين! جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا المال، فقال له: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله والله لا فعلت. أما خلفاء بني أمية فقد اجتذبوا الناس إليهم بالأموال الضخمة والعطايا، والناس عبيد الدرهم والدينار كما يقولون.

ولا عجب إذا تفوق الأمويون على الزبيريين في ناحية الدعاية واجتذاب الناس إليهم، حتى الشعراء الذين لهجوا بمحامدهم وبثوا الدعاية لدولتهم رغبة في الحصول على أموالهم وأعطياتهم التي كانوا يبذلونها في شيء كثير من السخاء، حتى أنهم كانوا يفيضون على الشعراء وعلى القبائل التي ينتمي إليها هؤلاء الشعراء، على حين لا نجد أكثر من شاعر واحد أخلص للزبيريين وظل على ولائه لهم حتى بعد سقوط حزبهم. هذا هو الشاعر عبيد الله بن قيس

الرقيات[١] الذي كان من أنصار عبد الله بن الزبير، وكان مغالياً في نصر الزبيريين.

انصرف الناس عن عبد الله بن الزبير وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب. وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل، فتنبأ بأفول نجمه. وقال لمصعب عندما طلب منه أن ينضم إليه ويترك أخاه: (والله إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبداً: عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه. فلا يسود رجل فيه تلك الخصال). أضعف إلى ذلك إخراج عبد الله بن الزبير بني أمية من المدينة وتحامله على بني هاشم وحطه من شأنهم، وهدمه الكعبة لإصلاحها. فاتخذ الحجاج بن يوسف من ذلك وسيلة لإثارة الناس عليه.

وبذلك سقط حزب الزبيريين بعد أن بسط سلطانه على الحجاز والعراق ومصر تسع سنين (٦٤ - ٧٣ هـ)، ولم تقم له بعد ذلك قائمة.

وكان لهزيمة ابن الزبير مغزاها السياسي، فإنها ليست هزيمة شخص أو حزب، ولكنها هزيمة ذلك الإقليم الذي حمل لواء هذه النهضة مدة من الزمن. وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات التي بذلها الحجاز لاسترداد نفوذه الأدبي والسياسي.

٧ - المرجئة

تكلمنا من قبل على طائفتين من أقدم الطوائف الإسلامية وهما: الخوارج أو الجمهوريون، والشيعة أو الملكيون. وسنتكلم الآن على طائفة أخرى لا يقل أثرها في توجيه السياسة الإسلامية عن هاتين الطائفتين، وهي طائفة المرجئة التي ظهرت في دمشق حاضرة الأمويين بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

وقد سميت هذه الطائفة المرجئة، من الإرجاء وهو التأخير، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث[٢]. كما يتحرجون عن إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها. ويرى فان فلوتن أن تسمية المرجئة ترجع إلى بعض آي القرآن، وأنها مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾ [سورة التوبة ٩: ١٠٦]. ويرى نيكلسون أن المرجئة مشتقة من أرجأ بمعنى بعث الرجاء والأمل[٣]،

---

(١) سمي ابن قيس الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية. وهو شاعر قرشي يؤثر العصبية القرشية ويختص منها بحزب الزبيريين الذين اتصل بهم ومدحهم ودافع عنهم حتى قتل مصعب بن الزبير ثم أخوه عبد الله واختفى حزبهم من ميدان السياسة. انظر ترجمته في الأغاني (٥: ٧٣ - ١٠٠).

(٢) انظر البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٩. الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٦.

(٣) Lit. Hist of The Arabs, p. 221.

لأنهم كانوا يقولون إنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الفكر طاعة .

وكانت العقيدة الأساسية عند المرجئة عدم تكفير أي إنسان أياً كان مهما ارتكب من المعاصي، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين، تاركين الفصل في أمره لله وحده.

وقد غلا جهم بن صفوان أحد رؤوس المرجئة، فزعم (أن الإيمان عقد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه فلا تقية، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية[١] في دار الإسلام وعبد الصليب، وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، ولى الله عز وجل من أهل الجنة). وكان من الطبيعي أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها إلى اطراح الفرائض العملية للإسلام ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس، فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن.

وهؤلاء هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية، مخالفين في ذلك الشيعة والخوارج. ومع هذا فإنهم يتفقون في العقيدة إلى حد ما مع طائفة المحافظين وهي أهل السنة، وإن كانوا ـ كما يرى فون كريمر[٢] ـ قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء السنيين، باعتقادهم (أنه لا يخلد مسلم مؤمن في النار)، وعلى العموم فهم يضعون العقيدة فوق العمل.

وكانت آراؤهم تتفق تماماً مع رجال البلاط الأموي ومن يلوذ به، بحيث لا يستطيع أحد من الشيعيين أو الخوارج أن يعيش بينهم، في الوقت الذي تمكن فيه المسيحيون وغيرهم من غير المسلمين أن ينالوا الحظوة لديهم أو يشغلوا المناصب العالية، حتى كان من الصعب اعتبار تلك الطائفة من المسيحيين أكثر من خدام ضرورة وأغراض، يدورون مع الزمن أنى دار ويميلون مع الرياح كيفما دارت، وكانوا في ذلك أشبه بقسيس بريي Bray[٣].

وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلاً، ومع ذلك فقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور.

ويقول فون كريمر: (ومما يؤسف له كثيراً أنه ليس لدينا غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة. فقد استمروا طوال ذلك العصر وذاقوا حلوه ومره. وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية العربية عن الأمويين حتى أن أقدم المصادر التاريخية التي وصلت إلينا إنما ترجع إلى عهد العباسيين. ومن ثم كان لزوماً علينا أن نستقي معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة في مؤلفات كتاب العرب في ذلك العصر الثاني).

---

(١) ابن حزم (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠) جـ ٤ ص ٢٠٤.

(٢) Cesch. d'Herrsch-Ideen, p. 25.

(٣) اسم قسيس كان مضرب المثل في التقلب، فقد اشتهر مذهبه حسب تغير الأحوال، واستطاع أن يعيش في عهد شارل الثاني وجيمس الثاني ووليم الثالث والملكة آن وجورج الأول، بتقلبه وتغييره مذهبه في الوقت الذي كان يعيش فيه.

وممن اشتهر من شعراء بني أمية بالقول بالإرجاء ثابت قطنة، وكان في صحبة يزيد بن المهلب، وله قصيدة في الإرجاء تعد وثيقة تاريخية قيمة في توضيح مذهبهم، وقد رواها صاحب الأغاني (جـ ٦ ص ٩٢٧).

٨ ـ المعتزلة

أ ـ نشأة المعتزلة وآراؤهم:

تكلمنا من قبل على الشيعة والخوارج والمرجئة من حيث أثرها في تاريخ الإسلام. والآن نتكلم على طائفة رابعة لا يقل أثرها في توجيه السياسة الإسلامية عن تلك الطوائف الثلاث، وهذه الطائفة هي القدرية أو المعتزلة.

اختلف واصل بن عطاء الغزال الفارسي مع أستاذه الحسن البصري الفقيه المشهور في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكبت ذنباً كبيراً. هل يسمى مؤمناً أو لا؟ ويقول واصل: إن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى مؤمناً كما لا يمكن أن يسمى كافراً، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتين وقد انتحى واصل ناحية بعيدة عن المسجد وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التلاميذ الذين اتبعوه، فكان الحسن البصري يقول للذين التفوا حوله أن واصلاً (اعتزل عنا) ومن ثم أطلق خصوم واصل عليه وعلى أتباعه اسم (المعتزلة)[١].

ويظهر من المعلومات التي وصلت إلينا أن مولد تلك الطائفة ومهدها كان بلاد العراق، وهي بابل القديمة ـ حيث تقابل الجنسان السامي والفارسي واختلطا ـ التي أصبحت بعد قليل كعبة العلم، ثم غدت بعد قليل أيضاً مقر الحكومة في عهد العباسيين[٢].

ويرى فون كريمر أن الاعتزال نما وانتشر في دمشق بتأثير رجال الدين من البيزنطيين، وبخاصة يحيى الدمشقي وتلميذه تيودور أبو قرة. أما ذلك الاسم الآخر الأكثر وضوحاً وهو (القدرية) الذي عرف به أهل هذه الطائفة، فإنه يرجع إلى مذهبهم القائل بحرية إرادة الإنسان، وإلى الحديث المكذوب على النبي ﷺ وهو (القدرية مجوس هذه الأمة)، وذلك لأنهم ـ كما يقول شتينر ـ يبررون وجود الشر. فقد وضعوا قاعدة أخرى هي إرادة الإنسان ضد إرادة الله، وهي ما عزاه إليهم خصومهم، حتى أننا لنجد الشاعر الصوفي الفارسي محمود الشبستاري يشير في أوائل القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى ذلك الحديث في كتابه المشهور عن التصوف المسمى جُلشنى راز بما يأتي: (كل رجل لا يعتقد بالقضاء والقدر فهو مجوسي (أي من عباد النار)، كما قرر ذلك الرسول في سنته).

---

(١) انظر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) Dozy; Histoire de L'Islamisme, p. 201.

ويرى فون كريمر أن معبد الجهني (ت ٨٠/٦٩٩) كان يدين بمذهب حرية الإرادة في دمشق في آخر القرن السابع الميلادي، وأنه تلقاه عن رجل فارسي يسمى سنبويه Sinbuye، الذي قتله عبد الملك بن مروان، وفي رواية أخرى الحجاج بن يوسف[١].

وتتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والوعيد والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما القول بالتوحيد، وهو الأصل الأول، فقد ذهبت المعتزلة من بصريين وبغداديين وغيرهم أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان، ولا نهاية ولا حد، وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شيء، وأنه القديم. وأن ما سواه محدث.

وأما القول بالعدل، وهو الأصل الثاني، فمعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل إنهم يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد، ولم ينه إلا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطيقونه، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها، وهو المالك لها دونهم، يفنيها إذا شاء ويبقيها إذا شاء. ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارياً عن معصيته، ولكان على ذلك قادراً، غير أنه لا يفعل، إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى.

وأما القول بالوعيد، وهو الأصل الثالث، فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأنه لصادق في وعده، ووعيده، لا مبدل لكلماته.

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين، وهو الأصل الرابع، فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقاً على حسب ما ورد التوفيق بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه.

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الأصل الخامس، فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه، وإن كان كالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق[٢].

ويقول المعتزلة أيضاً بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، ولو لم يرد بهما

---

(١) راجع: Browne, vol. pp. 279 - 281.

(٢) المسعودي. مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٠ - ١٩١.

شرع، وأن للشيء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحا. ويشبه هذا المذهب في بعض الوجوه مذهب العقليين Rationalists الذي ساد أوروبا في عصر النهضة[١].

ب ـ علاقة المعتزلة بالشيعة والخوارج:

ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة، فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام. يقول المسعودي[٢]: (يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة، تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه، سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان. ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره. وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك. والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن حِيّ. ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الإباضية وغيرهم إلا النجدات من فرق الخوارج، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبها. ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر، إلا أنهم قالوا: إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج إلى إمام، وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها، منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فوض الأمر إلى الشورى: لو أن سالماً حي لما داخلني فيه الظنون. فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة في سائر المؤمنين، لم يطلق هذا القول ولم يتأسف على موت سالم مولى أبي حذيفة، وقد صح بذلك عن النبي ﷺ أخبار كثيرة منها قوله: اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع. وقال عز وجل: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩ : ١٣].

قال جولدتسيهر عن علاقة المعتزلة بالشيعة: (ومما هو جدير بالملاحظة أن طوائف الشيعة برغم تشعبها قد سادت فيها مبادىء المعتزلة في كثير من المسائل ولا سيما ما لم يتأثر منها بعقيدة الإمام أو المهدي، فقد استطاع فقهاء الشيعة وعلماء التوحيد منهم أن يستفيدوا من أفكار المعتزلة ويستخدموها لدعم عقائدهم ومذاهبهم الخاصة. وهذا يدل على أن الشيعة آثروا أن يسموا أنفسهم أهل العدل، وهو نفس التسمية التي تسمى بها المعتزلة.

ويظهر التشابه بين المعتزلة والشيعة فيما يدعيه هؤلاء أن علياً والأئمة من آل بيته هم أول من قالوا بحرية الإرادة، وأن المعتزلة لم يزيدوا في ذلك شيئاً أكثر من شرحهم تلك العقيدة التي وضع أساسها علي بن أبي طالب. لذلك نرى في كتبهم التي كتبوها في علم الكلام تلك

---

(١) Nicholson, p. 224.

(٢) مروج الذهب جـ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢.

الظاهرة الغريبة، وهي أنهم كانوا يلقبون فقهاءهم بلقب إمام، ذلك اللقب الذي يقدسه الشيعة. أضف إلى ذلك تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم القائلة أن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد. وهذا نفس ما يقوله المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً في ذلك بالمعتزلة من الإمامية. وهكذا تأثر كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد خاصة.

ولا غرو فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب. وقلما نجد كتاباً من كتبهم، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام علي.

يقول ابن أبي الحديد[1]: (وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب، ولا نقل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً. وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به. وأول من خاض فيه من العرب علي عليه السلام. ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه. ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصورونه، ولو فهموه لم يفهموه؛ وأنى للعرب ذلك. ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا في بحار المقولات إليه خاصة دون غيره، وسموه أستاذهم ورئيسهم، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها. ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام)؟.

كذلك ذكر المعتزلة الإمام علياً في الطبقة الأولى من طبقاتهم. كما ذكروا قصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من صفين، أكان المسير بقضاء الله وقدره؟ فقال عليه السلام: والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة[2] إلا بقضاء وقدر. فقال الشيخ: عند الله احتسب عنائي، ما لي من الأجر شيء، فقال: بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: كيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا؟ فقال عليه السلام: لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً، ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة المذنب أولى من المحسن: تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن وشهود الزور، وأهل العماء عن الصواب

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) التلعة والتلاع أرض مرتفعة.

في الأمور، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً، ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً. ذلك ظن الذين كفروا، فويل للكافرين من النار، فقال الشيخ: وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا؟ فقال: أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول:

أنت الإمامُ الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً ... جزاك ربك بالإحسان إحسانا[1]

كذلك ذكروا في الطبقة الثانية الحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي. وكان محمد هذا (ابن الحنفية) هو الذي ربى واصل بن عطاء كما تقدم. وكان أبو هاشم إذا سئل عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول: إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره في واصل بن عطاء. وكذلك أخذ واصل عن أبي هاشم الذي كان معه في الكتب، فأخذ عنه وعن أبيه.

هذه بعض الصلات التي ظهرت منذ ظهور المعتزلة، ومنها نرى أثر آل البيت في ظهور الاعتزال ومقدار تأثر رؤساء المعتزلة بالبيت النبوي.

ولما كانت الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية، فخاصمت بعضها، واتصلت ببعضها الآخر اتصالاً يختلف شدة وضعفاً يذهب كل منها في عقائده. ولبيان هذا نقول: إن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها ثلاثة أقسام: غالية ورافضة وزيدية. أما الغالية فهم الذين غالوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم فرق كثيرة كالسبئية[2].

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة، وهو التوحيد، للرد على غلاة الشيعة، والرافضة الذين قالوا إن الله قدٌّ وصورة وأنه جسم ذو أعضاء. وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة، نرى أن المتقدمين منهم، مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمي الرافضة، كانوا كذلك خصوماً للمعتزلة، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك. يقول الخياط المعتزلي[3]: (فهل كان على الأرض رافضي إلا وهو يقول: إن الله صورة، ويروي في ذلك الروايات، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم، إلا من صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد فنفته الرافضة عنها ولم تقر به؟).

أما الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة. وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن علي الذي

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٧، ١١.
(٢) المصدر نفسه ص ٨.
(٣) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ص ١٤٤.

تتلمذ لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة، واقتبس منه أصول الاعتزال، وأصبح جميع أصحابه معتزلة إلا من خرج عليه منهم. وقد اشتركت المعتزلة من بني هاشم في مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسين بمكة في أواخر عهد بني أمية ثم شاركوا الشيعة في سخطهم على العباسيين بعد أن آلت الخلافة إليهم، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن علي تحت لواء إبراهيم بن عبد الله في العراق في محاربة أبي جعفر المنصور، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه[1]، ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال، ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم التي تقول إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد، وهذا هو عقيدة المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً بالمعتزلة في ذلك من الإمامية، إذ تتفق مع المعتزلة فضلاً عن ذلك في كثير من الأجزاء والتفاصيل. ولا يزال الاعتزال ظاهراً في أدب الشيعة حتى اليوم. ومن ذلك كان الخطأ البين ـ من وجهة التاريخ السياسي الديني أو من وجهة التاريخ الأدبي ـ أن نظن أن انتصار مذهب الأشاعرة المؤزر على مذهب المعتزلة قد قضي عليه القضاء الأخير، وأنه لم يبق له وجود بعد ذلك.

وقد بلغ من شدة التشابه بين المعتزلة والشيعة أن اختلط الأمر على المؤرخين، فلم يميزوا بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد، وذلك لانقسامها إلى قسمين رئيسيين:

١ ـ قسم يحتوي على الفصول التي تبحث في التوحيد.

٢ ـ وقسم يتضمن البحوث المتعلقة بالعدل.

على أن كتب الشيعة امتازت بذكر نظرية الإمام وعصمته، وهذا ما يميز كتب الشيعة عن كتب المعتزلة.

بيد أنه يجمل بنا ألا نهمل القول بأن النظام ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ كان يرافق الشيعة في كل ما يتعلق بنظرية الإمام وعصمته. ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم البراهين التي استدل بها الشيعيون على نظرية الإمامة قامت على أسس من مذهب الاعتزال البحت. فالقول بضرورة وجود إمام في كل عصر، ووجوب عصمة ذلك الإمام عن الخطأ يتفق تماماً مع رأي المعتزلة وقولهم بوجوب إرسال الرسل لأن الله حكيم وعادل. ومن ثم يقول الشيعة: (إن الله يبعث للناس في كل عصر مرشداً وهادياً معصوماً من الخطأ. وهكذا نرى الشيعة تقيم قواعدها الرئيسية على نظريات عقائد المعتزلة)[2].

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٧٩.

(٢) Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islam, pp. 188 - 189.

ويتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس، كما يتفقون معهم في القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين. ويفهم ذلك من قول الخوارج: (لا حكم إلا الله). إلا أن المعتزلة لا تجيز هذا إلا في حالة واحدة وهي: أن يكون جميع المسلمين عدولاً ليس بينهم فاسق. ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخوارج على بني أمية وإثارة الفتن واضطرابات. ولا سيما في إفريقية وبلاد المغرب، تلك المبادىء التي كانت تتفق في كثير من المسائل ـ وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية ـ مع ميول الخوارج[1].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩١.

الباب السابع

نظم الحكم

تتكون نظم الحكم في الدولة من مجموع القوانين والمبادىء والتقاليد التي يقوم عليها الحكم في هذه الدولة. ومن هذه النظم:

١ ـ النظام السياسي ويتناول الخلافة من حيث كونها نظاماً للحكم، ومن حيث نشأتها وارتقائها وضعفها، كما يتناول الكلام على الوزارة والكتابة التي يتولى صاحبها مخاطبة الولاة وغيرهم من موظفي الدولة، والحجابة التي يشبه صاحبها كبير الأمناء في أيامنا هذه.

٢ ـ النظام الإداري ونعني به إدارة الأقاليم من حيث بيان سلطة الولاة في ولايتهم، وتعدد دواوين الدولة، كديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان المستغلات أو الإيرادات، وديوان الطراز، وديوان الخاتم، ويشبه قلم «الأرشيف» أو السجلات، والبريد، والشرطة.

٣ ـ النظام المالي ويبحث موارد بيت المال ومصارفه، والخراج بنوعيه، وديوان الخراج وجبايته، ونظام المقاسمة، ونظام الالتزام أو الإقطاع ثم الجزية والزكاة والفيء والغنيمة والعشور. كما يتناول نظام الضرائب وطرق جبايتها ومقدار الجباية، والأوجه التي تصرف فيها موارد بيت المال.

٤ ـ النظام الحربي ويتناول الجيش وإمرته وأسلحته.

٥ ـ النظام القضائي ويتناول القضاء والمظالم التي يلجأ إليها المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل، والحسبة التي تعتبر وسطاً بين القضاء والمظالم.

١ ـ النظام السياسي

أ ـ الخلافة:

لم يؤثر عن النبي ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده، بل ترك هذه المسألة من غير أن يبت فيها، ورأى أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من أحبوا.

والخلافة لغة مصدر «خلف». يقال: (خلفه خلافة، كان خليفته وبقي بعده. والخليفة السلطان الأعظم. والجمع خلائف وخلفاء). فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد، ومن ثم سمي من يخلف الرسول في إجراء الأحكام الشرعية خليفة، ويسمى أيضاً إماماً. فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به. ولهذا يقال الإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة فلأنه يخلف النبي في أمته، فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله. واختلف في تسميته خليفة الله، فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾، وقوله: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾[1] ومنع الجمهور منه. وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به، وقال: (لست خليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ)، ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب أما الحاضر فلا[2].

أما الخلافة في الاصطلاح: فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ. وفي ذلك يقول ابن خلدون: (والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا)[3].

وإن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضاً، بيده وحده زمام الأمة. فكل ولاية مستمدة منه، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه. فهو الحاكم الزمني والروحي بخلاف ما نجده في الغرب في العصور الوسطى.

وقد ذكر سير توماس أرنولد[4] أوجه الشبه والاختلاف بين هذين النظامين اللذين قاما خلال العصور الوسطى: وهما الخلافة في الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب، فقال: (إن كلا النظامين يستند إلى قوة الدين: فكلاهما دين عالمي يعمل على ضم العالم تحت لوائه. بيد أن الامبراطورية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة، حتى أن الامبراطور شرلمان تلقب بألقاب الأباطرة الوثنيين، كما نجد في الغرب حاكمين: أحدهما زمني وهو الامبراطور، والآخر روحي وهو البابا، أما الخلافة فإنها لم تقم

---

(١) سورة الأنعام ٦: ١٦٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) The Caliphate, pp. 1 - 2.
Henry Osborn Talylor: The Mediaveal Mind, vol, II, pp. 393.
Goldziher Muhammedanische Studien, vol. II. p. 19. seq.

على نظام سياسي سابق، بل هي نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت إثر ظهور الإسلام وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية. والخليفة حاكم سياسي بمعنى أنه يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين. ويستطيع باعتباره حامي الدين أن يعلن الحرب على الكفار ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة، ويلقي خطبة الجمعة، بخلاف البابا فإنه يعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين، وهو المرجع الأعلى في الأمور الدينية).

١ ـ **شروط الخلافة**: والخلافة ضربان: اختيارية وقهرية. فالاختيارية[١] هي التي تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها، ويشترط في الشخص الذي يرشح لها أن يكون جامعاً للصفات المطلوبة والشروط اللازمة لها، وهي ـ كما ذكر الماوردي وغيره ـ أربعة: العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل. واختلف في شرط خامس هو النسب القرشي. أما القهرية فهي التي نالها صاحبها بالغلب والقوة. ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها.

ويراد بالعلم العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام الفقهية، وبالعدالة أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك متجنباً للمعاصي. وفي ذلك يقول ابن خلدون (مقدمة ١٥٢): (ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها، وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف).

ويقصد بالكفاية أن يكون الخليفة قادراً على إقامة الحدود، بصيراً بالحروب كفيلاً بحمل الناس عليها، صاحب رأي وتدبير[٢]:

أما قرشية النسب فالمراد بها أن يكون الخليفة من قبيلة قريش، بدليل إجماع كثير من الصحابة يوم السقيفة[٣] على ذلك، واحتجاج قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة بقول الرسول: الأئمة من قريش، وبأن النبي أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم. ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم. فحاجوا الأنصار حتى عدلوا عما هموا به من بيعة سعد. وثبت في الصحيح أيضاً: (لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش)، كما أثر عن النبي أنه قال: «الملك في قريش والقضاء في الأنصار والأذان في الحبشة»، كما قال: «الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة».

---

(١) بدر الدين بن جماعة: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام المنشور بمجلة Islamica الألمانية، العدد الرابع سنة ١٩٣٤. الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٤. مقدمة ابن خلدون ص ١٥٢.

(٢) راجع ما ذكره الدكتور عبد الرازق أحمد السنهوري في كتابه Le Califat, pp. 53 - 58.

(٣) هي ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة يجتمعون فيها وكانت له الرياسة.

على أن أكثر هذه الأحاديث مدسوس على الرسول، فقد ذكر ابن خلدون (مقدمة ص ١٥٣ ـ ١٥٤) أن الرسول قال: «الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا، واسترحموا فرحموا»، مما يدل على أن الإمامة تكون في قريش إذا استوفوا هذه الشروط». على أن هناك أيضاً من الأحاديث النبوية ما يبيح إطلاق الخلافة إطلاقاً وعدم قصرها على قريش.

وقد نشر المهاجرون كل تلك الأحاديث مع أن القرآن لم يشر إلى قصر الخلافة على أسرة أو قبيلة معينة، فقد قال الله تعالى: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩: ١٣]، وأثر عن الرسول أنه قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[١].

ويرى الشيعة أن تكون الخلافة لعلي ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة. وهم لا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة، كما يجعلون للخليفة صفات دينية، فهو لديهم مستودع العلم الشرعي، لأنه هو وحده الذي يفهم القرآن والسنة وله حق تفسيرهما. ولذلك لقبوا الخليفة بلقب «إمام» لأنهم يعتبرونه قدوة لهم. ووضع بعضهم علياً في مصاف الآلهة، بل قالوا: إن الخلافة ركن من أركان الدين.

ويرى الخوارج صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلي إلى أن حكم الحكمين، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر.. ثم شرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب. ولذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين للأحرار أو الأرقاء على سواء، وخالفوا بهذا الرأي نظرية الشيعة التي تقول بقصر الخلافة على آل بيت النبي.

وقد رضي المرجئة حكم بني أمية، مخالفين في ذلك الخوارج والشيعة، لأن العقيدة الأساسية عندهم هي عدم تكفير أي إنسان اعتقد الإسلام ونطق بالشهادتين مهما ارتكب من المعاصي. أما المعتزلة أو القدرية التي لم تلبث أن خاضت غمار السياسة، فقد تكلمت في الإمامة وشروط الإمام، وقالوا: إن الإمامة اختيار من الأمة[٢].

٢ ـ طريقة انتخاب الخلفاء الراشدين:

اجتمع الأنصار إثر وفاة الرسول في سقيفة بني ساعدة ليختاروا من بينهم خليفة، ورشحوا سيد الخزرج، وهو سعد بن عبادة، الذي قام فيهم خطيباً فقال: يا معشر الأنصار! لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب.. أثخن الله عز وجل لرسوله بكم

---

(١) الزبيبة واحدة الزبيب المأكول، ورؤوس الحبش توصف بالصغر.

(٢) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة: القاهرة ١٩٦٢) ص ٧ ـ ١٣.

الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين. استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس، فإنه لكم دون الناس.

ولما اتصل نبأ هذا الاجتماع بعمر بن الخطاب، أسرع ومعه أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح إلى السقيفة حيث قام بين المهاجرين والأنصار نقاش طويل[١]. وقام أبو بكر خطيباً وأخذ يبرر موقف المهاجرين وأحقيتهم بالخلافة فقال: (.. فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له بالصبر معه، على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياه.. فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم في ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه. فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتانون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور).

ولم ترد الأوس أن تؤول الخلافة إلى الخزرج وانضمت إلى المهاجرين. ثم قام عمر فبايع أبا بكر بالخلافة وقال له: ألم يأمر النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر؟ فأنت خليفه ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً. ثم قال له عمر: ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه، وبايعه المهاجرون والأنصار[٢].

بويع أبو بكر بفضل ما أوتيه عمر من المهارة والشجاعة. وتسمى هذه البيعة (البيعة الخاصة)، إذ لم يبايعه إلا نفر قليل من المسلمين الذين حضروا السقيفة. ثم جلس أبو بكر على المنبر في اليوم التالي وبايعه عامة المسلمين، وتسمى هذه البيعة (البيعة العامة).

يقول سير توماس أرنولد[٣]: (لوحظ في انتخاب أبي بكر ما يلاحظ في انتخاب شيخ القبيلة العربية، لأنه انتخاب يتفق مع الروح العربية). وتم هذا الانتخاب بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان مألوفاً لدى قبائل العرب في الجاهلية، ذلك النظام الذي يقضي بأن تكون السن والفضائل أساساً لاختيار شيخ القبيلة.

بقي أبو بكر في الخلافة أكثر من عامين؛ وقبل موته رشح عمر للخلافة. وهنا أيضاً تتمشى الشورى وعدم التوريث مع الطبيعة العربية. ذلك أنه لما اشتد المرض على أبي بكر خاف إن هو ترك أمر الخلافة كما تركه رسول الله، أن ينقسم المسلمون ويصبحوا أشد خطراً على أنفسهم من أهل الردة. لذلك استقر رأيه على أن يعهد بالخلافة من بعده إلى من يعتقد فيه

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٠٧ - ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٢١٠.

(٣) The Caliphate, p. 20.

الكفاية وحسن السياسة، فوقع اختياره على عمر. وهذه هي الحادثة الأولى التي عين فيها الخليفة من يخلفه، أما الثانية فهي حين اختار عمر ستة من أهل الشورى يختارون من بينهم خليفة.

على أن أبا بكر لم يشأ أن ينفرد برأيه حين رشح عمر للخلافة، فاستشار كبار الصحابة وسألهم رأيهم في عمر، فأثنوا عليه ووافقوا على اختياره، فكتب كتاب عهده لعمر وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر. إني استعملت عليكم عمر ابن الخطاب، فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

ولما طعن عمر أخذ الناس يتكلمون في أمر الخلافة، وطلبوا إليه أن يعهد، وعرض عليه بعض أن يعهد إلى ابنه عبد الله، فأبى واختار ستة من الصحابة هم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة ابن عبيد الله، ودعاهم إليه إلا طلحة، وكان غائباً، وقال لهم: (. . . فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له في الأمر).

ولما بويع عثمان بالخلافة خطب الناس خطبته المعروفة، وهي لا تبين السياسة التي عول على انتهاجها في إدارة دولته، وإنما هي عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة. وقد يرجع ذلك إلى شيخوخته وما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف. وقد دلت الحوادث على أن عثمان لم يكن يستطيع أن يحكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت رقعة بلادها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها. لذلك لا نعجب إذا غلب على أمره وذهب ضحية هذه السياسة التي لم تكن تلائم العصر الذي عاش فيه.

وبعد مقتل عثمان مال الثوار إلى تولية علي، ولم يكن بالمدينة سوى عدد قليل من الصحابة، على رأسهم طلحة والزبير. كما تردد في بيعته بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وتخلف بنو أمية الذين لحق بعضهم بالشام وبعضهم الآخر بمكة.

وقد أراد علي أن يحكم وفق التقاليد التي سادت زمن النبي وأبي بكر وعمر، مع أن الأحوال كانت تستلزم شيئاً من السياسة والدهاء. فبادر إلى عزل ولاة عثمان برغم نصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور. ولكن معاوية أبى الإذعان لأمر علي وقامت بسبب ذلك الحرب بينهما، ثم عقد بينهما التحكيم، وقتل علي وفاز معاوية بالخلافة وقامت الدولة الأموية.

٣ - رأينا في بيعة الخلفاء الراشدين:

على الرغم من أن بيعة الخلفاء الراشدين لم تكن منظمة إلا أنها كانت تحمل فكرة الشورى التي تتمشى مع الروح العربية وتبعد كل البعد عن النظام الوراثي.

ويزعم بعض أن انتخاب أبي بكر كان انتخاباً غير منظم، إذ لم يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه، ولم يؤذن الناس بهذا الاجتماع من قبل. والجواب على ذلك أنه قد حصل اجتماع ضم أصحاب الرسول، ورشح الأنصار سعد بن عبادة، ورشح أبو بكر أبا عبيدة وعمر. وتبادل الأنصار والمهاجرون الآراء وأقاموا الحجج، ورجحت حجة على حجة. لذلك لا نستطيع أن نوافق الذين يطعنون في هذا الانتخاب. وإن حرص الصحابة وكراهتهم أن يظلوا يوماً أو بعض يوم من غير أن يكون لهم إمام يجمع كلمتهم هو الذي حملهم على المبادرة إلى الاجتماع في سقيفتهم. وكذلك كان حرص عمر في مبادرته إلى بيعة أبي بكر، فقد أثر عنه أنه قال: (إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً، فلا يغرن امرأ أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة؛ فقد كانت كذلك، غير أن الله وقى شرها، وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر).

ويظهر أن الذين عابوا هذا الانتخاب، وخاصة المحدثين من المؤرخين، أرادوا أن يقيسوا ما حدث منذ ألف وثلثمائة وثلاث وسبعين سنة بما يحدث الآن وهو قياس مع الفارق.

ونلاحظ في اختيار عمر أمرين خطيرين: أولهما أن أبا بكر علق خلافة عمر على رضا الناس، وثانيهما أن أبا بكر لم ينتخب أحداً من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصاً أجمع الناس على احترامه.

وكانت بيعة عمر صحيحة، وإذا قيل إنه ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس غالباً ويكون قادراً على حمايتهم، وأنها أشبه بولاية العهد أو التعيين، فإن أبا بكر لم يستبد برأيه ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر، بل إنه استشار الصحابة فأثنوا على عمر ووافقوا على اختياره.

على أن هذه الطريقة لا تخلو من العيوب، إذ قد يخطىء الخليفة أو يحسن الظن بمن لا يحقق ظنه. فليس كل خليفة كأبي بكر ولا كل ولي عهد كعمر، ولا يستطيع أحد أن يطمئن إلى حسن نتيجة مثل هذه الطريقة لما فيها من احتمال الخطأ في الاختيار على الأقل. وقد زعم الأمويون والعباسيون وغيرهم أن هذه السنة التي سنها أبو بكر، والتي كان قوامها الشورى وعدم التوريث تعطي الخليفة الحق في انتخاب من يخلفه بغير قيد ولا شرط.

أما بيعة عثمان فهي أقرب إلى الشورى من بيعة عمر، إذ قد تعدد المرشحون للخلافة. وكان للمجتمعين بمسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير في توجيه هذا الانتخاب وحصر

الخلافة في واحد من اثنين هما عثمان وعلي . وقد تكون هذه الطريقة التي أشار بها عمر في اختيار خليفته صالحة لو أنها وجدت البيئة الصالحة لها. ويزعم بعض أنها ناقصة، لأنها ضيقت دائرة الناخبين إلى حد بعيد فجعلتهم ستة، وأهملت جمهور المسلمين، كما أدت إلى ظهور التنافس بين عثمان وعلي، أو بعبارة أخرى بين بني هاشم وبني أمية، وانقسم المسلمون بسبب ذلك إلى أمويين وهاشميين أو علويين، لأن علي بن أبي طالب كان هو المقدم في بني هاشم.

كذلك كان انتخاب علي شورياً. وإن لم يكن هذا الانتخاب عاماً لتفرق أكثر الصحابة في الأمصار كما تقدم. وإن لم يكن انتخابه بالطريقة التي انتخب بها من سبقه من الخلفاء، فقد انتخب أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا في المدينة، وإن كانوا قد اختلفوا في بادىء الأمر. وبعد وفاة أبي بكر لم يكن ثمة اختلاف في الأمر لأنه كان قد عهد إلى عمر ورأى المسلمون وجوب طاعته، ثم بويع عثمان بمقتضى قانون الشورى الذي سنه عمر. أما من يقول إن علياً لم يبايعه إلا أهل المدينة وإنه لم يؤخذ في ذلك رأي غيرهم من المسلمين في الحواضر الإسلامية، فيمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبني على رأي أهل المدينة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن أحداً من الخلفاء الراشدين لم يفكر في جعل الخلافة وراثية، فقد أبى عمر أن يعهد لابنه عبد الله، وأبى علي أن يعهد لابنه الحسن حين سأله بعض المسلمين وهو على فراش الموت فقال: (لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر). كما يلاحظ أنه كان من السهل أن يحسن المسلمون اختيار من يليق لهذا المنصب الخطير من بين الشخصيات البارزة فيهم، إذ كانت محدودة العدد معروفة للخاص والعام.

وإذن لم يكن ثمة استبداد في طريقة تولية العهد التي قد تقي المسلمين شر التنافس والتناحر ولا غرو فقد لقيت طريقة أبي بكر ارتياحاً لدى جمهور المسلمين، بدليل مطالبتهم عمر بأن يعهد لأحدهم كما فعل أبو بكر من قبل. ولكن قتل عثمان دون أن يعهد لغيره عاد بالعرب إلى الطريقة الأولى التي كانت قريبة الشبه بطريقة انتخاب شيخ القبيلة العربية. وكان كل من الخلفاء الراشدين يخطب الناس بعد بيعته، فيوضح لهم السياسة التي عول على انتهاجها في إدارة شؤون دولته، فكانت هذه الخطبة بمثابة خطبة العرش في الوقت الحاضر.

٤ ـ الأمويون والخلافة:

وقد غير انتقال الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان نظام الشورى الذي كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين، وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة والمكايد. على أنه وجد فريق من المسلمين يبرر هذه الحالة ويستند في ذلك إلى أحاديث رويت عن النبي ﷺ تحض الناس على طاعة الحاكم والخضوع لحكمه أياً كانت نزعته وطريقة حكمه فقد أثر عنه أنه قال: «سيليكم بعدي البر ببره ويليكم الفاجر بفجوره، فاسمعوا وأطيعوا في كل ما

وافق الحق، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم».

ولما ولى معاوية ابنه يزيد العهد ظهر نظام التوريث، وانتقلت الدولة من ذلك النظام الذي ساد عهد الخلفاء الراشدين إلى النظام الذي سار عليه الأمويون في حكم الدولة الإسلامية، أو بعبارة أخرى من نظام الخلافة الذي يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين، إلى النظام الملكي الذي يقوم على أساس التوريث ويستند إلى السياسة أولاً وإلى الدين ثانياً. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين واستحالت بذلك إلى ملك.

على أنه ينبغي أن لا يعزب عن أذهاننا أثر البيئة في تطور نظام البيعة، إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية في عهد الخلفاء الراشدين، كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي، وقام ذلك النظام الذي يتفق وطبيعة العرب كما تقدم. فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية، تأثر العرب بالبيئة التي عاشوا فيها، وغدا نظام الخلافة أشبه بالنظام الملكي أو القيصري، ومن ثم زادت الصفة الزمنية في الخليفة، وكان معاوية متأثراً في ذلك بالنظام الذي كان سائداً في الدولتين البيزنطية والساسانية، وسار في تحقيق هذه السياسة بمنتهى المهارة، وأخذ لهذا الأمر الخطير أهبته في شيء كثير من الحيطة، فأوحى إلى عماله على الأمصار أن يمهدوا السبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد.

وعلى هذا النظام سار العباسيون، فحرموا المسلمين هذا الحق الطبيعي وهو الشورى التي ألفها العرب وجاء بها القرآن وأيدتها الأحاديث النبوية. وغلا الأمويون ـ والعباسيون من بعدهم ـ في ذلك حتى أصبحوا يولون عهدهم اثنين بل ثلاثة، وأصبح الخليفة الأموي يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته على حين أصبحت هذه البيعة تؤخذ في الأقاليم بحضور الوالي نيابة عن الخليفة. وهذه الطريقة جمعت في نفسها ـ كما يقول سيد أمير علي[1] ـ كلا من النظام الديمقراطي ونظام الحكم المطلق في آن واحد مع تجردها من مزايا كل منهما، إذ كانت البيعة تتم بأية طريقة، سواء أكان ذلك بالوعيد أم بالوعود الخلابة، وأصبح الانتخاب شرعياً على أي حال. على أن هذا النظام أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين أفراد البيت الأموي وأوغر صدور بعضهم على بعض، فقام النزاع بينهم وتعدى ذلك إلى القواد والعمال، مما ساعد على سقوط الدولة الأموية.

ومع ذلك أبى معاوية الثاني أن يعهد لولده أو بعض آل بيته، بل ترك الأمر شورى للناس ليختاروا من أحبوا، فقال: (فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم)، وقال أيضاً: (وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم، فشأنكم وأمركم)[2].

---

(١) A Short Hist. of the Saracens. p. 185.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٦٤.

٥ ـ ألقاب الخليفة:

وكان أبو بكر يلقب بلقب خليفة رسول الله إذ كان يقوم مقام الرسول في حكم الدولة الإسلامية والمحافظة على الدين. وكان عمر يلقب بلقب خليفة خليفة رسول الله.

روى البلاذري أن بلال مؤذن الرسول كان يقف بباب الرسول ويقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة حي على الفلاح؛ الصلاة يا رسول الله! فلما ولي أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة حي على الفلاح! الصلاة يا خليفة رسول الله! وفي خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يردد هذه الكلمات مبتدئاً بقوله: السلام عليك يا خليفة رسول الله... الخ. ومنعاً لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكر، أمر عمر أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين، وأن تزاد عبارة رحمك الله على الأذان[١]، ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٢١٧ ـ ٢١٩): إن المؤذنين كانوا يختمون الأذان بعبارة (السلام عليك)، يعنون بذلك الخليفة أو أحد عماله. وظلت الحال على ذلك طوال عهد الأمويين وفي الصدر الأول من أيام العباسيين حتى تولى الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم. على أن الخلفاء تخلفوا عنها في أواخر أيام العباسيين لوقوعهم تحت سلطان الأتراك، فعدل الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم، وبطل استعمال هذه الكلمات، وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون الذين لم يقيموا الصلاة فلم تذكر هذه الكلمات إلا في أذان الفجر[٢].

وقد أورد صاحب كتاب «محاسن الملوك»[٣] عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر ما نصه: قال المغيرة لعمر رضي الله عنهما: يا خليفة الله! فقال عمر: ذاك نبي الله داود، قال: يا خليفة رسول الله! قال: ذاك صاحبكم المفقود، قال: يا خليفة خليفة رسول الله! قال: ذاك أمر يطول. قال: يا عمر! قال: لا تبخس مقامي شرفه، أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين، وبذلك كان عمر أول من تلقب بهذا اللقب الذي كان يتمشى مع عهد الفتوح، لما في ذلك اللفظ من معنى السلطتين الحربية والإدارية.

أما لفظ إمام فإن الأصل فيه مستعار من إمامة الصلاة، ولذا ترى الشيعة يستعملون هذا اللفظ، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوي قوى إلهية مقدسة، وقد ورد لفظ إمام في القرآن بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس، قال تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم

---

(١) ذكر المقريزي (خطط حـ ٢ ص ٢١٧) أن عثمان هو الذي أمر بإضافة هذه العبارة.

(٢) الماوردي الأحكام السلطانية ص ٩٦ ـ ٩٩.

(٣) ورقة ٢٥ ـ ٢٧، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، راجع كتاب التاج في أخلاق الملوك (طبعة أحمد زكي باشا) ص ٨٨ حاشية ٩ ص ٨٦ ـ ٨٨.

فعل الخيرات ﴾ [سورة الأنبياء ٢١ : ٢٣]، وكان النبي يؤم الناس في الصلاة باعتباره زعيماً للمسلمين. ولما مرض مرضه الأخير ندب أبا بكر ليصلي بالناس. وكانت إمامة أبي بكر للمسلمين في الصلاة نيابة عن النبي من أهم الأدلة التي استند إليها السنيون في أحقية أبي بكر بالخلافة بعد النبي. وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين في الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة، حتى أصبحت من أهم أعمال الولاة في الأمصار الإسلامية.

ب ـ الوزارة:

الوزير كلمة مشتقة من الوِزْر وهو الثقل، لأن الوزير يحمل أعباء الدولة، أو من الوَزر وهو الملجأ والمعتصم، بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره (الفخري ص ١٣٧). قال ابن خلدون في مقدمته (ص ٢٠٤): (اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه، فما ظنك بسياسة الرعية ومن استرعاه من خلقه وعباده؟ وقد طلب موسى من الله سبحانه وتعالى أن يمده برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم فقال: ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري﴾ [سورة طه ٢٠ : ٢٩ ـ ٣١].

والوزارة ليست من مستحدثات الإسلام، بل هي أقدم عهداً من ذلك؛ فقد عرفها الفرس وبنو إسرائيل وغيرهما من الأمم.

أما إذا أريد بالوزارة استعانة السلطان أو الأمير بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم، فهي تتصل بصدر الإسلام، لأن الرسول الكريم كان يشاور أصحابه في الأمور العامة والخاصة ويخص أبا بكر ببعض الأمور، حتى أن العرب الذين اختلطوا بالفرس والروم قبل الإسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم يسمون أبا بكر وزير النبي.

كذلك كان حال عمر مع أبي بكر، فقد كان يشرف على القضاء ويقوم بتوزيع الزكاة. وكذلك كان شأن عثمان وعلي مع عمر فإنه كان يستعين بهما ويستنير بآرائهما ويعهد إليهما في القيام بكثير من أمور الدولة والنظر في أحوال الرعية.

وكان علي يقوم بالقضاء بين الناس وبكتابة الرسائل وفداء أسرى المسلمين.

وكان هؤلاء الأعوان يعملون عمل الوزراء، وإن كان اسم الوزير لم يطلق عليهم، لأنه لم يكن معروفاً عند العرب في ذلك العصر، لبساطة الإسلام وبعده عن أبهة الملك[1]. وكان الخليفة يستعين في إدارة شؤون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦.

المدينة وشيوخ القبائل؛ وكان لا يقطع أمراً دونهم. لذلك كان نظام الحكم في ذلك العصر أقرب إلى النظام الجمهوري.

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية واستحالت إلى ملك وراثي اختار الخلفاء بعض ذوي الرأي ليستعينوا بآرائهم. فكان هؤلاء يقومون بعمل الوزراء وإن لم يلقبوا بلقب الوزير. ومع ذلك فإننا نجد زياد بن أبيه يلقب بلقب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك.

جـ - الكتابة:

ومن أكبر أعوان الخليفة (الكاتب)، وكان عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وسعيد بن العاص يكتبون القرآن ويحررون الكتب التي كان الرسول يرسلها إلى الملوك والأمراء[١].

ولما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له. واتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم؛ واتخذ عثمان مروان بن الحكم. وروى الجهشياري (ص ٢٣) أن علياً كرم الله وجهه قال لكاتبه عبد الله بن رافع: (يا عبد الله! ألق دواتك[٢]، وأطل شباة[٣] قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط[٤] بين الحروف).

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية تعدد الكتاب لتعدد مصالح الدولة، وأصبح الكتاب خمسة: كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضي. وكان كاتب الرسائل أهم هؤلاء الكتاب في الرتبة، وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين[٥].

ومن الكتاب الذين ذاع صيتهم زياد بن أبيه كاتب أبي موسى الأشعري، وسالم كاتب هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد.

د - الحجابة:

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم بل كانوا يخاطبون الناس على اختلافهم بلا حجاب. فلما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس، وتلافياً لازدحامهم على أبوابهم. وشغلهم عن النظر في مهام الدولة، وفي

---

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ - ١٤.
(٢) اجعل لها لبقة وهي خرقة توضع في المداد.
(٣) الشباء (بفتح الشين) برية القلم.
(٤) القرمطة: الدقة في الكتابة والتقريب بين الحروف.
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

ذلك يقول ابن خلدون:

(وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة. فلم يفعلوه. فلما انقلبت الخلافة إلى ملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه. كان أول شيء بدىء به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع لعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم بذلك وسموه الحاجب)[1].

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا هذه، وكان يشغل منصباً سامياً في البلاط، ومهنته إدخال الناس على الخليفة مراعياً في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم. ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا، فقد قال عبد الملك بن مروان لما ولى حاجبه: (لقد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه يراعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد).

كذلك أوصى عبد الملك أخاه عبد العزيز الذي ولي مصر من قبله (٦٥ ـ ٨٦ هـ) فقال: (أبسط بشرك، وآثر الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك. وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحدببابك إلاّ أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده)[1].

٢ ـ النظام الإداري

ظل النظام الإداري للحكومة الإسلامية في الجملة على ما كان عليه في بلاد الفرس والروم. فقد وجد العرب أن هذه الأمم التي بنوا حضارتهم على أنقاضها ذات تاريخ مجيد عريق في الحضارة والمدنية والنظم السياسية. فلم يكن بد إذن من قبول هذا النظام وإبقائه على ما كان عليه من قبل، ثم إحداث ما يتطلبه الإصلاح من التغيير الذي يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التي دانت للمسلمين.

وكان النظام الإداري في صدر الإسلام وفي عهد بني أمية نظاماً أولياً، فلم يتبع نظام توزيع الأعمال على الإدارات المختلفة واختصاص كل إدارة بأعمال معينة كما فعل العباسيون من بعد.

ولما ولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم وقال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال، وقال عمر: وأنا أكفيك القضاء. وكان أبو بكر يستشير أهل الرأي والفقه من أمثال عمر

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١١٥.

وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت.

وقد بقي النظام الإداري في الولايات الإسلامية وسار عليه الولاة دون أن يدخل عليه تغيير يستحق الذكر. فكان بمصر مثلاً المدير أو المحافظ، والمأمور، أو نائب المدير، والخولي أو المفتش الزراعي، وهم لا يختلفون حتى اليوم من حيث اختصاصاتهم عما كانوا عليه في عهد الرومان، اللهم إلا في الألفاظ الرومانية التي كانت تطلق على من كانوا يشغلون هذه المناصب قبل الفتح الاسلامي.

أ - الدواوين:

كان المسلمون يحاربون ابتغاء مرضاة الله لا يريدون على ذلك مالاً ولا جزاءً إلا من عند الله. وقد بذل بعضهم كثيراً من ماله في وجوه البر والإحسان. ولم يفرض لهم النبي ولا أبو بكر عطاءً مقرراً، ولكن جرت العادة أنهم إذا غزوا بلداً من البلاد أخذوا نصيبهم من الغنائم بحسب ما قررته الشريعة. وإذا ورد إلى المدينة شيء قسمه النبي عليهم في المسجد، وجرى الأمر على ذلك حتى كانت سنة ١٥ هـ. ولما توالت الفتوح الإسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الفرس، رأى عمر توزيع هذه الأموال على المسلمين مراعياً في ذلك مراتبهم ومبلغ استحقاقهم، ولكنه لم يعرف كيف يؤدي هذا العمل على أتم الوجوه، فأشار عليه أحد مرازبة الفرس بإدخال نظام الدواوين الذي سار عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخراجها.

والديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر[١]، وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان. يقول الماوردي[٢]: (والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال). ويقول الجهشياري[٣] عن سبب تدوين عمر الدواوين: (كان عمر أول من دوّن الدواوين من العرب في الإسلام، وكان السبب في ذلك أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال، فلقي عمر فقال له عمر: ماذا جئت به؟ قال: خمسمائة ألف درهم، فقال عمر: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف درهم ومائة ألف درهم ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، فقال عمر: أطيب هو؟(يريد أحلال هو؟) قال: لا أدري، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلناه كيلاً، وإن شئتم أن نعده عداً، فقام إليه رجل فقال: يا أمير

---

(١) ذكر ابن خلدون (مقدمة ص ٢١١) أن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحبسون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال: (ديوانه) أي مجانين بلغة الفرس، فسمي موضعهم بذلك، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات.

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٩١.

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٦ - ١٧.

المؤمنين! قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً لهم قال: دونوا الدواوين.

وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس. فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين! إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء. وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل، فتنبه عمر وقال: صفه لي، فوصفه المرزبان، فدون الدواوين وفرض العطاء[١].

وقد قيل إن عمر استشار المسلمين في تدوين الديوان فقال علي بن أبي طالب: (تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً)، وقال عثمان بن عفان: (أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا، حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر)، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: (وقد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً: فدون ديواناً وجند جنداً)، فأخذ بقوله، فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش، فقال لهم: (اكتبوا الناس على منازلهم). فبدءوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة. فلما نظر إليه عمر قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدءوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله[٢].

عامل عمر المسلمين وأهل الذمة على سواء معاملة قوامها العدالة المطلقة. يدل على صحة هذا القول ما حكي عن عمر حين عاب عليه قومه تأخير تدوين أنصبتهم في بيت المال وقالوا له: (أنت خليفة رسول الله ﷺ وخليفة أبي بكر، خليفة رسول الله ﷺ، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا، قال: بخ بخ بني عدي! أردتم الأكل على ظهري، وإني أهب حسناتي لكم. لا والله حتى تأتيكم الدعوة وأن يطبق عليكم الدفتر (يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس). إن لي صاحبين (يعني النبي وأبا بكر) سلكا طريقاً، فإن أنا خالفتهما خولف بي. والله ما أدركنا الفضل في الدنيا، وما نرجو الثواب على عملنا إلا بمحمد ﷺ. فهو شرفنا وقومه أشرف، ثم الأقرب فالأقرب. والله لئن جاءت الأعاجم بعمل جئنا بغير عمل، لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه. ابدءوا بقرابة النبي ﷺ: الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله تعالى)[٣].

ولما عزم عمر على تدوين الديوان في المحرم سنة ٢٠ هـ، (بدأ ببني هاشم في الدعوة، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ، فكان القوم إذا استووا في القرابة قدم أهل السابقة، ثم انتهوا إلى الأنصار فقالوا: بمن نبدأ؟ فقال: ابدءوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي من الأوس ثم

---

(١) الفخري ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

الأقرب فالأقرب لسعد وفرض عمر لأهل الديوان، ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض. وكان أبو بكر قد سوى بين الناس في القسم. فقيل لعمر في ذلك فقال: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه. فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، وفرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة حليفهم ومولاهم بالسواء، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر،ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد أحداً أربعة آلاف درهم لكل رجل، وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين إلا حسناً وحسيناً، فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول الله ﷺ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف لقرابته برسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فرض له سبعة آلاف درهم، وقال سائرهم: لم يفضل أحداً على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ فإنه فرض لهن اثني عشر ألفاً، وألحق بهن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي بن أخطب. وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم، وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين.. وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف.. ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً، فألحق من جاءه من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين ديناراً لكل رجل، وفرض لآخرين معهم، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة. ولم ينقص أحداً من ثلثمائة. وقال: لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألفاً لسفره، وألفاً لسلاحه، وألفاً يخلفه لأهله، وألفاً لفرسه ونعله. وفرض لنساء مهاجرات، فرض لصفية بنت عبد المطلب ستة آلاف درهم، ولأسماء بنت عميس ألف درهم، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم)[1].

على أن بعض المسلمين رأى أن تدوين الدواوين يجعل العرب يهملون التجارة التي كانوا يعتبرونها من أشرف المهن، فقال أبو سفيان بن حرب لعمر: أديوان مثل ديوان بني الأصفر؟ إنك إن فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة. فقال عمر: لا بد من هذا، فقد كثر فيء المسلمين.

استخدم عمر الكتاب في الدواوين، فرتبوا الناس طبقات كما تقدم، مبتدئين بالعباس عم النبي، ثم بني هاشم، ثم بمن بعدهم. وجرى الحال على ذلك مدة خلافته وخلافة عثمان الذي أدخل في أيامه تعديلاً يستحق الذكر (الفخري ص ٧٩ - ٨٠).

وأنشأ عمر ديوان الجند لتدوين أسماء الجند وما يخص كلاً منهم من العطاء، وديوان

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ١٦٢ - ١٦٣.

الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء، وانحصرت الأعمال الإدارية في عهد بني أمية في أربعة دواوين أو إدرات رئيسية هي: .

١ ـ ديوان الخراج.

٢ ـ ديوان الرسائل ويشرف صاحبه على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة.

٣ ـ ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة.

٤ ـ ديوان الخاتم وقد أنشأه معاوية بن أبي سفيان، وكان أكبر دواوين الدولة. ويقوم موظفوه بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان، كما هو الحال اليوم في قلم «الأرشيف» أو السجلات.

ويرجع السبب في إنشاء هذا الديوان إلى أن معاوية أحال رجلاً على زياد بن أبيه عامله على بلاد العراق بمائة ألف درهم، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب ـ وكانت توقيعاتهم تصدر غير مختومة ـ وجعل المائة مائتين. فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد وقال: (ما أحلته إلا بمائة ألف)، ثم استعاد المائة ألف من الرجل ووضع ديوان الخاتم، فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشتمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها في شيء (الفخري ص ١٠٢).

على أن ختم الرسائل والصكوك كان قبل ذلك. فقد روي أن النبي ﷺ لما أراد أن يكتب إلى هرقل امبراطور الروم، قيل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ الرسول خاتماً من فضة ونقش فيه «محمد رسول الله»، ثم ختم به أبو بكر وعمر وعثمان إلى أن سقط من يد عثمان في بئر أريس، فصنع آخر على مثاله.

وكان ديوان الخاتم يعد من الدواوين الكبرى منذ خلافة معاوية إلى أواسط عهد الدولة العباسية، ثم ألغي لتحول الأعمال إلى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم.

وكان بجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى أقل أهمية من هذه: منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة وما هو خاص بنفقات الجند.

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان فنقل، عبد الملك ديوان فارس والشام إلى العربية ونقل ابنه الوليد ديوان مصر إلى العربية.

ويقول سيد أمير علي: إن النظام الإداري والسياسي للولايات الإسلامية في عهد الدولة الأموية لم يكن من عمل معاوية؛ بل إن عبد الملك هو الذي وضع هذا النظام فقد صبغ الإدارة والمالية بالصبغة العربية، وبتحويله الدواوين إلى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب وقام الحجاج بن يوسف بتنفيذ سياسة عبد الملك.

ولما فتح المسلمون بلاد الفرس والروم واتسع ملكهم وعظمت دولتهم، اقتدوا بالأكاسرة والقياصرة، فاتخذوا الطراز عن الروم. لكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها في الإسلام، بل استعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وعبارات أخرى تجري مجرى الفأل والدعاء. وظلوا على ذلك إلى أيام عبد الملك، فنقله إلى العربية وبدأ بالقراطيس (ورق البردى)، وكانت تنسج بمصر وتنقش عليها عبارات مسيحية. وقد أمر عبد الملك بترجمة هذه العبارات إلى العربية. ولما عرف معناها قال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام، وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر، بإبطال هذا الطراز واستبدال تلك العبارات بإحدى الشهادتين (لا إله إلا الله)، ففعل. وظل هذا الطراز في سائر بلاد الدولة الإسلامية ولم يغير من جوهره شيء. كما كتب عبد الملك إلى عماله بإبطال القراطيس المطرزة بطراز الروم وإنزال العقاب بمن يخالف ذلك.

وقد بنى الخلفاء في قصورهم دواراً لنسيج أثوابهم، فكان يشرف عليها «صاحب الطراز»؛ فينظر في أمور الصياغ والحاكة، ويجري عليهم الأرزاق ويتفقد أعمالهم. وقد بلغت هذه الدور أوج عظمتها في عهد الدولتين الأموية والعباسية.

ولما حملت هذه القراطيس إلى بلاد الروم وعلم بها الامبراطور أنكر ما فيها، واستشاط غيظاً، فكتب إلى عبد الملك: إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم. فإن كان ما تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا، فاختر إحدى الحالتين وبعث إليه بهدية يسترضيه بها للرجوع إلى الطراز، فرد عبد الملك هديته وأخبر الرسول بأنه لا رد عنده، فأعاد إليها أضعافها وطلب الجواب. فلما لم يرد عليه غضب الامبراطور وبعث يهدده بنقش سب النبي على النقود، لذلك عول عبد الملك على ضرب العملة الإسلامية.

وكان إصلاح العملة من أهم الأعمال التي قام بها عبد الملك، وهي تدل على حسن سياسته وبعد نظره، إذ لم يكن في العربية عملة مقررة إلى ذلك الحين. وكان لكل ولاية دار ضرب خاصة بها تضرب بها العملة. على أنها لم تف بالغرض المطلوب لعدم ضبط معيار هذه النقود وظهور تزييفها[1]. وقد بنى عبد الملك داراً للضرب، وأمر بسحب العملة في جميع أنحاء الدولة وضرب بدلها عملة جديدة من الذهب والفضة. وكان يعاقب كل من يزيف العملة عقاباً صارماً.

وحذا الوليد حذو أبيه عبر الملك، فحول ديوان الخراج في مصر إلى العربية بعد أن كان

---

(١) Von Kremer: Orient Under the Caliphs. pp 199 - 200.

باليونانية التي كانت اللغة الرسمية في هذه البلاد إلى عهد الوليد بن عبد الملك (شوال ٨٦ - جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ). يؤيد ذلك أوراق البردى العربية ذات الصيغة الرسمية يرجع تاريخها إلى عهد الوليد، والتي دونت باليونانية والعربية معاً.

ولنأت بوصف بعض الوثائق نقلاً عن كتاب أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان[١]، ففي صفحة ٢١ نجد الطراز رقم ٥ المؤرخ (٩٠ - ٩٦ هـ). وهو عبارة عن كتاب من أهل كورة أشقوة (كوم أشقوه) إلى الأمير قرة بن شريك صاحب الخراج والصلاة في مصر.

ونجد في صفحة ٢٥ الطراز رقم ٩٥، وهو بمثابة مرسوم صادر من عبد الله بن عبد الملك بن مروان صاحب الخراج والصلاة في مصر (٨٦ - ٩٠ هـ)، وفيه بعد البسملة وعبارات التوحيد وذكر أمير المؤمنين الوليد (بن عبد الملك): هذا مما أمر به الأمير عبد الله بن عبد الملك في سنة ست وثمانين. وتدل هذه الوثيقة على أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين في دواوين الحكومة: الأولى على أنها اللغة الرسمية التي كانت تدون بها الأعمال في تلك الدواوين، والثانية لأنها لغة الحاكم العربي، وذلك لصدور هذه الوثيقة عن رجل له صفة رسمية، وهو والي مصر، وكذلك نجد في صفحة ٦٧ الطراز رقم ٦٧، وهو شبيه بهذا تماماً، غير أنه مؤرخ بسنة ٨٩ هـ.

وكذلك كانت الحال في الوثائق التي صدرت عن الوالي الذي حل محله في ولاية الصلاة والخراج في مصر وهو قرة بن شريك، فإنها بمثل هاتين الصيغتين وفي نفس هذه المسائل الرسمية[٢]. أضف إلى ذلك الطراز رقم ٦٨ وفيه نجد ثبتاً دونت فيه عدة أسماء أمام كل منها مقدار ما دفع. ولهذه الوثيقة أهمية كبيرة لتعلقها بمسألة الخراج مباشرة.

وقد يلاحظ في بعض أوراق البردى كتابات باللغة القبطية إلى جانب اللغتين اليونانية والعربية، وربما دعا ذلك إلى الاعتقاد بأن اللغة القبطية كانت لغة رسمية، ولكنا نستطيع أن ندفع هذا الاعتقاد بما نلاحظه على هذه الكتابات القبطية من أنها قد دونت في آخر الوثيقة[٣] أو في ظهرها مما يدل على أن هذه اللغة كانت في الدرجة الثالثة من الأهمية[٤]، ومن أن هذه

---

(١) انظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب.

(٢) انظر الطراز رقم ٢٨، ٢٩، ٦٠، ٦٥، ٦٩ ص ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤.

(٣) يقول جروهمان في إحدى هذه الأوراق: (.. وغرض الفراغ الذي بين السطر الأخير من الطراز والسطر الأول من الصك القبطي ٥ سم.. (ص ٦٣) ويقول في وصف الطراز رقم ٦ المؤرخ ٨٦-٩٦هـ)، وفي أسفل الطراز فراغ عرضه ١ و ٥ سم، وفي أسفله نص قبطي، وكذلك رقم ٣ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطي ومتن الطراز ٥ و ٦ سم.

(٤) كما في الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣، فإن به سطرين من متن قبطي كتبا في ظهر الطراز، وكذلك بالطراز رقم ٤ ص ٤٦ أربعة أسطر قبطية في ظهر الأصل.

الكتابات كلها قد دونت بحبر مخالف لحبر النص الأصلي للوثيقة[١]. كما نلاحظ أن هذه الكتابات القبطية يختلف موضوعها عن موضوع النص الأصلي اليوناني العربي، فموضوعها في الغالب من نوع واحد هو الصكوك كما وجد في الوثائق صكوك باليونانية[٢]. يضاف إلى ذلك كله أنه لم يعثر حتى الآن على وثيقة رسمية كتبت بالقبطية في العهد العربي.

ومما يدل على أن كتابة هذه الوثائق اليونانية والعربية كانت عامة لسكان مصر يخاطب بها اليونان والقبط وغيرهم، ما ورد بصفحة ٥٤ عن الطراز رقم ٣٠، حيث نجد ثبتاً على عمود ممتد ١١ سطراً يحتوي على أسماء من القبط.. ويرجع خطه اليوناني المنمق إلى القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي).

ب - الإمارة على البلدان:

كانت حكومة القبيلة عند العرب في العصر الجاهلي ديمقراطية، وكان شيخها يجمع رؤساء العشائر للتشاور والفصل في الأمور. ولم يكن للقبيلة قانون تسير على وفقه، بل كانت تحكم بما جرى عليه العرف الذي قام عندهم مقام القانون. فلما ظهر الإسلام أحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية، وأصبح المسلمون متساوين جميعاً. وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩: ١٣].

ولم تكن حكومة الرسول حكومة دينية فحسب، بل كانت حكومة سياسية أيضاً. فقد كان يقود الجيوش ويفصل في الخصومات ويجبي الأموال. ومن ثم جمع في يده السلطتين الدينية والسياسية معاً. على أن السلطة السياسية جاءت عرضاً، لأن الغرض الأول الذي بعث الرسول من أجله إنما كان نشر الدعوة إلى الإسلام.

ولما هاجر الرسول إلى المدينة وضع نظام الدولة الإسلامية على ما تقدم، وكان ينيب عمالاً على القبائل وعلى المدن. وكان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة في الحجاز واليمن عامل من قبله، يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة.

ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية. وقد فرض الرسول لعتاب بن أَسَيْد الذي ولاه مكة درهماً كل يوم؛ فكان هذا الراتب أول ما وضع من الرواتب للعمال. أما كبار الصحابة

---

(١) نظر وصف جروهمان للطراز رقم ٦، فإن أصله مكتوب بحبر بني مائل للسواد على حين كتبت السطور القبطية الملحقة به بحبر أسود. وكذلك الحال في الطراز رقم ٦١ ص ١٣ ثم في الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣. وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فإن لون الحبر في نصه الأصلي أسود ولونه في النص القبطي بني.

(٢) انظر الطراز رقم ٣١، ٤٨، ٥٠ ص ١٦، ١٧، ١٨ على الترتيب.

فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم وغيرها.

ولما ولي أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم. وقسمت بلاد العرب إلى عدة ولايات هي: مكة، والمدينة، والطائف، وصنعاء، وحضرموت، وخولان، وزبيد، ورمع[1]، والجندل، ونجران، وجرش، والبحرين.

ولما اتسعت الدولة العربية في عهد عمر، قسم البلاد أقساماً إدارية كبيرة ليسهل حكمها والإشراف عل موارد ثروتها: وهي ولاية الأهواز والبحرين، وولاية سجستان ومُكران وكرمان، وولاية طبرستان، وولاية خراسان، وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات: بلاد العراق وقد قسمها قسمين أحدهما حاضرته الكوفة والآخر حاضرته البصرة. وقسم بلاد الشام قسمين: أحدهما قاعدته حمص والثاني دمشق، وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته. وقسم إفريقية إلى ثلاث ولايات: مصر العليا ومصر السفلى وغربي مصر وصحراء ليبيا.

وقد عين عمر على هذه الولايات عمالاً أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي كان يجمع في يده السلطتين التنفيذية والقضائية. وكان أمراء الأقاليم يسمون عمالاً. ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة. وقد استعملت كلمة والي فيما بعد، وهذا يشعر بأن العامل قد أصبح له النفوذ والسلطان كما كانت الحال مع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ولي بلاد العراق من قبل عبد الملك بن مروان وابنه الوليد من بعده. كذلك أطلقت عليه كلمة أمير، وأن تطور هذا اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة.

كما أصبحت كلمة عامل في عهد بني أمية تطلق على رئيس الناحية الإدارية وكان حكام الولايات يلقبون بلقب أمير، ذلك اللقب الذي يطلق على أمراء البيت المالك. ولم تكن ثمة صلة بين لقب أمير ولقب عامل ولقب أمير الأمراء الذي أدخله الخلفاء العباسيون في سنة ٣٢٤ هـ، وتلقب به قائد القواد مؤنس الخادم الذي لم يعتبر نفسه أميراً قط. ثم جاء كافور الإخشيد فرضي بأن يلقب بلقب أستاذ.

وكان في كل إقليم عامل (أو وال أو أمير) يقوم بإمامة الناس في الصلاة والفصل في النزاع وقيادة الجند وجمع المال وما إلى ذلك. وكان عامل الخراج أهم هؤلاء العمال، وكان يعمل مع الوالي جنباً إلى جنب، هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى شؤون الدولة المالية. وكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالي مما أدى إلى تنازع السلطة وقيام المنافسة بينهما، الأمر الذي يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج، وكان عامل الخراج يعين من قبل الخليفة مباشرة، ولكن الأمير كان يتمتع بالسلطة المطلقة.

---

(١) بكسر أوله وفتح ثانيه وعين مهملة موضع باليمن، وقيل هو جبل.

وقد ذكر الطبري أسماء ولاة الأقاليم الإسلامية في عهد عمر (جـ ٥ ص ٤٢ ـ ٤٣) ثم عهد عثمان (جـ ٥ ص ١٤٨) الذي اتسعت رقعة الدولة في عهده كما يتبين ذلك من الثبت الآتي.

الولايات	العمال في عهد عمر	العمال في عهد عثمان
مكة	نافع بن الحارث الخزاعي	عبد الله الحضرمي
الطائف	سفيان بن عبد الله الثقفي	القاسم بن ربيعة الثقفي
صنعاء	يعلى بن منبه حليف بني نوفل	يعلى بن منبه
البصرة	أبو موسى الأشعري	عبد الله بن عامر
الكوفة	المغيرة بن شعبة	سعيد بن العاص
مصر	عمرو بن العاص	عبد الله بن سعد بن أبي سرح
البحرين	عثمان بن أبي العاص	عبد الله بن قيس الفزاري
الشام	(دمشق) معاوية بن أبي سفيان	معاوية بن أبي سفيان
حمص	عمير بن سعد	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد
الأردن		الأعور بن سفيان
فلسطين		علقمة بن حكيم الكناني
قنسرين		حبيب بن سلمة
قرقيسيا		جرير بن عبد الله
أذربيجان		الأشعث بن قيس
حلوان		عتبة بن النهاس
همذان		النسير
الري		سعيد بن قيس
أصبهان		السائب بن الأقرع
ماسبذان		حبيش

وعمر أول من وضع النظام السياسي للدولة الإسلامية ونظم إدارتها. وكانت سياسته ترمي إلى تماسك بلاد العرب وإدخال القبائل بعضها في بعض لتكون أمة واحدة هي الأمة العربية. وكانت سياسته ترمي إلى عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد التي فتحوها حتى لا تضيع قوميتهم، يقول سيد أمير علي (ص ٥٧): (لو أن عمر عاش أطول مما عاش لاستطاع بما وهبه الله من قوة الشكيمة والشخصية البارزة أن يقوي من شأن الوحدة العربية ويحول دون قيام هذه الحروب الأهلية الطاحنة التي هددت كيان الإسلام).

وقد اختار عمر الولاة من العرب، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين.

روى الطبري (٥ : ٢٠)، أن عمر خطب الناس يوماً فقال: أيها الناس! إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم (جلودكم) ولا ليأخذوا أعشاركم (أموالكم)، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه. فوثب عمرو بن العاص وقال: رأيتك يا أمير المؤمنين إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه؟ قال عمر: أي والذي نفس عمر بيده لأُقَصِّنَّه[١] منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ثم بين لعمرو ما يخشاه على الرعية من عنف الأمراء وظلم الولاة فقال: «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تُجَمِّروهم[٢] فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم». ناهيك بما فعله عمر بولد عمرو بن العاص وبجبلة بن الأيهم حين حكم بالقصاص لكل منهما لواحد من السوقة.

وكان عمر يسأل الرعية إذا وفدت عليه في موسم الحج أو غير موسمه عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم، روي عن الأسود بن أبي يزيد قال: كان الوفد إذا قدموا على عمر، سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم، فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم! فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عزله[٣].

وكان عمر لا يولي عاملاً إلا إذا كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذوناً (حماراً)، ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس[٤].

وكان عمر يتفقد أحوال الرعية بنفسه، ويطوف في الأسواق وهو يقرأ القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم. بل لقد عزم على الطواف في الولايات الإسلامية ليقف بنفسه على أحوال الرعية فيها. فقد روي أنه قال: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن الناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ، وأما هم فلا يصلون إليّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا[٥].

---

(١) بضم القاف وفتح الصاد والنون مع التشديد.

(٢) أي لا تتركوا الجنود في بلاد الأعداء زمناً طويلاً بعيدين عن أهلهم.

(٣) الطبري جـ ٥ ص ٢٣.

(٤) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٢١.

(٥) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٢٠.

كما رسم عثمان السياسة يسير عليها عماله في الأقاليم في هذه العبارة التي رواها الطبري (٥: ٤٤) في حوادث سنة ٢٤ هـ. فقد كتب إلى عماله: (أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة. وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة. وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم. ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

والإمارة على البلدان نوعان: إمارة عامة، وإمارة خاصة. فالعامة نوعان: إمارة استكفاء بعقد عن اختيار، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار. وتشمل الإمارة عن اختيار سبعة أمور أوردها الماوردي[1] كما يلي:

١ ـ النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم.
٢ ـ النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.
٣ ـ جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منهما.
٤ ـ حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل.
٥ ـ إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين.
٦ ـ الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.
٧ ـ تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معاونين عليه.

(فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس).

أما الإمارة عن اضطرار فهي التي يأخذها الوالي ويقرها الخليفة، وفيها يكون الوالي مستبداً بالسياسة والتدبير. ولكن المسائل المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة، ولا يمكنه أن يغض النظر عن بدعة أو إهمال.

وأما عن الإمارة الخاصة فيقول الماوردي: (يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة[2] والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات).

وكانت إمارة العمال على إماراتهم في العهد الأول عامة، ثم رؤي أن تخصص. فكانت

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٨ وما يليها.

(٢) البيضة: المجتمع وموضع السلطان ومستقر الدعوة.

إمرة عمرو بن العاص على مصر عامة، إذ كان يقود الجيوش ويقضي في الخصومات ويجبي الأموال. ثم عين عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج. وبذلك أصبحت ولاية عمرو خاصة بعد أن كانت عامة. وبعد قليل تقلد قضاء مصر قاض للفصل في الخصومات، فصارت سلطة الوالي مقصورة على قيادة الجيش وإمامة الصلاة[1].

وقد بلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك.

ويقول سيد أمير علي (ص ١٩٠): إن هناك نقصاً تطرق إلى النظام الإداري في عهد بني أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد. وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الإقامة في حواضر ولاياتهم. أما في عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط الذين كانوا يقيمون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالاً يحكمون الولايات نيابة عنهم.

وكانت الولاية عامة للخليفة على جميع بلاد الدولة الإسلامية. ومن ثم كان من حقه تعيين القضاة والولاة ليحكموا هذه البلاد باسمه. وكان الخليفة يستعين في إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين، منهم: عامل الخراج أو صاحب بيت المال، والقاضي، والقائد، وصاحب الشرطة، على حين عين عمر عمالاً للصلاة لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين.

وقد بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها في عهد الأمويين، وكانت تنقسم إلى خمس ولايات كبرى هي:

١ ـ الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.

٢ ـ مصر بقسميها السفلى والعليا.

٣ ـ العراقان: العربي (بلاد بابل وآشور القديمة)، والعجمي (بلاد الفرس نفسها)، وعمان والبحرين وكرمان وسجستان، وكابل وخراسان، وبلاد ما وراء النهر والسند، وبعض أجزاء بلاد البنجاب؛ وكانت كل هذه الأقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها والي العراق وحاضرته الكوفة. ويلي خراسان وبلاد ما وراء النهر عامل من قبل والي العراق مركزه مدينة مرو عادة، وكانت بلاد البحرين وعمان تحت إشراف عامل البصرة من قبل والي العراق، ويلي بلاد السند والبنجاب عامل آخر من قبل والي العراق.

٤ ـ بلاد الجزيرة وتتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض بلاد آسيا الصغرى.

٥ ـ والولاية الخامسة هي أهم هذه الولايات، وتشمل كل إفريقية الشمالية حتى غربي

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة: القاهرة ١٩٦٢) ص ١٥٣ ـ ١٦٢.

مصر، وبلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار، ومركزها القيروان، وقد أناب والي إفريقية ولاة من قبله لحكم طنجة وجزر البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأندلس[١].

جـ - البريد:

البريد في الاصطلاح هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن. فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى المكان الآخر، وقد تعب فرسه، ركب غيره فرساً مستريحاً، فإذا وصل إلى المكان الآخر ركب غيره فرساً آخر، وهكذا حتى يصل إلى المكان النهائي. وأما معناه اللغوي فهو مسافة معلومة قدرت باثني عشرة ميلاً، وقدره الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. وكان يطلق على الرسول «بريد»، وقد قيل إن لفظ بريد عربي، وقيل إنه فارسي معرب وأن أصله بالفارسية «بريد دم» أي مقصوص الذَّنَب، لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز عن غيره من الدواب الأخرى. وكان البريد يطلق على الرسول، وكانوا يضعون البريد في أماكن معينة لحفظ الأموال وسرعة وصول الأخبار[٢].

وقد أدخل نظام البريد في أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم. على أن مقاديره أو مسافته كانت متفاوتة. وقد أدخل نظام البريد في الإسلام في عهد معاوية بن أبي سفيان، ثم أدخل عليه عبد الملك بن مروان عدة تحسينات، وبذلك أصبح أداة هامة في إدارة شؤون الدولة. وبلغ من اهتمامه بالبريد أنه أوصى صاحبه أن لا يمنع عامل البريد من الدخول عليه ليلاً أو نهاراً لأن عدم دخوله ساعة قد يفسد أعمال الولاية سنة كاملة[٣].

د - الشرطة:

والشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين، وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم. وقد سموا بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها.

وكان عمر أول من أدخل نظام العسكر في الليل. وفي عهد علي بن أبي طالب نظمت الشرطة، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة. وكان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر، لأنه يتولى رياسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن.

---

(١) ameer Ali, pp. 187 - 188.

(٢) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر، تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية، ويتولى صاحبها إقامة الحدود. ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، واستقل صاحب الشرطة بالنظر في الجرائم.

وقد أدخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) نظام الأحداث، وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد[١].

ولما فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ كانت الشرطة في مدينة الفسطاط، ولما أسس صالح ابن علي العباسي مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ، أنشئت فيها داراً أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين:

١ ـ الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط.

٢ ـ الشرطة العليا ومقرها العسكر، وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر يقع شمالي الفسطاط، ومن ثم سميت الشرطة العليا[٢].

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى وشرطة صغرى، وقد بين ابن خلدون[٣] اختصاص كل من الشرطتين. فقال: إنها انقسمت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وإنه جعل لصاحب الشرطة الكبرى الحكم على الخاصة من ذوي النفوذ والجاه واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان رَجُل[٤] يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تشريفه.

٣ ـ النظام المالي

أ ـ موارد بيت المال:

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ نشأتها، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه للمصالح العامة للمسلمين. وهو بهذا يشبه وزارة المالية في العصر الحاضر،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٥

(٣) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٠١٦ وما عليها خط المؤلف.

(٤) كذا في المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون

وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية.

والمال الوارد لبيت مال المسلمين: إما أن يكون ضريبة عن الأرض أو عن أشياء أخرى غير الأرض كنصيبه من الفيء والغنائم والركاز، وكجزية الرؤوس التي يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم، والعشر الذي يدفعه المشركون عن متاجرهم وسفنهم التي تدخل بلاد المسلمين وموانيهم، ويسمى العشور. كما كانت ترد إلى بيت المال التي لم يعلم لها مستحق، كاللقطة وتركة من لا وارث له، والأموال التي يصالح عليها المسلمون أعداءهم ونحو ذلك. ويجمل بنا أن نأتي بكلمة عن كل مورد من هذه الموارد التي تمد بيت المال بالأموال.

١ ـ **الخراج**: والخراج هو مقدار معين من المال أو الحاصلات، ويفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين **ووقفها** على مصالح المسلمين بعد أن يعوض المحاربين عن نصيبهم فيها أو يسترضيهم كما فعل عمر بن الخطاب. ويؤخذ عن الأرض التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت مال المسلمين.

وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأراضي لا يفرض عليها الخراج، وإنما يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها وغلاتها، وتسمى الأرض العشرية. وقد ذكر الماوردي[1] هذه الأنواع فقال:

١ ـ الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب، فهذه كانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج.

٢ ـ الأرض التي ملكها المسلمون عنوة إذا قسمها الخليفة على الفاتحين، فهذه تعتبر أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج.

٣ ـ الأرض التي كانت تؤخذ من المشركين عنوة، وهذه تعتبر غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون عنها العشر من غلتها، وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج.

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما صنع عمر بن الخطاب في أرض السواد[2]، وإما حصة معينة مما خرج من الأرض. ويطلق على ذلك المعاملة أو المزارعة،

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣١.

(٢) روي أن السواد لما فتح في رمن عمر بن الخطاب شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون فأراد قوم قسمتها، فقال عمر: فكيف بمن يأتي من المسلمين بعدكم فيجدون الأرض قد اقتسمت ودونت؟ وبعد مناقشات كثيرة جمع عمر الناس وحطبهم خطبة جاء فيها: قد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع فيها الخرج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، فوافقوه على ذلك وقد طلبوا إليه أن يقسم أرض الشام كما قسم الرسول خيبر فقال عمر: إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم: وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين.

كما عامل النبي أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض قليلاً كان أو كثيراً.

وقد مسحت أرض السواد في زمن عمر بن الخطاب فبلغت ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريباً. فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرص من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب، وبلغ ما جبي من خراج العراق في عهد عمر ١٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم، متوسط جناية الجريب ٣,٥٥ درهم. فإذا كان الفدان يساوي ٣,٥ من الأجربة فتكون ضريبة الفدان المنزرع قمحاً ١٤ درهماً.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخراج، فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التي فرضت على أهل الذمة، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض. وكل منهما يخالف ما جرى به عرف الرواة الذين تحدثوا عن مقدار الخراج في الولايات. فهم يعنون بالخراج المال الذي يأتي من إحدى ناحيتين: الأولى الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أو جزية الرؤوس، الثانية ضرائب الأطيان، لذلك اختلف المؤرخون في تقدير الخراج[1].

ولم يكن الخراج إيراداً ثانياً للدولة، إذ كانت ضريبة الأطيان تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وتحسين وسائل الري، كما أن جزية الرؤوس كانت تتناقص بالتوالي لدخول أهل الولايات الإسلامبة في الإسلام.

وقد تناول الماوردي الكلام على الخراج فقال: (فأما الخراج فهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها، وفيه من نص الكتاب بينة خالفت نص الجزية، فلذلك كان موقوفاً على اجتهاد الأئمة). وقال في موضع آخر: والأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام: أحدها ما استأنف المسلمون إحياءه فهو أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج، والقسم الثاني ما أسلم عليه أربابه فهم أحق به، فتكون على مذهب الشافعي أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج، والقسم الثالث ما ملك عن المشركون عنوة وقهراً، فيكون على مذهب الشافعي رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها. وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج، والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهي الأرض المختصة بوضع الخراج عليها.

وكذلك يقول (ص ١٣٢): وأما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون فتنقسم ثلاثة أقسام: أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء، فقد اختلف الفقهاء في حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها: فذهب الشافعي إلى أنها تكون غنيمة كالأموال، وتقسم بين الفاتحة إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتوقف على مصالح المسلمين، وقال مالك: تصير وقفاً

---

(١) ذيل التاريخ المجموع على التحقيق لأوتيخا أو سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م).

على المسلمين حين غنمت، ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين. وقال أبو حنيفة: للإمام فيها الخيار بين قسمتها بين الفاتحين فتكون أرضاً عشرية أو يعيدها إلى أيدي المشركين بخراج يضربه عليها فتكون أرض خراج.

وكان الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاة والقواد لجباية الخراج، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المصالح العامة، ويرسلون الباقي إلى بيت المال ليصرف فيما خصص له.

وذكر أبو يوسف في كتابه الخراج الصفات التي تتوافر فيمن يتولى جباية الخراج فقال: إنه يجب أن يكون فقيهاً، عالماً، مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم.

وعلى الجملة، فقد كان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح لم يشتد فيه الولاة في جمع الجزية، وكانت الضرائب المفروضة على الأرض تقدر على حسب مساحة الأرض ومبلغ جودتها ونوع المحصول ولم تكن تدفع كلها نقداً بل كان بعضها يدفع عيناً. وقد عني الولاة بأمر الري لضمان جباية الخراج، فعنوا بمراقبة السدود وإنشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها وكريها (أو تطهيرها). وكانت الضريبة تخفض إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

كان هناك نظامان لجباية الخراج: نظام المقاسمة، ونظام الالتزام. ففي النظام الأول ترى الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً. وبلغ من شدة مراقبة عمر لعماله أن كان يحصي أموالهم قبل توليتهم، فإذا انتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده إلى بيت المال، إلا إذا اتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة.

وأما نظام الالتزام أو الإقطاع فإنه يرجع إلى عهد الرسول، فقد أقطع أناساً من مزينة أو جهينة أرضاً بقصد تعميرها فلم يعمروها، وجاء آخرون فعمروها؛ فاختصم الجهنيون والمزنيون إلى عمر بن الخطاب فقال: (من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها). وأقطع عثمان بن عفان عبد الله بن مسعود النهرين، وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز.

ويقول المقريزي (خطط جـ ١ ص ٦٧): إن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يقطعون أرض مصر لنفر من خواصهم، ومن خراج مصر تصرف أعطيات الجند وما تتطلبه مرافق الدولة وما بقي يرسل إلى بيت المال، وما أقطع من الأراضي يبقى بيد من آل إليه.

وقد ذكر الماوردي[١] نوعي الإقطاع فقال إنه ضربان: إقطاع استغلال وإقطاع تمليك. والثاني ينقسم إلى موات وعامر، والثاني ضربان: أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام. فإن كانت في دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام المقطع ليتملكها.

وقد أوضح الأستاذ جروهمان[٢] طريقة كراء أرض الدولة أو قبالة (كفالة) الأراضي فقال: «إن ذلك كان يحصل على طريقة المزاد على يد متولي خراج مصر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط حيث ينادي على الأرض جزءاً (أو كورة)، ويعطى لمن يرسو عليه المزاد لمدة أربع سنوات». وفي ذلك يقول المقريزي[٣]: «إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما انتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس. وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ أو الاستبجار وغير ذلك. فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمنها إلى ناحيته، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك، ويجعل ما عليه من الخراج في إبانه على أقساط، ويحسب له من مبلغ قبالته، وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة في الخراج. ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين».

وبلغ مقدار خراج السواد في عهد عمر بن الخطاب ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي عهد ولاية عبيد الله بن زياد ١٣٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وعهد الحجاج بن يوسف ١٨٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي عهد عمر بن عبد العزيز ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي عهد عمر بن هبيرة ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، سوى طعام الجند وأرزاق المقاتلة، وفي عهد يوسف بن عمر ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم كان يحمل منها إلى دار الخلافة مبلغاً يتراوح بين ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وينفق على من معه من جند الشام ١٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وعلى البريد ٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وعلى الطوارىء ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الأحداث والعواتق ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

وبلغ خراج بلاد الشام في عهد عبد الملك بن مروان ١,٧٣٠,٠٠٠ دينار منها

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) AR. Pap. Vol. II. pp. 64 - 65.

(٣) خطط جـ ١ ص ٨٢.

١٨٠,٠٠٠ من الأردن ، ٣٥٠,٠٠٠ من فلسطين، و٤٠٠,٠٠٠ من دمشق، و٨٠٠,٠٠٠ من حمص وقنسرين والعواصم[١] .

أما عن خراج مصر فيقول ابن عبد الحكم[٢]: «حدثنا عبد الملك بن مسلمة قال: لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط من راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ، ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ على دينارين ، فأحصوا ذلك ، فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف » .

ونحن نشك في صحة هذا التقدير لأنه لو حسبت جزية الرؤوس وحدها بناء على هذا التقدير، لبلغ مقدارها ١٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار مع أن عمراً جباها ١٢,٠٠٠,٠٠٠ . ورب قائل يقول: إن الأربعة ملايين الباقية قد استبقاها عمر لجنده، ولما قد يقوم به من الإصلاحات. ومع ذلك فقد أهملنا حساب جزية الأرض كفاء ما يتفق على مصر من وجوه الإصلاح. فصحة التقدير ٦,٠٠٠,٠٠٠ إذ أن متوسط عدد سكان مصر في أيام الخلفاء الراشدين والأمويين يتراوح بين ١٥,٠٠٠,٠٠٠ ،و١٨,٠٠٠,٠٠٠ . وهذا التقدير يتناسب مع ما قدره المؤرخ ملن في كتابه مصر تحت حكم الرومان من أن عدد سكان مصر لم يقل في أيام الخلفاء الراشدين عن عددهم في أيام البيزنطيين، إذ لم تكن هناك حروب ولا مجاعات ولا أوبئة[٣].

وبلغ خراج مصر في عهد عمرو بن العاص ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار. ولكن الخليفة عمر لم يقنع بهذا القدر وعجب من أن مصر لم تؤد نصف ما كانت تؤديه قبل الإسلام، إذ نمى إليه أن خراجها بلغ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد المقوقس، بل قيل إنه بلغ ٢٤,٤٠٠,٠٠٠ دينار.

وكانت مساحة الأرض المزروعة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تقرب من ٦,٠٠٠,٠٠٠ فدان. وكان المصريون يزرعون ثلثي هذه المساحة قمحاً وشعيراً. وإذا كان خراج الفدان الواحد سبع كيلات كان محصول الأرض:

$$\frac{٧ \text{ كيلات} \times ٤ \text{ أفدنة}}{١٢} = ٢,٣٣٣,٣٣٣ \text{ أردباً}.$$

فإذا حسبنا ضريبة الأرض على أساس ٢٪ بيع نصيب الدولة من هذا الإيراد

$$\frac{٢ \times ٢,٣٣٣,٣٣٣}{١٠٠} = ٤,٦٦٦,٦٦٦ \text{ أردباً} .$$

من ذلك يتضح أن ضريبة الأرض كانت بنسبة ٢٪. وفي ذلك يقول اليعقوبي[٤]: «في

---

(١) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٧٥ .

(٢) كتاب فتوح مصر ص ٥٦ .

(٣) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٩ ص ١٦٦ ـ ١٧٧ .

هذه السنة فتح عمرو بن العاص الإسكندرية وسائر أعمال مصر واجتباها ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار من خراج رؤوسهم لكل رأس دينار، وخراج غلتهم من مائة أردب أردبان. وبلغ خراج مصر في عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار، ثم أخذ الخراج يتناقص حتى بلغ في عهد ولاية أسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ) ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وبلغ في عهد ولاية عبيد الله بن الحبحاب في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار[1]. ويرجع هذا النقص إلى كثرة دخول المصريين في الإسلام وانصراف الولاة عن العناية بشؤون الري.

وصفوة القول إن خراج العراق بلغ في عهد الدولة الأموية ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وخراج مصر ٣٦,٠٠٠,٠٠٠، والشام ٢٠,٠٠٠,٠٠٠، فيكون مجموع خراج هذه البلاد ١٨٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، عدا خراج سائر البلاد الإسلامية التي لم يعرف مقدار خراجها بالضبط.

٢ ـ **العشور**: يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحرب (أي بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) فيأخذون منهم العشر. فكتب عمر: خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين درهماً من كل أربعين درهماً، ولا تأخذ منهم فيما دون المائتين شيئاً، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم.

وقد نص الشرع على أخذ العشر من سلع تجار الكفار التي يقدمون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام إذا شرط ذلك عليهم. وقد أفتى الشافعي بأن للإمام أن يزيد عن العشر وأن ينقص منه إلى نصف العشر، وأن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة، ولا يزيد أحد العشر على مرة من كل قادم في التجارة في السنة الواحدة ولو تكرر قدومه. وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى.

٣ ـ **الزكاة**: الزكاة والصدقة شيء واحد من أزكى الشيء يزكيه إذا نماه، أو من زكاه تزكية إذا طهره. وإنما سميت بذلك للإشارة إلى أن إخراج شيء من مال الإنسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه. وأيضاً لأن إحراج شيء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة. قال تعالى: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم ﴾[1]. وهي كل ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع بين

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٦١ .

فقرائهم. وكان للصدقة ديوان خاص بها في دار الخلافة له فروع في سائر الولايات. فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر (٢,٥٪) عما يمتلكونه من المال. وهذه هي زكاة النقد أو النقدين (الذهب والفضة).

أما زكاة السوائم وهي الإبل والغنم ويلتحق بها العنز، فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق إلى مائة، ثم يبتدىء من ١٠١ إلى ٢٠٠ بمقدار واحدة في كل مائة. والإبل عن كل خمس شاة إلى أربع وعشرين، فإن كانت خمساً وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أو أقل). والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة بنت سنة. فإذا بلغ العدد ستين كانت بمقدار واحدة بنت سنتين، والخيل إذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها. كل ذلك إذا كانت الحيوانات تأكل من الكلأ المباح، فإن علفها صاحبها فلا زكاة فيها، وإذا دخلت في التجارة فتقوم ويدفع عنها زكاة النجارة[١].

أما زكاة عروض التجارة فهي: ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة، وأن يحول عليها الحول.

وزكاة المعدن والركاز، وهو مال وجد تحت الأرض سواء كان معدناً خلقه الله تعالى بدون أن يضعه أحد فيها أو كان كنزاً دفنه الكفار. فقد قال الحسن البصري فيه: ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس، وماكان في أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر[٢].

وأما زكاة الزرع والثمار فيجب فيها العشر إذا كانت خارجة عن أرض تسقى بالمطر أو السيح[٣]، ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها، وأن يكون الخارج منها مما يقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها[٤].

وكانت الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين في قوله تعالى: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ [سورة التوبة ٩: ٦٠].

٤ - **الجزية**: ومن موارد بيت المال الجزية وهي مبلغ معين من المال يدفعه من توافرت فيه شروط خاصة، وهي تشبه الخراج في أن كلاً منهما جزء من الفيء يجيء في أوقات معينة من كل سنة، ولكنهما يختلفان في أن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالإسلام، وفي أنها

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٠٨ - ١١٧.

(٢) راجع كتاب صحيح البخاري.

(٣) الماء الذي يسيح على الأرض من المصارف وغيرها.

(٤) راجع الجامع لأحكام القرآن جـ ٧ ص ٩٩، والفقه على المذاهب الأربعة، وصحيح البخاري.

قد ثبتت بنص الكتاب الكريم: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد (أي عن قدرة) وهم صاغرون ﴾ [سورة التوبة ٩: ٢٩] (أي قابلون أن تجري عليهم أحكام الإسلام). وأما الخراج فهو على الأرض، ولا يسقط بإسلام المالك، والخراج إنما ثبت بالاجتهاد.

وإنما وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان، وهما رعية لدولة واحدة في المسؤولية، كما تكافآ في التمتع بالحقوق وتساويا في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة «إذ ليس في مواشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة». والرجال والنساء في ذلك (أي في عدم دفعهم الزكاة عن مواشيهم وغيرها) سواء؛ فليست الجزية ديناً على الذمي يستوفى منه بالوسائل التي تستوفى بها الديون. فمن وجبت عليه الجزية وتوفي أو أسلم قبل دفعها لم تؤخذ من تركته ولم يطالب بها ورثته[1].

وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع، ولا تؤخذ من مسكين يُتصدق عليه، ولا ممن لا قدرة له على العمل، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوي العاهات، ولا من أحد من المترهبين في الأديرة وأهل الصوامع إلا إن كان غنياً.

ويلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين لم يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين، وأنه أعفى منها الأشخاص الذين يعفيهم من القتال. وفي ذلك يقول الماوردي[2]: «واسمها مشتق من الجزاء، فيجب على أولي الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا (يستقروا) بها في دار الإسلام ويلتزم لهم ببذلها بحقين: أحدهما الكف عنهم. والثاني الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين».

أما مقدار الجزية فقد قسمها أبو حنيفة ثلاثة أقسام:

١ ـ أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً.

٢ ـ ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً.

٣ ـ وفقراء يكتسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهماً.

أما جباية الجزية فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الإسلام بالرفق والإنصاف في جبايتها من أهل الكتاب وصيانة أرواحهم وأموالهم من عبث الجباة والولاة. وتقضي القاعدة الفقهية أو

---

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٦٩ ـ ٧٢.

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٣٧.

دستور الإسلام فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعيها بأنه «لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية « أي لحملهم على أدائها »، ولا يقامون في الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » .

والأخبار الواردة في معاملة المسلمين أهل الكتاب في صدر الإسلام كثيرة تشهد بروح العدل والرفق والشعور النبيل نحوهم. روى أبو يوسف عن أبي ظبيان قال: «كنا مع سلمان الفارسي في غزاة، فمر رجل وقد جنى فاكهة، فجعل يقسمها بين أصحابه، فمر بسلمان فسبه، فرد على سلمان وهو لا يعرفه. فقيل له: هذا سلمان، فرجع فجعل يعتذر إليه ثم قال له الرجل ما يحل لنا من أهل الذمة يا أبا عبد الله؟ قال: ثلاث من عماك إلى هداك، ومن فقرك إلى غناك، وإذا صحبت الصاحب منهم تأكل طعامه ويأكل طعامك، ويركب دابتك وتركب دابته في أن لا تصرفه عن وجه يريده » .

وروي أن عمر بن الخطاب مر على باب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عمر عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن! فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل[1]. ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه (أشباهه). فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبه ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين، وهذا من مساكين أهل الكتاب، ووضع الجزية عنه وعن ضربائه[2].

وهذا أبو يوسف قاضي الرشيد يكتب إليه والدولة العباسية في أوج عزها وسلطانها وبطشها فيقول: قد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ، والتفقد نهم حتى لا يجحفوا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عند وفاته: أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

وروي عن نافع عن ابن عمر أنه قال: كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أنه قال: «احفظوني في ذمتي»[3]، وعن ابن عباس قال: ليس في أموال أهل الذمة إلا العفو.

---

(١) اي أعطاه شيئاً ليس بالكثير .

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٧٠.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٣٧.

٥ ـ الفيء والغنيمة : والفيء هو مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل أو ركاب[١].

وكان للنبي ﷺ خمس الفيء يقسم خمسة أسهم متساوية : كل سهم منها لأربابه عملاً بقوله تعالى: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾[٢]. وبعد موت الرسول رد نصيبه إلى بيت المال. وأما أربعة الأخماس الباقية فكانت تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند.

والغنيمة هي كل ما أصابه المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال. وتشتمل على أربعة أقسام: هي الأسرى والسبي والأرضون والأموال: فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون في الأسر. والسبي هم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين، فلا يجوز قتالهم وإنما يقسمون في جملة الغنائم. وإن كان النساء من غير أهل الذمة أو ممن ليس لهن كتاب ـ كالدهرية وعبدة الأوثان ـ وامتنعن عن الإسلام يقتلن أو يسترققن، ويجوز قبول الفدية عنهن، فإن فودي بهم أسرى من المسلمين في أيدي قومهم عوض الغانمون عنهم من سهم المصالح (بفتح اللام الثانية)، وكذلك في حالة المنّ عليهن. يدل على هذا ما فعله الرسول مع هوازن حينما لقوه مستعطفين! فقد قسم السبي على الجيش. وكانت الأرض التي تؤخذ في الحرب عنوة يخرج أهلها منها لأنها غنيمة كالأموال. واختلفوا في كيفية تصرف الإمام فيها: هل يحبسها لمصالح المسلمين؟ أم يقسمها على المحاربين؟ فالشافعي يرى تقسيمها كما فعل أبو بكر. وقال مالك: إنها تصير وقفاً كما فعل عمر، وقال أبو حنيفة بالخيار بين قسمتها أو وقفها.

وأما الأموال المنقولة، وهي ما يمكن نقله كالماشية والمال، فكانت تقسم بين المقاتلة، وكذلك الحال بالنسبة للأسلاب كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم، وكان الرسول يقسمها حسبما يرى.

ولما اختلف الصحابة في تقسيم غنائم بدر شرح القرآن طريقة قسمها في هذه الآية: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء، فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [سورة الأنفال ٨: ٤١]. فكان للإمام مع من ذكر في الآية الخمس وصارت الأربعة الأخماس الباقية حقاً للفاتحين[٣].

---

(١) الإيجاف: سرعة السير، والركاب: الإبل التي يسافر عليها لا واحد لها من لفظها، أي لم يعدوا في تحصيله خيلاً ولا إبلاً بل حصل بلا قتال.

(٢) سورة الحشر ٥٩: ٧.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

الضرائب في عهد بني أمية :

زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين. فلم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التي قررها أسلافهم بل جاوزوا حدودها وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر: أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً، فكتب إليه وردان: كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم؟ وكانت الحال كذلك في سائر الولايات الإسلامية، فقد صادر أحد إخوة الحجاج أملاك الأهالي ببلاد اليمن، وأثار حنقهم وسخطهم بفرضه عليهم ضريبة معينة (وظيفة) ، عدا العشر الذي قرره الإسلام[١] .

وفي عهد عبد الملك عمل في خراسان إحصاء جديد للسكان عامة، وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة. وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير على ما كانت عليه من قبل[٢] . وكذلك كانت الحال في العراق حيث كانت تزيد الضرائب الاستثنائية في عبء ما كان يثقل كاهل الأهلين من الضرائب المقررة .

وقد بيّن فون كريمر[٣] كيف استطاع الحجاج أن يرغم حديثي العهد بالإسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار، وما تلا ذلك من المقاومة العنيفة التي قاوموه بها. وانضمامهم إلى صفوف عبد الرحمن بن الأشعث الذي أشعل نار الثورة على بني أمية.

وروى مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة التي كانت ترمي إلى العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه من قبل. فقد أجمع هؤلاء على القول بأن بلاد العراق كانت بعد الحجاج أسوأ البلاد حالاً. من ذلك ما ذكره اليعقوبي[٤]: (وكان (الحجاج) أول من أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال، وانكسر الخراج في أيامه، فلم يحمل كثير شيء، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم)، وكان خراجها في عهد معاوية ١٢٠ مليوناً من الدراهم. على أنه لا يجب ألا يغيب عن الذهن أن عصر الحجاج كان مليئاً بكثير من حروب الخوارج التي استنفذت أموال العراق.

على أن الحجاج، وإن كان قد قسا في معاملة الموالي خاصة وأهل العراق عامة، كان مخلصاً في خدمة بني أمية زهاء عشرين سنة حتى مات في عهد الوليد بن عبد الملك، ولم يترك وراءه غير القرآن وسلاحه وبضع مئين من العملة الفضية.

وقد أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج أن لا يأخذوا من الأهالي من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً، وهو ما أمر به عمر بن الخطاب، ورأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٧٣.

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٢٣.

(٣) Orient Under the Caliphs, p. 208 .

(٤) جـ ٢ ص ٣٤٨ وما يليها.

أثقل وزناً من تلك الدراهم التي فرضها عمر بن الخطاب مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الأهالي.

ب ـ مصارف بيت المال:

وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة على حسب ما يراه الإمام، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، ولا يصرف للولاة ولا للقضاة شيء من أموال الصدقة، بخلاف والي الصدقة فإن رزقه يصرف منها. وكانت زيادة أرزاق القضاة والولاة ونقصها من حق الإمام، ومنه تدفع أعطيات الجند، وهي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات خاصة. وكانت في أيام النبي ﷺ غير محدودة ولا معينة، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة، وما يرد من خراج الأرض التي بقيت في أيدي أهلها كما كانت تقسم بينهم.

ولما ولي أبو بكر الخلافة سوى بينهم في العطاء قائلاً: (هذا معاش، فالأسوة فيه خير من الأثرة). ولما ولي عمر جعل العطاء بحسب السبق إلى الإسلام. وبقيت أعطيات الجند تقسم على هذا النحو في عهد الخلفاء الراشدين. فلما احتاج معاوية وهو وال على بلاد الشام إلى استنجاد العرب زاد في أعطيات جنده الذي بلغ ستين ألفاً، انفق عليهم ستين مليون درهم في السنة. فلما توطدت دعائم الأمويين نقصوا ذلك المبلغ الضخم إلى أقل من النصف.

وكان ينفق من بيت المال على كري الترع الكبيرة، والمجاري التي تأخذ من الأنهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، وعلى حفر الترع للزراعة وغيرها. أضف إلى ذلك النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم[1]، وعلى شراء المعدات الحربية، وإعطاء العطايا والمنح للأدباء والعلماء.

ولا يفوتنا أن نذكر أن النظام الذي أقره عمر كان يفرض لكل مسلم دون اسمه في دواوين الحكومة رواتب سنوية كفاء خدماته الحربية، عدا ما كان يمنحه من الأجر (فريضة) لأبنائه، لا فرق في ذلك بين العرب والموالي.

على أن هناك أمراً آخر جديراً بالملاحظة، هو أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً في عهد هذا الخليفة. لذلك أصبح العطاء وقفاً على الدهاقين، وهم كبار ملاك الأراضي من الفرس الذين ساعدوا العرب في فتوحاتهم. وبذلك نستطيع أن نعلل ما ذهب إليه البلاذري[2] من أن العرب

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٩٤ ـ ١٩٦.

(٢) فتوح البلدان ص ٤٦١.

في ذلك الوقت لم يكن يحفظهم أن يقاسمهم غيرهم من الذين دخلوا الإسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم. وقد ذكر اليعقوبي[١] أن علياً وحده هو الذي تمسك بالقواعد القديمة، ولا نعلم إلى أي حد اتبع الأمويون الطريقة التي وضعها عمر للأعطيات السنوية.

وكان الأمويون على جانب كبير من الحكمة وبعد النظر، فقد عملوا على تلافي ما عسى أن يجره عليهم ذلك النظام الذي كان يقضي بنقص عطاء رعاياهم من العرب عن القدر الذي فرضه لهم عمر بن الخطاب. وقد أجحف مؤرخو الغرب في الحكم على هذه الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز والتي كان الغرض منها القضاء على ما قام به في سبيل انتشار الإسلام من العقبات، وذلك بمنحه الموالي الحقوق التي كان يستمتع بها المسلمون من العرب وحدهم، وإعفائهم من الجزية التي كان يدفعها الكفار، ثم مقاسمتهم إخوانهم المسلمين من العرب نصيبهم من الأعطيات السنوية[٢].

وعلى الرغم من ذلك، ينبغي أن يتورع المؤرخ عن القسوة في الحكم على تلك الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز. ويقول فان فلوتن: ومن العدل أن أطالب الذين يشايعون الحجاج بن يوسف على ذلك الخليفة المصلح بالإجابة عن هذين السؤالين:

١ ـ ألم يكن خيراً للأمويين أنفسهم مساواتهم جميع العناصر في الحقوق: تلك السياسة التي لا يبعد أن يكون عدم الأخذ بها هو السبب الأول في سقوط دولتهم؟.

٢ ـ وإذا لم تكن تلك المساواة في مصلحة خلفاء بني أمية، ألم تكن من مصلحة الإسلام نفسه؟ ليس ثمة أحد كائناً من كان يستطيع أن يشك في صحة هذه الملاحظة الثانية فإن النظام العسكري الذي وضعه عمر بن الخطاب لم يعد يلائم حال الأمة العربية في ذلك الحين.

وكان عمر بن عبد العزيز أول من فطن من خلفاء بني أمية إلى أن وقت التفرغ للإصلاحات الداخلية قد آن، كما اقتنع بذلك عمر بن الخطاب من قبل، حتى أن ذلك قد حال دون القيام بفتوحات جديدة، وكانت سياسة عمر تقوم على المحافظة على الدين والتمسك الشديد بالنظام الذي سنه جده عمر بن الخطاب. فقد كان يكنّ لجده في أعماق نفسه الاحترام والإكبار، برغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولاً تاماً. فقد كان لزاماً أن تحد الحكومة أعمالاً جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين في الولايات الإسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال.

ولا غرو فقد كانت السياسة التي سار عليها عمر بن عبد العزيز تحول دون ملكية الجند للأرض، على حين كانت الحال تقضي بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها، كما كانت تسخو

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢١٣.

(٢) Von. Kremer, Vol. I. p. 174.

في منح الأعطيات حتى للموالي من المسلمين، في الوقت الذي كانت فيه مالية البلاد تتطلب إلغاء تلك الأعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم. وهكذا حال ذلك التصرف الذي أنضب موارد الدولة دون نجاح تلك السياسة التي كانت ترمي إلى الإصلاح وإعفاء الجدد في الإسلام من الجزية.

٤ ـ النظام الحربي

أ ـ الجيش:

لما جاء الإسلام ألف بين قلوب العرب الذين أخذوا يدافعون عنه بالنفس والنفيس، فيلبون دعوة الرسول أو الخليفة، ويقاتلون في سبيل الله ونصرة الدين. وكان عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة، فأنشأ ديوان الجند للإشراف عليهم، بتقييد أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم، وكان القتال في عهد عمر يقوم على العاطفة الدينية والرغبة في نشر الإسلام.

ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام وفلسطين ومصر، أقام الجند في هذه الأمصار في معسكرات خاصة بهم، وانصرفوا إلى الزراعة وتكوين الثروة وامتلاك العقار الثابت، وبذلك انصرفوا عن الجندية وفترت الروح العسكرية فيهم، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم أن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق أسراتهم.

وإلى عمر يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل، ولا يرتاحون إلا في أكواخ مصنوعة من سعف النخل. ومن ثم بنيت «العواصم» وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة. وكان عدد جند العرب عند فتحهم حصن بابليون يتراوح بين ١٢,٠٠٠، ١٥,٦٠٠، ١٦,٠٠٠. ولما جاء عثمان وحدثت في عهده الفتنة التي أدت إلى انقسام المسلمين، أصبح القتال في سبيل الدفاع عن الرأي وليس في سبيل نشر الدين كما كانت الحال في أيام عمر.

وقد أكمل الأمويون ما بدأه عمر في نظام الجندية، ولكن لما استقر الأمر لهم قعد المسلمون عن الحرب وانصرفوا عن القتال، فأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجباري. وقيل إن عدد جند العرب بلغ في عهد معاوية ٤٠ ألفاً من الجنود المرتزقة والمتطوعة.

وكان الجيش في عهد عبد الملك بن مروان يتكون من العنصر العربي. لأن الدولة الأموية كانت ـ على ما نعلم ـ عربية لحماً ودماً. وظلت الحال على ذلك حتى توسع الأمويون في فتوحهم، وضموا شمال إفريقية وبلاد الأندلس فاستعانوا بالبربر في الجيش.

وكان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة، وكان هؤلاء يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح، وأولئك يتسلحون بالدروع والسيوف والقسي والسهام. وكان العرب في الجاهلية يستعملون هذه الأسلحة، لأنهم كانوا يحملون بها أغراضهم ويستجلبون معايشهم، وخصوصاً القسي التي مهروا في الرمي بها لحدة أبصارهم وحاجتهم إليها في الصيد، وبلغ من مهارتهم في الرمي بالقوس أن الرامي كان يستطيع أن يرمي إحدى عيني الغزال دون الأخرى.

فلما جاء الإسلام ساعدتهم مهارتهم في استعمال القسي على قهر الروم الذين لم يكونوا يحسنون الرمي بها. لذلك كان قادة المسلمين يدربون جنودهم على إتقان الرمي بالنبال. وكان النبي يقول: «ارموا واركبوا، وأن تركبوا أحب إليّ من أن ترموا». وفي القرآن الكريم: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾. وكان الرسول يقول وهو على المنبر بعد أن يتلو هذه الآية: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي».

ولما سار الرسول إلى الطائف مطارداً فلول ثقيف الذين اعتصموا بحصونهم ورموا المسلمين بالنبال من فوقها. اضطر الرسول أن يرميهم بالمنجنيق. روي أن الرسول كان أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق[1]، وهو أداة تُرمى بها الحجارة على الأعداء، ويتركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب تعمل منها القاعدة وفوقها القائمتان على الجانبين، وتتصل هاتان القائمتان بعرضة، ثم يركب على هذه العرضة سهم يُراعَى في وضعه أن يكون أحد طرفيه قصيراً والآخر طويلاً، وتثقل الجهة القصيرة حتى يصير وضع السهم رأسياً. وفي الجهة الطويلة تركب الكفة التي يوضع فيها الحجر المعد للقذف بعد أن يجذب حتى يجعل عاليه أسفلاً، وعندئذ يُخلى السهم فينطلق الحجر نحو الهدف، كذلك سير إليهم الرسول الدبابات، وهي من آلات الحرب. وكان المحاربون يدخلون في جوفها ويدفعونها إلى جدران الحصن فينقبونه وهم في داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من قبل العدو. وكذلك استعمل الرسول الضبور وهي كالدبابة تقريباً تصنع من الخشب المغطى بالجلد، ويكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن فيقاتلون أهله وهم فيها، وهي أشبه بالسيارات المصفحة اليوم.

وكذلك الرجالة يقفون في صفوف متزاحمة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان. وكان جناحا الجيش يتألفان من الفرسان عادة. ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم في ميادين القتال إلى أسلحتهم وحدها، بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والمثابرة والصبر على تحمل الشدائد. وإذا أضفنا إلى هذه الصفات ما امتازوا به من الحماس وبذل النفس في نصرة الدين، أمكننا أن نهتدي إلى سر ذلك الفوز الذي أحرزه العرب في

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٣٠٣.

حروبهم، وكانت الدولة العربية تسخو في تموين الجند وإمدادهم بما يحتاجون إليه من الزاد والسلاح.

وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور، ويرتدي الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى ما تحت الركبة، وسراويل ونعالاً تشبه النعال التي يلبسها أهل بلاد الأفغان اليوم.

وكانوا يكبرون ويتلون الآيات القرآنية في أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفي أثناء اشتباكهم في المعارك الحربية.

وكانت النساء يصحبن الجيش، ويخصص لهن أماكن في المدن الحصينة ويقرعن الطبول لإثارة الحماسة في نفوس الجند.

وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالي البلاد المفتوحة بسوء. ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر. وكان الجندي لا يقيم في خدمة الجيش أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيداً عن أسرته[1].

وكانت وحدات الجيش من القبائل العربية؛ وكان النبي ﷺ يقود الجيش بنفسه أحياناً. ولما تطورت الأحوال وتعددت الجيوش في البلدان المختلفة، أصبح من الصعب على الخلفاء أن يقوموا بهذه المهنة، فكانوا يختارون أصلح الناس لقيادتها من أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص والمثنى بن حارثة.

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه لأنه يعتبر نائبه. فقد كان ينوب عنه في إقامة الصلاة وإذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس، فيصبح هذا القائد بمثابة (قائد القواد) وإذا انتهى الفتح أصبحت مهمة القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم. وكان ديوان الجند الذي استحدثه عمر ابن الخطاب أكبر مساعد على تحسين نظام الجندية وضبطه في الإسلام.

وإلى القواد العرب يرجع الفضل في تنظيم طريقة القتال؛ فقد كان العرب في الجاهلية يتبعون طريقة الكر والفر فيكرون على العدو، وإذا آنسوا في أنفسهم ضعفاً فروا، ثم عادوا فكروا، وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام.

غير أن قواد المسلمين لم يطمئنوا إلى الطريقة ورأوا أنها لا تكفل لهم النصر ولا تصلح لقتال الجنود المنظمة. وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [سورة الصف ٦١: ٤]. وأخذ المسلمون في عهد النبي يقفون للقتال

---

(١) Ameer Aly, pp 54 -55.

صفوفاً كما يفعلون في الصلاة، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامنين، ليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه.

وفي عهد الأمويين اختلط العرب كثيراً بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة، أي تقسيم الجيش إلى خمس كتائب. ولذلك كانوا يسمون الجيش كله خميساً، تكون إحداها في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى (قلب الجيش)، وإلى يمينها واحدة تسمى (الميمنة)، وأخرى إلى يسارها تسمى (الميسرة)، ثم تكون أمامها كتيبة ـ من الفرسان في الغالب ـ وتسمى (المقدمة)، وخلفها كتيبة تسمى (ساقة الجيش)، ولذلك تركوا نظام الصفوف.

وتتضح لنا طريقة العرب في تسيير الجيوش ونظامها في كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبي وقاص حيث يقول: (وترفق بالمسلمين في سيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم. ونحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيء، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً. ولا تنتصر على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض عدوك، فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من نطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عين لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القوة. واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد. ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك اكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية. فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعالجهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك...).

ب ـ البحرية:

لم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية في صدر الإسلام لبداوتهم وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله. وكان أول من ركب البحر العلاء بن الحضرمي والي البحرين في عهد عمر، فقد توجه لغزو بلاد فارس في اثني عشر ألفاً من المسلمين من غير إذن الخليفة،

وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها بلاد الفرس. فلما علم عمر بذلك، وكان يكره ركوب البحر، غضب على العلاء وعزله.

ولما فتحت الشام شاهد العرب سفن الروم، فتطلعت أنفسهم إلى مجاراة أعدائهم، وألح معاوية على عمر في أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً لقربها منه، فطلب الخليفة عمر من عمرو ابن العاص والي مصر أن يصف له البحر وراكبه، فكتب إليه عمرو: (يا أمير المؤمنين! إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب؛ وإن ثار أزاغ العقول. يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة. هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق). فلماجاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية يردعه عن ركوب البحر قائلاً: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً.

وقد علل ابن خلدون[1] سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر فقال: (والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته. فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشواني[2]، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغرهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس).

ولما ولي عثمان الخلافة أعاد عليه معاوية الكرة في غزو الروم بحراً، فأذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً؛ فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس، فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة. كما حارب عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر من قبل عثمان قسطنطين بن هرقل في بحر الروم، وانتصر عليه في موقعة ذات السواري التي اشتبك فيها ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين. وفي هذه السنة أيضاً فتح العرب جزيرة قبرص، كما جردو حملة لغزو بلاد الدولة البيزنطية.

ومن ذلك الحين أخذت الحملات تتوالى على تلك البلاد. ولما ولي معاوية الخلافة عني بإنشاء السفن الحربية لصد غارات الدولة البيزنطية على البلاد الإسلامية، ورتب لغزوها الشواتي والصوائف، ووضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بينه وبينهم شتاء وصيفاً. وبلغ أسطول

---

(١) مقدمة ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

(٢) جمع شونة، وهي المركب المعد للجهاد في البحر.

الشام ١٧٠٠ سفينة. وفي عهد معاويه غزا عقبه بن عامر الفهري جزيرة رودس، وفي سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس في عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ)، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص. ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن، فانشئت لأول مرة (٥٤ هـ) دار الصناعة لبنائها في جزيرة الروضة[١].

أما أن العرب كانوا في الأصل مدينين للبيزنطيين في هذه الناحية من الفنون الحربية، فهو أمر لا سبيل إلى إنكاره. إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة، وإن كانوا قد تتلمذوا للبيزنطيين في تلك الناحية فترة من الزمن، أصبحوا فيما بعد أساتذة أوربا في هذه الفنون، يدلنا على ذلك أن بعض الإصلاحات البحرية المستعملة في أوربا لا تزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم[٢].

٥ - النظام القضائي

أ - القضاء:

وجدت نواة القضاء عند العرب في الجاهلية. فلما جاء الإسلام تولى الرسول الفصل في الخصومات، كما يتبين ذلك من الحلف الذي عقد بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين، وقد جاء في هذا الحلف: (وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله)[٣].

كان عليه الصلاة والسلام قاضياً كما كان للشريعة مبلغاً، ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه، إذ كانت الأمة لا تزال على بساطتها وضيق رقعتها، ثم لقلة عدد القضايا المرفوعة إليه. ولم يؤثر عنه أنه عين في بلد من البلدان رجلاً اختص بالقضاء بين المسلمين. بل كان يعهد بذلك إلى بعض الولاة ضمن ولايتهم أمور الولاية، وتارة يعهد إلى أحد أصحابه بفض بعض الخصومات.

وكان الرسول يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحي. وكان المتخاصمان يحضران إليه مختارين فيسمع كلام كل منهما. وكانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود والكتابة والفراسة والقرعة وغيرها، كان الرسول يقول: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر». والبينة في الشرع اسم لما يبين الحق ويظهره، بمعنى أن المدعي ملزم بإظهار ما يبين صحة دعواه، فإذا أظهر صدقه بإحدى الطرق حكم له. وكان الرسول يقول: «أمرت أن

---

(١) المقريزي خطط جـ ٢ ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) Hell. Die Kultur det Araber, p. 72.

(٣) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٤ - ٩٨.

أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر».

وكان عليه السلام لا يحابي أحداً من المتخاصمين. فقد أثر عنه أنه قال: «إذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء». وروى مسلم أنه قال: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر).

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد، كما أذن للبعض الآخر بالفتيا، وممن اشتهر بالفتيا من الصحابة في عهد الرسول مائة وواحد وثلاثون رجلاً وامرأة، نبغ منهم سبعة هم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والسيدة عائشة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس.

ولم يكن السجن بمعناه المعروف الآن موجوداً في زمن الرسول ولا في عهد أبي بكر، وإنما استحدث في عهد عمر بن الخطاب، إذ كان الحبس لا يتعدى في عهد الرسول منع المتهم من الاختلاط بغيره، وذلك بوضعه في بيت أو مسجد، وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه له. فلم يكن السجن إذن مكاناً يحبس فيه المجرم كما كانت عليه الحال في عهد عمر ومن جاء بعده من الخلفاء.

ولما ولي أبو بكر الخلافة أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان لما عرف به من الشدة والحزم. على أن عمر لم يتلقب بلقب قاض في خلافة أبي بكر.

ولما انتشر الإسلام في عهد عمر واختلط العرب بغيرهم من الأمم، دعت حالة المدينة الجديدة إلى إدخال نظام تشريعي لفض المشاكل التي تنشأ بين الأفراد من العرب وغيرهم، وقضى هذا النظام بتعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في فض هذه المشاكل طبقاً لأحكام القرآن والسنة والقياس. والسنة ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير. ويقصد بالقياس أن القاضي إذا عرضت عليه قضية لم يجد فيها حكماً منصوصاً عليه في القرآن الكريم ولا في سنة رسول الله ولم يكن قد صدر فيها حكم بإجماع من الصحابة، بحث عن مشكلة تشبه المشاكل التي بين يديه يكون قد صدر فيها حكم من القرآن أو السنة أو الإجماع، وهو اتفاق مجتهدي الأمة في عصر من العصور على أي حكم من الأحكام، بشرط أن يكون له مستند من الكتاب والسنة، هذا يكفي من غير تعرف المستند. وفي ذلك يقول الماوردي (ص ٦٣) في كلامه عن الشروط التي يجب أن تتوافر في القاضي: (والرابع - عمله بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها، حتى يجد طريقاً إلى العلم بأحكام

النوازل وتمييز الحق من الباطل).

كان عمر أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية، وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة أو الوالي إذا كانت ولايته عامة، بمعنى أن تكون له الولاية على الخراج والصلاة معاً. فولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وولى شريح بن الحارث الكندي قضاء الكوفة، كما ولى أبا موسى الأشعري قضاة البصرة، وولى عثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر، وجعل قضاء الشام قضاءً مستقلاً.

ومن الثابت أن شريح بن الحارث الكندي كان قاضي الكوفة في عهد عمر، وأن أبا موسى الأشعري تولى قضاء البصرة من قبل عمر أيضاً، وهذا يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من أن عمر أرسل هذا الكتاب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على قضاء الكوفة، لأنه لم ينقلد ولاية الكوفة إلا في خلافة عثمان بن عفان[١].

وقد سن عمر لهؤلاء القضاة دستوراً يسيرون على هديه في الأحكام، ويعتبر هذا الكتاب أساس علم المرافعات في القضاء، وبعث بهذا الكتاب إلى أبي موسى الأشعري وإلى غيره من القضاة وهاك نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس[٢]، سلام عليك! أما بعد فالقضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة. فافهم إذا أدلى إليك[٣]، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. وليس بين الناس[٤] في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك[٥] ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق. فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج[٦] في صدرك. مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً في شهادة زور أو ظنيناً (متهماً) في ولاء أو قرابة. فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات، وإياك والقلق والضجر والتأذي للناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب

---

(١) راجع الطبري جـ ٤ ص ٢٥٣.

(٢) هو اسم أبي موسى الأشعري.

(٣) أي رفع لك الأمر وجيء به إليك.

(٤) أي أعدل وساو

(٥) الحيف: الظلم والجور

(٦) التلجلج: التردد في الكلام.

الله بها الأجر ويحسن بها الذخر، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شأنه)[١].

كان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين مستقلاً محترم الجانب، وكان يراعى في اختيار القاضي غزارة العلم والتقوى والورع والعدل. وكان القاضي يحكم في بعض الأحيان بحسب ما يوحي إليه اجتهاده، بمعنى أنه إذا سئل في واقعة وقعت بالفعل أخذ من النصوص الواردة في الكتاب والسنة والحكم المراد تطبيقه. فإن لم يكن في الواقعة نص من الكتاب والسنة اجتهد برأيه وقاس الأمور بأشباهها. ومن ثم أصبح الاجتهاد (أو الرأي أو القياس) مبدأ يعتد به في الأحكام القضائية في العصور التالية، وأصبحت تبنى عليه أكثر الأحكام.

ولم يكن للقاضي كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام، لأنها كانت تنفذ على أثر البت فيها، وكان القاضي يقوم بتنفيذها بنفسه، كما كان القاضي يجلس للحكم في منزله أولاً، ثم أصبح يجلس في المسجد ليفصل في الخصومات.

وقد تميز القضاء في عهد بني أمية بميزتين:

الأولى ـ أن القاضي كان يحكم بما يوجبه إليه اجتهاده، إذا لم تكن المذاهب الأربعة التي تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد. فكان القاضي في هذا العصر يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنة أو الإجماع أو يجتهد في الحكم اجتهاداً.

الثانية ـ أن القضاء لم يكن متأثراً بالسياسة، إذ كان القضاة مستقلين في أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة، وكانوا مطلقي التصرف وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج.

كما كان القضاة في العصر الأموي من خيرة الناس، يخشون الله ويحكمون بين الناس بالعدل. وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين في أحكامهم، كان الخليفة يقرب أحكامهم ويعزل من يشذ منهم عن الطريق السوي. حكى الكندي[٢] أن هشام بن عبد الملك بلغه أن يحيى بن ميمون الحضرمي لم ينصف يتيماً احتكم إليه بعد بلوغه، فكتب إلى عامله على مصر يقول: (اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً، وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً سليماً من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم).

ومن هذه العبارة نتبين الصفات التي كان يجب أن تتوافر في القاضي في ذلك العصر. قال عمر بن عبد العزيز: (إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علم كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم عن الخصم، واقتداء الأئمة، ومشاركة أهل العلم والرأي).

---

(١) سنن الدارقطني. البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٢٢.

(٢) كتاب القضاة ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

وفي ذلك العهد ظهرت الحاجة إلى وجود سجلات تدون فيها الأحكام التي يصدرها القضاة، ولم يعرف هذا في عهد الخلفاء الراشدين. إلا أن تناكر الخصوم أدى إلى إدخال هذا النظام، فوجدت السجلات. قال الكندي: كان سليم بن عنز قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان؛ فاختصم إليه في ميراث، فقضى بين الورثة ولكنهم تناكروا ورجعوا إليه، فقضى. وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند، فكان بذلك أول قاض في العهد الأموي سجل أحكامه.

ب ـ الحسبة:

وكانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم: فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفي الجنايات أحياناً مما يحتاج الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب.

وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين: فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل[1].

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بعمل المحتسب، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي. (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد رؤي عمر يضرب جمالاً ويقول له: (حملت جملك ما لا يطيق). فالمحتسب إذن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحافظ على الآداب والفضيلة، وينظر في مراعاة أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق. ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، ويستوفي الديون، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف[2]، ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين، وقد أجمل ابن خلدون (مقدمة ص ١٩٦) أعمال المحتسب في هذه العبارة فقال:

(ويبحث عن المنكرات، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦١ ـ ٧٢.

(٢) وكان لها دار خاصة: فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة. ومعهم موازينهم وصنوجهم ومكاييلهم فيعايرها. فإن وجد فيها خللاً صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها. وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية. المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

من الإكثار من الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[١]، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها، وفي المكاييل والموازين، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم. وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء. وقد كان في كثير من الدول الإسلامية، مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره).

أما في الأندلس فكان يتولى الحسبة في كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق. وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة، ويختار من بين القضاة، لأن عمله مرتبط بالقضاء. وقد حدد المقري[٢] سلطة المحتسب في الأندلس، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأوا بعيداً من الدقة، حتى إنْ أثمان الحاجيات كانت محدودة، وأن الإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً، وأن المحتسبين (كان لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لأنها عندهم تدخل في جميع البياعات).

جـ - المظالم:

وكانت هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي والمحتسب، هي سلطة قاضي المظالم. ولا غرو فقد كانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا في هذا العصر، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضي عن تنفيذ حكمه في قضية رجل من علية القوم.

وقد دعت الحالة إلى إنشاء محكمة المظالم لوقف تعدي ذوي الجاه والحسب. ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع.

وقد نظر الرسول في الشرب الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار فحضره بنفسه وقال للزبير: أسبق أنت يا زبير ثم الأنصاري، فقال الأنصاري: إنه لابن عمك يا

---

(١) طلب رد عدوان الغير برفع قضية ونحو ذلك؟.

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

رسول الله، فغضب الرسول من قوله وقال: «يا زبير أجره على بطنه حتى يبلغ الماء إلى الكعبين». وإنما أمر بذلك تأديباً له. ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين، لأن الناس كانوا في صدر الإسلام بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم إلا علياً كرم الله وجهه، فإنه احتاج إلى النظر فيها. على أنه لم يفرد لسماع المظالم يوماً معيناً أو ساعة معينة، وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصفه، ثم أفرد الخلفاء الأمويون يوماً خاصاً للنظر في أحوال المتظلمين وتصفح قصصهم. وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان. لكنه كان إذا وقف منها على مشكل إحتاج فيه إلى حكم رده إلى قاضيه ابن إدريس الأزدي، فكان ابن إدريس المباشر وعبد الملك الآمر. وهذا يدل دلالة واضحة على حسن تصرف عبد الملك وعدالته واحتياطه في أمور المسلمين.

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنه. وكان صاحب المظالم يعين يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين لكي يتفرغ لأعماله الأخرى بقية الأسبوع، إلا إذا كان من عمال المظالم المنفردين بها فيكون له النظر في جميع الأيام. وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد كغيرها من المحاكم التي يعقدها القضاة. ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات مختلفة لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم.

١ ـ الحماة والأعوان، وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى القوة والعنف أو الفرار من وجه القضاء.

٢ ـ القضاة والحكام، ومهنتهم الإشارة على صاحب المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق إلى أصحابها وإعلامه بما يجري بين الخصوم لإلمامهم بشتى الأمور الخاصة بالمتقاضين.

٣ ـ الفقهاء، وإليهم يرجع قاضي المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية.

٤ ـ الكتاب، ويقومون بتدوين ما يجري بين الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق.

٥ ـ الشهود، ومهنتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضي من الأحكام مما لا ينافي الحق والعدل.

ومن اختصاصات قاضي المظالم النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا حادوا عن طريق العدل والإنصاف، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة، والنظر في تظلم المرتزقة إذا أنقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها إليهم. وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته والتأثير في الخصم حتى يعترف بالحق (فإذا اعترف حكم عليه باعترافه)، ومن اختصاصه كذلك تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام، ومراعاة إقامة

العبادات كالجمع والأعياد والحج والجهاد)[1].

ومن هذا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة، كما نقف على ما كان عليه النظام القضائي من الدقة والإتقان. هذا إذا راعينا أن هذا النظام الذي ساد منذ نيف وعشرة قرون لا يقل كثيراً عن مثيله في الوقت الحاضر. على أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخوف إذ روعي في اختيار قاضي المظالم أن يكون رجلاً مشهوداً له بالورع والتقوى لا تأخذه في الله لومة لائم.

رواتب القضاة: وكان راتب القاضي لا يقل ـ على ما هو معروف من المصادر التاريخية ـ عن عشرة دنانير كل شهر، وبلغ بعد ذلك سبعة دنانير في اليوم حتى لا ينظر القاضي بعد ذلك إلى شيء، وكان يضاف إلى القضاء أحياناً أعمال أخرى كالقصص، وبيت المال، والمظالم، فيتقاضى القضاة ما خصص لكل وظيفة من هذه الوظائف مما أدى إلى ضخامة راتبه.

وقد فرض عمر بن الخطاب لشريح قاضيه على الكوفة مائة درهم في كل شهر مع مؤنته من الحنطة، وزاد راتب القاضي في الدولة الأموية تبعاً لزيادة موارد الدولة. قيل إن عبد الرحمن ابن حجيرة قاضي مصر(٦٩ ـ ٨٣ هـ) كان يتناول ألف دينار في العام: مائتين عن القضاء، ومائتين عن القصص، ومائتين عن بيت المال. وكان عطاؤه مائتي دينار، وجائزته مائتين. لكن معظم القضاة لم يتناولوا في عهد عمر بن عبد العزيز راتباً أصلاً، لأنه كان يرى أن القاضي لا يجوز له أن يتناول راتباً كفاء قيامه بهذه الخدمة الدينية. وبلغ راتب القاضي في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية عشرة دنانير في كل شهر، كما ثبت من براءة عثر عليها في ديوان مروان كانت قد صدرت إلى خازن بيت المال بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه الشهري في شهر ربيع الأول سنة ١٣١ هـ.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٣ ـ ٨٩.

الباب الثامن

الثقافة والفن

١ ـ الثقافة

عني الدين الإسلامي بالعلم وتشجيعه والدعوة إلى تحصيله. فقد حرص الرسول على تعليم الصحابة الكتابة، ففرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدي نفسه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين. ثم حث الصحابة على تعلم اللغات حين بعث دعاته ورسله إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية، فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم.

ولم يختص النبي الرجال بالعلم والتعليم، بل كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفوراً. ولذلك قال عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

وكان الرسول يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم، عن أبي بردة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مولاه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»[1].

وليس أدل على نصيب المرأة المسلمة من العلم من محاجة إحدى نساء المدينة لعمر بن الخطاب حين قام يخطب المسلمين ويحثهم على ألا يزيدوا في مهور نسائهم عن مهور زوجات الرسول، إذ قالت له تلك المرأة: وماذا تقول في قوله تعالى: ﴿وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾؟ فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

وكان الصحابة أنفسهم مشغوفين بسماع الرسول ﷺ والأخذ عنه، حتى كان الرجل إذا لم يستطع أن يذهب إلى مجلسه أناب عنه صديقاً له ثم يتعلم منه آخر النهار ما قال الرسول. قال

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٠.

عمر: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[١].

ولم ينفرد الرسول ﷺ وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس في المدينة، بل كان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم.

ويعتبر الفقهاء أن أوجب حقوق الأمة على الخليفة (نشر العلوم والشريعة، وتعظيم العلم وأهله، ورفع مناره ومحله، ومخالطة العلماء الأعلام النصحاء لدين الإسلام، ومشاورتهم في موارد الأحكام ومصادر النقض والإبرام)[٢].

وقد ألقت أفكار الرسول وتعاليمه بذورها في تربة خصيبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة. وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روي عن النبي من كلام ووصايا، والأمناء على تراث محمد الأدبي. ولقد تألفت من هؤلاء جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوماً طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي[٣].

وقد أفاد كثير من الصحابة من صحبتهم للرسول: فنبغ علي في القضاء حتى كان يقال إذا أشكل الأمر: قضية ولا أبا حسن لها، ونبغ معاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام، وزيد ابن ثابت في تقسيم المواريث والأنصبة في الغنائم وما إليها، وأبي بن كعب في قراءة القرآن. . روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد بن ثابت (أي أعلمهم بعلم الفرائض وهي المواريث)، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[٤].

وقد تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الأمصار الإسلامية، فقاموا فيها بحركة علمية، والتفت حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس، ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بينهم كثير من الموالي.

---

(١) صحيح البخاري: جـ ١ ص ٢٧.

(٢) بدر الدين بن جماعة: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، المجلد الرابع من مجلة Islamica جـ ١ ص ٦١ (١٩٣٤).

(٣) سير توماس أرنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٦٠ ـ ٦١، نقلاً عن Caetani, vol. II, p. 429.

(٤) ابن عساكر. تاريخ دمشق جـ ٣٣ ص ٨٠.

وكانت عناية المسلمين في صدر الإسلام مقصورة على العلوم الدينية، وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث. ولذلك نلاحظ أن العلوم المتصلة بالدين قد انتشرت في عهد بني أمية، بخلاف ما كانت عليه الحال في أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها.

تقسيم العلوم:

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة وعلوم الأوائل.

وتشمل العلوم النقلية: علم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الحديث، والفقه والنحو، واللغة، والأدب.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والسحر والكيمياء، والتاريخ، والجغرافيا.

أ ـ العلوم النقلية:

١ ـ علم القراءات: كان علم القراءات من العلوم التي اشتغل بها المسلمون؛ ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن، تتركز النواة التي بدأ بها هذا العلم في القرآن، وفي نصوصه نفسها، وبعبارة أوضح في قراءته. ففي هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير.

يقول جولدتسيهر[1]: وهذه القراءات المختلفة تدور حول المصحف العثماني، وهو المصحف الذي جمع الناس عليه خليفة المسلمين عثمان بن عفان، وأراد بذلك أن يرفع الخطر الذي أوشك أن يقع في كلام الله في أشكاله واستعمالاته. وقد تسامح المسلمون في هذه القراءات واعترفوا بها جميعاً على الرغم مما قد يفرض من أن الله قد أوحى بكلامه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً وأن مثله من الكلام المحفوظ في اللوح والذي ينزل به الملك على رسوله المختار، يجب أن يكون على شكل واحد وبلفظ واحد. وقد عالج (نلدكه) هذا الموضوع بتوسع في كتابه «تاريخ القرآن».

ويرجع السبب في ظهور القسم الأكبر من هذه القراءات إلى طبيعة الخط العربي، فإن

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٣ ـ ٤.

من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها، كما أن عدم وجود الحركات النحوية وفقدان الشكل في الخط العربي يمكن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب. فهذه التكميلات للرسم الكتابي، ثم هذه الاختلافات في الحركات والشكل ـ كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات فيما أهمل شكله أو نقطه من القرآن.

وقد ظهرت للقراءات سبع طرق، كل طريقة منها تمثلها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام وتستند في أحاديث موثوق بها، وعليها يجب أن يقتصر في قراءة المصحف. ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم عاشوا في القرن الأول كابن العباس وعائشة وعثمان صاحب القراءات وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبي (بضم الألف وفتح الباء وياء مشددة) بن كعب، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم[١].

تدوين المصحف:

نزل القرآن منجماً[٢] في بضع وعشرين سنة. فكانت تنزل الآية أو الآيات كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم أو بأمر الرسول على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والإبل وأضلاعها.

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه وقامت حروب الردة وقتل فيها أكثر القراء من الصحابة وخاصة في يوم اليمامة حيث قتل منهم زهاء سبعين[٣]، هال هذا الأمر عمر بن الخطاب، وكان مستشار أبي بكر وساعده الأيمن، فذهب إلى أبي بكر وقال له: إن القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن الكثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال. وقد ضم أبو بكر إلى زيد بن ثابت سالماً مولى أبي حذيفة ليعاونه في جمع القرآن على أن يقوم زيد بتدوينه.

وكان زيد بن ثابت شاباً عرف برجاحة العقل وحسن السيرة. وكان يكتب الوحي للرسول. ولا ريب أن هذا العمل الجليل كان في حد ذاته مجهوداً شاقاً يتطلب الكثير من الأناة والصبر. وقد عبر زيد عن خطورة هذا العمل في هذه الكلمات التي تبين لنا كيف قام به وأتمه: فوالله لو

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) يقال نجم المال تنجيماً إذا أداه نجوماً أي على أقساط.

(٣) وقد قيل إنه قتل مثل هذا العدد في غزوة بئر معونة في عهد الرسول.

كلفوني ثقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ منه، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ومن صدور الرجال. وقال أبو بكر لعمر وزيد: اقعدوا على باب المسجد، فمن جاء كما بشاهدين على كتاب الله فاكتباه. قال صاحب تاريخ القرآن[1]: والأقرب إلى الظن أن الشاهدين إنما كانا يشهدان بأن ما أتوا به كان مما عرض على رسول الله ﷺ عام وفاته العرضة الأخيرة[1]، وكتب بين يديه. ولذلك قال زيد بن ثابت: حتى وجدت الآيتين[2] من سورة براءة (التوبة) مع أبي خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره.

ولولا ذلك لما صح معنى عدم وجدانهم هذه الآتية، لأن زيداً كان قد جمع القرآن وحفظه وأخذه عن النبي ﷺ، وقبل قول أبي خزيمة، لأن النبي ﷺ جعل شهادته شهادة رجلين.

وكان هذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة في الأكتاف والعسب واللخاف، ونسخها في الأديم وهو الجلد المدبوغ. قال ابن حجر في رواية عبادة بن غزية أن زيد بن ثابت قال: فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم.

وقد حفظت هذه الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر حتى مات، فحفظت عند ابنته حفصة بنت عمر. وقد لاحظ حذيفة بن اليمان قائد عثمان في غزو أذربيجان اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فأشار على عثمان بتدوين مصحف يقرؤه المسلمون. قال ابن الأثير (جـ ٣ ص ٤٥ ـ ٤٦): فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً، لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً، قال: ما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد (بن الأسود)، ورأيت أهل دمشق يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرءوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرءوا على أبي موسى ويسمون مصحفه «لباب القلوب». فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود: ماتنكر؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم

---

(١) أبو عبد الله الزنجاني. (تاريخ القرآن) طبع لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٥ ص ٤٢.

(٢) جمع القرآن على عهد النبي ﷺ في آخر سنة من حياته. ولكن لم يضم بعضه الى بعض. وإنما علمهم النبي ﷺ ترتيب آياته والناسخ منها والمنسوخ. وقد عقد المؤلف فصلاً في كتابه تاريخ القرآن ذكر فيه من جمعوا القرآن على عهد النبي: وفيه ذكر محمد بن إسحاق في الفهرست أن الجماع للقرآن على عهد النبي هم علي بن أبي طالب، وسعد بن عبيد بن نعمان، وأبو الدرداء عويمر بن زيد، ومعاد بن جبل بن أوس، وأبو زيد ثابت بن زيد، وأبي كعب بن قيس.

(٣) هاتان الآيتان هما ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [سورة التوبة ٩: ١٢٧].

أعراب، فاسكتوا فإنكم على خطأ، وقال حذيفة: والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك. فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس، وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى وقال: أنا النذير العريان فأدركوا الأمة. فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن ارسلي إلينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر.

فلا عجب إذا لاقت هذه الفكرة قبولاً في نفس عثمان، فعول على نسخ المصحف تلافياً لما قد يجر إليه التهاون في هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة. وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر الصحف إلى عثمان لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار، وقام بهذا العمل زيد ابن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش.

وقد أشار أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) إلى سبب اختيار زيد بن ثابت لهذا العمل الجليل في كتابه «المقنع» في رسم مصاحف الأمصار الذي نشره «برتزل» حديثاً مع كتاب النقط: فإن قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف، وقد كان في الصحابة من هو أكبر منه كابن مسعود وأبي موسى الأشعري وغيرهما من متقدمي الصحابة، قلت: إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ومناقب اجتمعت له لم تجتمع لغيره، منها أنه كتب الوحي للنبي ﷺ، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبي على جبريل عليهما السلام. وهذه الأشياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به، لامتناع اجتماعهما في غيره، وإن كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف وخصه بها دون غيره من سائر المهاجرين والأنصار، ثم سلك عثمان رضي الله عنه طريق أبي بكر في ذلك إذ لم يسعه غيره، وإذ كان النبي ﷺ قد قال: «اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر». فولاه ذلك أيضاً وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعاً على لغتهم، ويكون ما فيه من لغات ووجوه على مذهبهم دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات[1].

أمر عثمان بإحراق المصاحف الأخرى، فعاب عليه ذلك بعض ذوي الأغراض السيئة وبخاصة أهل الكوفة. فلما نسخوا الصحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل مصر من الأمصار بمصحف وحرق ما سوى ذلك، وأمر أن يعتمدوا عليها ويدعوا غيرها من المصاحف.

---

(١) راجع مقدمة الأستاذ محمد كرد علي في مجلة الرسالة عدد ١٠٨ في ٢٩ يولية سنة ١٩٣٥.

وقد عرف الناس جميعاً فضل هذا العمل إلا ما كان من أهل الكوفة، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي ﷺ، وامتنع أصحاب عبد الله بن مسعود. ولما قدم على الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف، فصاح وقال: اسكت! فعن ملأ منا فعل ذلك؛ فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله[1].

مما تقدم يتبين أن القصد من التدوين الأول إنما هو جمع القرآن وحفظه من الضياع، كما كان التدوين الثاني يرمي إلى غرض واحد، هو جمع الناس على وجه واحد في قراءة القرآن خشية ما قد يقع بينهم من خلاف مصدره التحريف الذي يفتح الباب على مصراعيه للزيادة والنقصان في كلام الله سبحانه، ولا سيما أن العرب أخذوا يختلطون بأهالي البلاد المفتوحة الذين اختلفت لغاتهم وتباينت لهجاتهم. وعندنا أن عثمان أحسن كل الإحسان إلى المسلمين، وأن عمله هذا يستحق الثناء والتقدير لا اللوم والتعنيف. وإن أثر عمر بن الخطاب في حفظ القرآن لا يقل عن أثر عثمان، إذ لو لم يتدارك هذا الأمر بحكمته وبعد نظره، لنال القرآن من التبديل والتحريف أكثر مما ناله غيره من الكتب السماوية الأخرى فيضيع إعجازه ويتلاشى بيانه.

وصفوة القول أن الله سبحانه شاء ألا تعبث بالقرآن يد التحريف والتبديل فقال في كتابه العزيز: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [سورة الحجر ١٥: ٩]، وقال: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[2] [سورة فصلت ٤١: ٤٢].

٢ ـ التفسير: ومن العلوم النقلية التي اشتغل بها المسلمون لفهم معاني القرآن الكريم «علم التفسير». وقد روي عن عائشة أنها قالت: (لم يكن النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل). فلما اتسعت الدولة العربية ودخل العجم في الإسلام، دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن، وأخذ بعض كبار الصحابة، من أمثال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، يفسرون القرآن اعتماداً على ما سمعوه من الرسول أو بحسب ما وصل إليه فهمهم. ويعتبر هؤلاء الصحابة مؤسسي مدرسة التفسير في الإسلام، وحذا حذوهم في ذلك التابعون مثل سعيد بن جبير وغيره.

وقد نظر بعض الأتقياء من المسلمين إلى القرآن الكريم نظرة إجلال وتقديس، حتى لقد عدوا البحث في تفسيره ضرباً من الخرق في الدين. وكان عمر بن الخطاب يكره البحث في غوامض الآيات القرآنية، حتى أنه ضرب رجلاً كان يسأل عن متشابه القرآن حتى أدمى رأسه،

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٦.

(٢) انظر وليام ميور The Life of Muhammad, pp. XIV-XXIV.

وأمر ألا يجالسه أحد من المسلمين. ويقول جولدتسيهر[١]، اعتماداً على بعض المصادر العربية وغيرها: وقد نظر الأتقياء في عصر بني أمية إلى التفسير مثل هذه النظرة. كان شقيق بن سلمة الاسدي ـ وكان معاصراً لزياد بن أبيه والحجاج ـ إذا سئل عن شيء من القرآن قال: (وقد أصاب الله الذي به أراد)، يعني بذلك أنه لا يريد أن يبحث عن المعنى. وقد سئل عبيدة بن قيس الكوفي (المتوفى سنة ٧٢ هـ)، من أصحاب ابن مسعود عن سبب نزول بعض آيات القرآن، فقال: (عليك باتقاء الله والسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن).

وفي هذا العصر حكي أن رجلاً طلب إلى سعيد بن جبير (المتوفى سنة ٩٥ هـ) الذي قتله الحجاج، أن يفسر له آيات القرآن فقال له: (لأن تقع بعض جوانبي خير لي من ذلك). وقيل: إن الأصمعي اللغوي المعروف (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) كان ـ ورعاً منه وخشية ـ لا يفسر القرآن. وقد رويت عن أحمد بن حنبل هذه الكلمة في تفسير القرآن: (ثلاثة أشياء لا أصل لها: التفسير، والملاحم، والمغازي).

وعلى الرغم من تخوف الأتقياء من تفسير القرآن، أثر عن كثير من الصحابة وعلماء المسلمين أنهم فسروا القرآن: فهذا عبد الله بن عباس قال فيه تلميذه مجاهد: إنه إذا فسر الشيء رأيت عليه النور[٢].

اتجه المفسرون في تفسير القران اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول ﷺ وكبار الصحابة، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل.

على أن النوع الأول من التفسير، وهو التفسير بالمأثور، قد اتسع على مر الزمن، بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل كعب الأحبار اليهودي وعبد الله بن سلام وابن جريج. (وكان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم). كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير في استعمالاته اللغوية. وقد أثر عن ابن عباس أنه قال: إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات القرآنية بألفاظ وردت في الشعر الجاهلي[٣].

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام، اعتبر التفسير جزءاً من الحديث، أو فرعاً من فروعه، حتى إن التفسير في ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبعثرة غير

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ترجمة ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٦، ٦٨ ـ ٦٩.

مرتبة حسب ترتيب السور والآيات، إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشكون في نسبته إليه. أما الطريقة المنظمة في تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا في العصر العباسي.

ومن أشهر المفسرين عبد الله بن عباس، وابن جريج، وكان يجمع كل ما وصل إليه حين تحري الدقة في التفسير، والسدي المتوفي سنة ١٢٧هـ، وقد اعتمد في تفسيره على ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، ومقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ، وقد تأثر بتفسير التوراة الذي اتخذه عن اليهود، حتى أن الإمام أبا حنيفة اتهمه بالكذب، وتفسير محمد بن إسحاق الذي أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية وعن وهب بن منبه وكعب الأحبار. على أن هذه التفاسير قد ضاعت ولم يصل إلينا شيء منها إلا عن محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

٣ ـ **الحديث**: ومن مصادر التشريع الإسلامي «الحديث»، وهو ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي في الأهمية بعد القرآن. وقد جمع البخاري، على ما نعلم، نحو ٧٢٧٥ حديثاً بما فيها الأحاديث المكررة. فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف. وقد اختارها البخاري ـ على ما قيل من ثلثمائة ألف حديث. ومن ذلك يتبين لنا مبلغ ما وصل إليه التحريف في الحديث.

وكانت هذه الأحاديث التي وصلت إلى أيدينا موضعاً للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين: ذلك أنه عند وفاة الرسول ﷺ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل. وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض، فتأثرت بشيء غير قليل من التبديل والتحريف مما أدى بها إلى الغموض والإبهام، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها.

حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا في العصر العباسي. ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المتوفى ١٢٣ هـ.

٤ ـ **النحو**: نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفيهما وضعت علوم العقائد والفقه، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين. وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية. ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف. وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد

الأمويين. وقد قيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه[١].

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التي تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها. ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة، حتى سمِّي نحاة البصرة «أهل المنطق» أو «أهل القياس» تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة. «وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند الكوفيين. وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق، لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها. وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كي تؤثر في مذاهبهم الكلامية[٢].

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٣ هـ (٧٧٠ م) الذي اشتغل بالتفسير، والخليل بن أحمد واضع علم العروض، وصاحب كتاب «العين» الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية.

٥ ـ الأدب:

أ ـ النظم: لم يكن للأدب حظ في صدر الإسلام، لاشتغال العرب بالفتوح وتنظيم دولتهم التي اتسعت أرجاؤها، ثم لاشتغالهم بالحروب الأهلية التي استنفدت كل مجهوداتهم.

وقد حافظت الروح الأدبية في هذا العهد على ما كانت عليه في الجاهلية، فلم يتعد الأدب دائرة الشعر تقريباً، إذ أصبح يمثل بعض مظاهر السلطة. وقد ظن بعض المستشرقين أن الدين قلل من أهمية الشعر حتى لا يطغى على القرآن. وهذا الزعم لا أساس له، لأن القرآن ليس من الشعر في شيء، ولا يصح أن يكون نموذجاً له. ولو أن القرآن الكريم قد غض من شأن بعض الشعراء، فلأنهم كانوا من أعداء الإصلاح ومن دعاة الفوضى. قال تعالى: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾؟ [سورة الشعراء ٢٤: ٢٢٥ ـ ٢٢٦].

على أن الشعر قد أعلى من قدر هؤلاء الذين قاموا بنصرة المبادىء القويمة ودافعوا عنها فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف، كما شجعهم الرسول وأجزل لهم العطايا، واعتبر هذا نوعاً من الجهاد في سبيل الله والانتصار للحق. وأحسن مثل لذلك الشاعر المخضرم حسان بن ثابت الذي قربه الرسول إليه. وليس أدل على احترام الإسلام للشعر من قوله عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة».

وكان شعراء هذا العصر لا يزالون على ما كان عليه من سبقهم في الجاهلية برغم تأثرهم

---

(١) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨ ـ ٣٩.

بـالقرآن وأسلوبـه. فإذا قـرأت قصيدة لشـاعر من أنصـار الدعـوة في مدح الـرسـول أو هجـاء المشركين، أو قصيدة لشاعر من الذين شايعوا قريشاً في مدح أحد زعمائها أو رثاء قتلاها، أو في هجاء المسلمين، ألفيت هذه القصيدة أو تلك لا تكاد تخرج عما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل في الجاهلية أو يهجونهم به، ولو أنه قد كثر فيها الحديث عن الجنة والنار، والحساب والعذاب، والبعث والنشور، وما إلى ذلك من الأمور الدينية التي لم يعن بها العرب الجاهليون في أشعارهم.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الشعراء الذين ناهضوا الرسول وقاوموا الدعوة لم يكونوا أقل من الشعراء المسلمين تأثراً بالقرآن وما جاء به من المعاني الدينية. فقد كـانوا يقـرءون القرآن ويعنون به، لا لإيمـانهم بما فيـه، ولكن للرد على ما جـاءهم به ومنـاقشته في تلك المبـادىء الجديدة التي جاء بها.

كما كان يوجه هؤلاء الشعراء اهتمامهم ـ إذا أرادوا هجاء الرسول أو الغض من شأنه ـ إلى تعرف أقوال المسلمين ومعتقداتهم، وما يقابل ذلك في دينهم القديم ليستطيعوا دفـع هجمات الرسول عن معبوداتهم وسخريته من نظمهم الدينية وأوضاعهم الاجتماعية. لذلـك نالت هـذه الناحية شيئاً من اهتمام الخطباء والشعراء والمجادلين، وكثر ورودها على ألسنتهم بعد أن كانت من الأمور التي لا يعرض لها العربي في حياته العادية ويلم بها إلا إلماماً يسيراً.

ومن هنا نشأت معارضة القرآن «وهي الإتيان بكلام يشبهه في بلاغته وخصائصه الفنية. وكان القرآن أولى معجزات الرسول واقواها في الدلالة على أنه رسول من عند الله، لأنه أتى بكلام لا يستطيـع أي إنسان أن يـأتي بمثله. وقد تحدى الرسول والقـرآن العرب جميعـاً برغم فصاحتهم وتفننهم في أساليب الكلام أن يأتوا بقرآن مثله فعجزوا. ثم تحداهم بعد ذلك أن يأتوا بعشر سـور فقط فعجزوا أيضاً. قـال تعالى: ﴿ أم يقـولون افتـراه، قل فـأتوا بعشـر سـور مثله مفتـريات وادعـوا من استطعتم من.دون الله إن كنتم صـادقين ﴾ [سـورة هـود ١١ : ١٣]. ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿ وإن كنتم في ريب مما نـزلنا على عبـدنا فـأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [سورة البقرة ٢ : ٢٣] قـال تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [سورة الإسراء ١٧ : ٨٨].

وقد اشتهر من شعراء المسلمين حسان بن ثابت، وعبد الله بن مالك، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير ؛ واشتهر من شعراء المشركين عبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن الأشرف وغير هؤلاء وهؤلاء .

هذا هو حال الأدب في عهد الرسول وفي عهد الخلفاء الراشدين. أما في عهد بني أمية

فقد تغيرت الحال تغيراً ظاهراً. فقد ظهرت أحزاب مختلفة كلها يطاحن ويناضل بالقول والسيف للوصول إلى السيادة والحكم واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين والمشيدين بعظمة الملك وسطوة الخلفاء، وقلّدهم في ذلك الحكام والولاة في الأقاليم المختلفة، كما تغيرت الحال الاجتماعية بما أفاء الله على العرب من أسلاب الجيوش في البلاد المفتوحة، فارتقت بذلك الحياة العربية وارتفع مستوى الحضارة والتمدن في البيت العربي وتعددت مرافقه وضروریاته. وكان للإماء الأعجميات أعمق الأثر وأبلغه في الانتقال بالبيت من خشونة البداوة وشظفها إلى لين الحضارة ونضارتها، فنشأت في ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر لم تكن معروفة من قبل.

كما تطورت الإدارة الحكومية وتعددت حاجاتها مما دعا إلى إنشاء الدواوين. ومن هذه الدواوين وأقربها اتصالاً بالحياة الأدبية، ديوان الإنشاء والرسائل الذي أوجد نوعاً من النثر لم يكن للعرب به عهد. هذا ما يسمى بالنثر الفني، ويقصدون به تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله في الأقاليم. وقد بدأ هذا النوع من النثر في ذلك العصر ونما، حتى ظهر في آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب الذي يعد بحق مؤسس الكتابة الفنية وواضع أصولها وقواعدها[١].

وكان للفتوح الإسلامية أكبر الأثر في ظهور طبقة أرستقراطية بما كان من رخاء الأمة المادي وخاصة في بلاد الحجاز. وقد تجلت مظاهر هذا الرخاء في حياة الأثرياء. وكان لتلك المظاهر أثر محسوس في الحركة الفكرية، ولا سيما في فني الغناء والموسيقى وفي تهذيب الشعر. وليس معنى ذلك أن هذه الأنواع في الفنون الجميلة لم تكن مألوفة عند العرب قبل الإسلام، فقد أدخلتها مغنيات من غير العرب وخاصة من الفرس.

على أنه قد ظهر في القرن الأول للهجرة مغنون من العرب في مكة والمدينة نظموا قطعاً من الشعر ولحنوها. ونبغ في الموسيقى كثيرون من أمثال معبد وابن شريح وطويس. ثم اشتغلت هذه الطبقة بالشعر العربي، فنبغ منهم كثيرون في الغزل مثل عمر بن أبي ربيعة القرشي. واعتقد كثير من العرب أن أشعاره كانت أبشع جناية اقترفت على الدين. وزعم بعض أن كثيراً من الشعر الغزلي منسوب خطأ إلى بعض الشعراء كالأشعار التي تنسب إلى مجنون ليلى، حتى شك بعض في وجود رجل بهذا الاسم. وإن صح ذلك لا يبعد أن يكون كثير من الشعر المنسوب إليه من شعر غيره. وممن نبغ في الشعر الغزلي جميل صاحب القصائد المشهورة في الغزل التي نظمها في محبوبته بثينة[٢].

---

(١) انظر ما ذكره الجهشياري عن عبد الحميد الكاتب في كتاب الوزراء والكتاب ص ٧٢ ـ ٧٩.

(٢) Nicholson, pp. 237 - 238.

ومهما يكن من شيء فقد كانت نزعة الأمويين جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، بل يؤثر فيهم الشعر الجيد والخطبة البليغة، فأجاد بعض خلفائهم نظم الشعر: كيزيد بن معاوية حتى قالوا: (بدئ الشعر بملك وختم بملك)، يعنون امرأ القيس ويزيد. وكان عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً.

وقد وجدت في خارج الحجاز ضروب أخرى من الشعر، فنبغ في عهد الأمويين الفرزدق، وجرير، والأخطل، وكلهم من أهل العراق مولداً ومنشأ. ونزحت العناصر النشيطة منذ الفتح الإسلامي إلى الأقاليم العربية كالعراق والشام فخلت منهم جزيرة العرب. وبلغت المنافسة أشدها بين جرير والفرزدق، حتى إنك لترى ذلك في ثنايا شعرهما المسمى بالنقائض الذي امتاز بالهجاء العنيف المقذع، وإن كان قد بلغ درجة عظيمة من الإتقان والجودة، وأصبح المعين الذي تغترف منه اللغة العربية في عصرها الجديد.

وكان لكل من جرير والفرزدق أنصار يتعصبون له ولشعره. وليس أدل على ذلك من انقسام جند المهلب بن أبي صفرة والي خراسان عند مسيره لحرب الأزارقة من الخوارج إلى فريقين: فريق يحبذ جريراً، وآخر يفضل الفرزدق.

وانضم الأخطل إلى هذا العراك ـ وكان مسيحياً هواه مع الفرزدق ـ واتخذه الأمويون كبير شعرائهم وأعظم مؤيديهم، وكان من المقربين إلى عبد الملك بن مروان، فكان يدخل عليه بلا استئذان وهو مرتد أفخر الملابس الحريرية، وعليه صليب من ذهب متدل من رقبته بسلسلة ذهبية.

كما كان للأحزاب السياسية الأخرى شعراء أبلوا بلاءً حسناً في نصرتهم وتأييد مذاهبهم وآرائهم والدفاع عنها والدعوة إليها. نذكر منهم عمران بن حطان وقطري بن الفجاءة من الخوارج، وعبد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين، والكميت بن زيد الأسدي من الشيعة.

ب ـ **العلوم العقلية**: أما اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية، فإنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية التي كانت منتشرة منذ فتوحات الإسكندر في مصر وسورية وغربي آسيا. فإنه لما اضمحلت مدرسة الرها في أواخر القرن الخامس الميلادي بسبب قيام الخلافات المذهبية، لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس، واحتموا ببلاط كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٨ م)، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة الذين نفاهم الامبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم، وأسس في جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة، وبقي أثرها في تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية كما غدت حران مركزاً من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق. وتكلم أهل حران، وهم الصابئة، اللغة العربية في سهولة ويسر، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين، وإليهم

يرجع الفضل في ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية.

ولم يكن لترجمة الكتب العربية حظ كبير في عهد بني أمية، وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء، وكذلك عربت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان بعد أن كانت بالفارسية في العراق[1]، واليونانية في مصر والشام، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك.

وكانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وأصبح كثير منها مراكز هامة للحركة العلمية. وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة، الذي كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب. وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة. وهكذا أخذت الثقافات التي كان للإسلام أثر كبير في مزجها، تلتقي في تلك المراكز على مر السنين حتى امتزج بعضها ببعض. فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب كان يرى لزاماً عليه أن يتعلم العربية وآدابها حتى يتيسر له قراءة القرآن ودراسته، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية.

وكانت النفقات التي خصصت لدور العلم في صدر الإسلام قليلة، وذلك يرجع إلى زهد المدرسين واكتفائهم بما كانوا يصيبونه من الفيء والصدقة. وقد اقتصرت نفقات دور العلم على المساعدات المالية التي كان يقدمها الخلفاء إلى الزهاد الذين حبسوا أنفسهم في المساجد للعبادة.

وقد أثر عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى والي حمص: انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت المال حين يأتيك كتابي هذا، فإن خير الخير أعجله والسلام.

١ ـ الكيمياء والطب:

اشتغل المسلمون في عهد الأمويين بالعلوم الطبية ولا سيما الكيمياء التي لا يبعد أن يكونوا قد أخذوها عن اليونان.

وكان خالد بن يزيد أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الإسكندرية حيث راجت صناعة الكيمياء، وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية القبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية. وعمل على

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ٣٨.

الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء كما تقدم[١]، كما طلب إليهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب، ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية.

وقد أنفق خالد بن يزيد الأموال الضخمة في طلب الذهب واستحضار آلاته، ولعلهم ترجموا له شيئاً لم يصلنا خبره. وقد ذكر الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» أن خالداً كان خطيباً شاعراً فصيحاً جامعاً جيد الرأي كثير الأدب.

ويعتبر لقمان الحكيم أقدم أطباء العرب. وكان الحارث بن كلدة الذي ولد في الطائف في القرن السادس الميلادي أشهر أطباء عصره. وقد درس الطب بمارستان جند يسابور ببلاد الفرس، ثم أصبح طبيب خسرويه كسرى فارس. وقد تخصص الحارث في علم الصحة وأوصى بعدم الإفراط في الطعام وعدم الاستحمام بعد تناوله، كما أوصى بالحجامة والحقن. ولما ظهر الإسلام قربه الرسول إليه. وظل محل ثقة العرب حتى مات في سنة ٣٣ هـ. وقد تلقى النضر الطب عن أبيه الحارث وذاعت شهرته، واخترع حبوباً مسهلة نسبت إليه، وكانت تستعمل في أمراض الصفراء. واشتغل ابن أبي رمتة التميمي بعلم التشريح.

وقد عني المسلمون بنشر الثقافة الطبية بترجمة ما خلفه الأقدمون، وأسسوا المعاهد العلمية لتخريج الأطباء. وكان هناك نوعان من الكليات الطبية هما: البيمارستانات، أو الكليات العملية للطب، والمدارس النظرية.

وقد قيل إن أول بيمارستان في الإسلام هو تلك الخيمة التي ضربها الرسول في المدينة يوم «الخندق»، وجعل فيها امرأة تدعى رفيدة تقوم بخدمة الجرحى. وذهب المقريزي إلى أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) كان أول من بنى البيمارستان في الإسلام، وذلك في سنة ٨٨ هـ (٧٠٦ م)، وجعل فيه الأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وأمر بمنع المجذومين عن سؤال الناس، وخصص لهم الأعطيات، كما أعطى كل مقعد خادماً يهتم بأمره، وكل ضرير قائداً يسهر على راحته.

كما استعان الأمويون بالأطباء الذين كانوا يعملون في بيمارستان جند يسابور بخوزستان الذي أسسه كسرى أنوشروان، وجلب إليه الأطباء من بلاد اليونان. وقد تخرج في هذا المعهد: الحارث بن كلدة وابنه النضر. كما استعان الأمويون ببعض الأطباء الذين كانوا يعملون في هذا المعهد الطبي، كابن أثال الطبيب النصراني الجند يسابوري الذي اتخذه معاوية بن أبي سفيان طبيباً له، وحكم الدمشقي، وتيادوق وغيرهم.

ذكر المسعودي[٢] أن عبد الملك بن مروان كان مولعاً بعلم النجوم، حتى أنه كان

---

(١) Hell, The Arab Civilisation, p. 60.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠

يصحب معه بعض المنجمين في حروبه. فإنه لما بلغه قدوم إبراهيم بن الأشتر النخعي لحرب أخيه محمد بن مروان، بعث عبد الملك إلى أخيه يأمره ألا يقابله في ذلك اليوم. وكان مع عبد الملك منجم مقدم على غيره. وقد أشار على هذا الخليفة بألا تشتبك خيله في حرب في ذلك اليوم، لأنه من أيام النحس، وأن يحارب بعد ثلاثة أيام حيث يكتب له النصر. ولكن أخاه محمد لم يعبأ بنبوءة ذلك المنجم وواصل القتال وأحل الهزيمة بابن الأشتر.

٢ ـ السير والمغازي:

كذلك اشتغل المسلمون في ذلك العصر بتدوين السير والفتوح الإسلامية. وكان عبيد بن شربة اليمني أول من ألبس هذا النوع من القصص ثوب التاريخ، ثم جاء وهب بن منبه، فتصدى للمغازي وهي الفتوح الإسلامية، ووضع أساسها وعنه روى المؤرخون المتقدمون.

وقد روي أن عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ أقدم من ألف في السيرة النبوية، وكذلك كان أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ. فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه في سيرة الرسول، وجمع كل من ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ، وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٣١ هـ كتاباً في المغازي. وممن اشتغل بالمغازي ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ، وتلميذه ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ، صاحب سيرة النبي ﷺ. ومع ذلك لم يشجع الخلفاء الأمويون هؤلاء الكتاب على تدوين أخبار الإسلام، لأنهم كانوا يفضلون عليها قراءة القرآن. فقد قيل إن عبد الملك بن مروان رأى كتاباً لوهب بن منبه في يد شخص، فأمر بالكتاب فأحرق ثم أمر بقراءة القرآن بدلاً منه. ومع ذلك كان معاوية بن أبي سفيان مشغوفاً بقراءة الأخبار والسير والآثار كما تقدم.

٢ ـ الفن

تمهيد:

كان يغلب على الجماعة الإسلامية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده البساطة وخشونة العيش والجهاد في سبيل الله. فلم يكن المجتمع الإسلامي حينئذ مرتعاً خصيباً للفنون الجميلة بأنواعها[١]: وفي ذلك يقول ابن خلدون[٢]: (فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة أو البنيان والإسراف في غير القصد).

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ١٠.

(٢) راجع ما ذكره ابن خلدون في مقدمته في الفصل الثامن (في أن المباني والمصانع قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول) ص (٣١٢ ـ ٣١٣).

ولما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى جمعوا شتى الأساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد[١]. واتسع أفق الفن في أعينهم، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عما رسمه الدين الإسلامي. على أن الأمر الذي يسترعي النظر، أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير المجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة، لأنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان. ولهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية[٢].

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب مع حالة معيشتهم، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب، والمقرنصات أو الدلايات. وهي زخارف بارزة تشبه خلايا النحل، وتجدها في طبقات، مصفوفاً بعضها فوق بعض في وجهات المساجد وفي المآذن، وتحت شرفات البناء، أو في تيجان بعض الأعمدة أو في القباب بين القاعدة المربعة والسطح الدائر. وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة في السقوف الخشبية فضلاً عن الأبنية الحجرية[٣].

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم، احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها. وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر في المساجد. وكان مسجد قباء الذي أسسه الرسول عليه الصلاة والسلام، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية من حيث الشكل العام. ومما لا شك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة وإلى المدينة المنورة في كل عام، وأداءهم الصلاة في المدن والقرى التي كانوا يمرون بها، وقد ساعد على محاكاة مساجد الحجاز.

وقد أدخلت المقصورة في بناء المساجد لينتظر فيها الإمام حتى يحين وقت الصلاة. وكان أول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين خشي على نفسه أن يحل به ما حل بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، واقتدى به الخلفاء من بعده. كذلك دخلت في عمارة المساجد زيادات، منها المآذن والمحراب الذي يدل على جهة القبلة[٤] والإيوانات، وهي أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مقامة على أعمدة أو دعائم، واستمر ذلك إلى العصر العباسي الأول.

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين. ومن مميزاته

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ١.

(٢) المصدر نفسه ص ٨ و ٢٥ ـ ٤٣.

(٣) زكي محمد حسن: فنون الإسلام. ص ٩.

Zaky M. Hassan: The Attitude of Islam towards Painting (Bulletin of the Faculty of Arts. University of Cairo, Vol. VII, July, 1944), pp. 1 - 16.

Creswell: Early Muslim Architecture, Vol. I. pp. 3 - 9. (٤)

الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية. فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة، تدور حول حافة التحف الأثرية، أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار. . .

وقد ازدهر في عهد الأمويين فن النقش على الجدران، ولا يزال بعض بقاياه ماثلاً في «قصير عمرة»، وهو قصر صغير للصيد شرقي البحر الميت على بعد خمسين ميلاً شرقي عمان، ويتجلى في طرازه مزيج من الفنون الشرقية واليونانية. ويذهب علماء الآثار إلى أنه شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي[1]، ويشتمل على قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائري.

العمارة:

١ - المدن:

تنقسم العمارة الإسلامية ثلاثة أقسام: عمارة مدنية تتمثل في المدن وفي بيوت الخاصة، ودينية تتمثل في المساجد، وحربية تتمثل في الحصون والقلاع.

وكانت مباني العرب في غاية البساطة. ولم يكن في مكة إلا مبان قليلة أهمها «الكعبة». وكانت دور الأغنياء تبنى بالحجارة، على حين كانت معظم مباني المدينة تبنى من اللبن.

وكانت الدور في الغالب من طبقة واحدة، ولها فناء، وفي وسطها بئر. فلما اتسعت الفتوح الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب وكثرت الأموال في الحجاز، توافد على المدينة كثير من الخبراء في العمارة من الأجانب؛ فارتقى فن العمارة فيها، وشيد كبراء العرب في مكة والمدينة القصور الواسعة من الحجارة والرخام. ويقال إن الدار التي بناها عثمان بن عفان كانت غاية في العظمة والبهاء.

ويقول المسعودي: إن الصحابة في عهد عثمان أقاموا لأنفسهم دوراً فخمة، فشيد الزبير ابن العوام دوراً فخمة في المدينة والكوفة والفسطاط والإسكندرية. وكان لسعد بن أبي وقاص قصر فخم في وادي العقيق بالمدينة.

ولما استولى العرب على بلاد الشام وفارس اتخذوا طرازاً للعمارة خاصاً بهم يتناسب مع طبيعتهم وحالة معيشتهم، وكان لهذا الطراز طابع جديد بما أدخل فيه من عناصر فنية مختلفة.

وتمتاز العمارة العربية بالقباب والمآذن والأعمدة والمنحنيات، وهذه تشبه من بعض

---

(١)، كتاب التصوير عند العرب تأليف المغفور له أحمد تيمور باشا، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكي محمد حسن ص ١٥٠، ١٥١، ٢٤٧، ٢٥٠. انظر كتاب فنون الإسلام للمؤلف نفسه ص ٤٤.

الوجوه صورة النخيل المحبب إليهم، لأنه من أعظم أغذيتهم ومن مصادر ثرواتهم.

وكانت المدن تحاط بأسوار منيعة للدفاع عنها، كما كان لأصحاب كل حرفة حي خاص من أحياء المدينة يعرف بهم. وقد عرف العرب ببغضهم للنظام المركزي، فكانوا أينما حلوا يتكتلون قبائل وفرقاً متميزاً بعضها عن بعض، ولكل حي أو قسم من المدينة أبواب منيعة تفصله عن سائر الأقسام والأحياء، ويقوم الحراس على حراسة هذه الأبواب التي تغلق إذا قامت ثورة في المدينة، فينقطع الاتصال بين أجزائها المختلفة.

أ ـ تأسيس البصرة:

لم يطب للعرب المقام في «المدائن» قاعدة بلاد الفرس. لعدم تعودهم معيشة المدن الكبيرة، لأنهم فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي والكلأ والمراعي لماشيتهم التي هي أعز أموالهم، ولأن الخليفة عمر أراد أن لا يحول بينه وبين المسلمين بحر إذا أراد أن يمدهم بالجند. لذلك شرع العرب في بناء البصرة ثم الكوفة، فاختط عتبة بن غزوان البصرة في ربيع سنة ١٦ هـ.

وكانت البصرة في مبدأ أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة، فأنشىء بها أولاً المسجد[١]، وبنى بجواره دار الإمارة، وحولها خطط، لكل قبيلة منها خطة ومسجد ومقبرة، وقد اتخذت الدور من الغاب أولاً. ولما وجدوا أن الغاب لا يقوى على مقاومة النار بنوا الدور باللبن ثم بنوها بالآجر والحجارة بعد أن اتسعت ثروتهم.

ولم يكد يمضي على تأسيس البصرة عشرون سنة حتى أصبحت من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي وخاصة في التجارة بين الهند والصين بحراً. وبذلك حلت محل الأُبُلة على الخليج الفارسي[٢]، ولم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى.

وكان معظم سكان البصرة من ربيعة ومضر، ثم وفدت إليها جاليات من الهند والسند والصين، كما تردد عليها كثير من العرب للتجارة. وكان من أثر ذلك أن ظهرت فيها حياة أدبية جديدة وتأثرت الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة كما تقدم.

ب ـ تأسيس الكوفة:

ولكن العرب استوخموا مدينة البصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها، ففكروا في تأسيس مدينة أخرى أصح منها هواء وأبعد عن الرطوبات، فاختطوا الكوفة. فبعث سعد بن أبي وقاص سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان يرتادان له موضعاً تتوافر فيه هذه الشروط، فوقع اختيارهما على

---

(١) بني أولاً باللبن والطين وسقف بالعشب، ثم جدده زياد بن أبيه سنة ٤٤ هـ فبناه بالآجر والجص وسقفه بخشب الساج.

(٢) الطبري جـ ٤ ص ١٤٨، ١٥٠ ـ ١٥٨.

مكان غربي الفرات على مقربة من الحيرة.

ولما أقر الخليفة عمر هذا الاختيار غادر سعد المدائن ونزل بجنده في الكوفة في المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨ م)، وعسكر جند العرب ـ وعددهم أربعون ألفاً ـ في الخيام أولاً ثم بنوا بيوتاً من القصب. وسرعان ما أتت عليها النار، فأمر عمر بأن تبنى الدور باللبن. فاختط أبو الهياج بن مالك الأسدي شوارعها وأزقاتها، وأسس بها جامعاً وبنى في مقدمته ظلة مقامة على أساطين من الرخام. وجعل العرب المسجد في وسط المدينة حيث تفرعت الطرق والدروب، وبنى في نهاية أحد هذه الطرق دار سعد بن أبي وقاص، وتبعد عن المسجد بمائتي ذراع، واتخذ فيها بيت المال. وقام ببناء المسجد ودار الإمارة بناءون من الفرس على مثال مباني الأكاسرة. وكانت الطرق فسيحة رحبة حتى لا يحتجب عن العرب هواء البادية الذي ألفوه.

وسرعان ما زادت أهمية البصرة والكوفة حتى أصبحتا من أعظم مراكز العلم والسياسة والحرب في البلاد الإسلامية، وغدت الكوفة قصبة العراق الأعلى. فكان والي الكوفة يعين من قبله الولاة على الباب وأذربيجان وهمذان والري وأصبهان والموصل وقرقيسيا. ولكن أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن.

ولما ولي علي بن أبي طالب الخلافة ترك المدينة واتخذ الكوفة حاضرة لخلافته لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها، ووقوعها في مكان متوسط سهل الاتصال بأجزاء الدولة الإسلامية. ومما دعا علياً إلى هذا الاختيار ما عول عليه من حرب معاوية الذي امتنع عن بيعته. ولكن الأيام برهنت على أن علياً لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة. فإن تركه المدينة هدم التوازن الذي كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء من قبله. وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سرابا. فإنه لم يستطع أن يقر هذا النظام في حاضرة ملكه الجديدة. وكان علي يحب الكوفة ويؤثرها على المدينة حتى قال فيها: (الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء. والذي نفسي بيده لينتصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز). وكان إذا أشرف عليها قال: (يا حبذا مقامنا بالكوفة تعرفها جمالنا العلوفة أرض سوداء سهلة معروفة)[1].

جـ ـ تأسيس الفسطاط :

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر، أراد أن يجعلها مقراً لولايته لما فيها من عمران وأبنية، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فسأل عمر رسول عمرو: (هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب إلى عمرو: إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ١٤١.

شتاء ولا صيف؛ فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت).

ولا شك أن مدينة الإسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الإسكندر. فلم يكن بد من أن تكون الحاضرة ـ على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب ـ إما على البحر الأحمر، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية. ولما لم تكن العرب أمة بحرية، لم يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة في نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب. أضف إلى ذلك حكمة عمرو في اختيار موقع الفسطاط، لأنه كان يستطيع فيه أن يشرف على قسمي الديار المصرية شمالاً وجنوباً، ثم لقربه من الطريق إلى بلاد العرب.

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم. ولم يكن في هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط الحامية الرومية. وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة. وكانت تقع في المنطقة التي حول جامع عمرو، وتمتد شرقاً حتى قرب سفح جبل المقطم، وشمالاً حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر، وغرباً حتى النيل، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي.

وقد قيل في تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة، فقال بعضهم: إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الإسكندرية أمر بفسطاطه أن يرفع؛ فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه فقال: لقد تحرمت بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها، فأقر في موضعه، فبذلك سميت الفسطاط. وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط. أما «بطلر» فيقول: إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ Fossatum ومعناه «مدينة حصينة»، أخذه العرب عن الروم في أثناء حربهم في الشام، وربما كان هذا أرجح الأقوال.

ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولى الخطط أربعة من قواد المسلمين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل. لذلك لا يبعد أن يكون هؤلاء قد اختاروا النزول في المكان الذي نزلوا فيه أولاً لصلاحه وقربه من النيل.

وكانت بيوت الصحابة بمدينة الفسطاط في بادىء الأمر طبقة واحدة، ثم أخذت الدور تتسع وتعلو شيئاً فشيئاً، حتى صار ارتفاع أغلب الدور خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمانياً، وأصبح يسكنها المائتان من الناس بعد أن كان لا يسكنها إلا أسرة قليلة العدد.

وقد ظلت مدينة الفسطاط قاعدة الديار المصرية ومقراً للإمارة حتى بنيت مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها.

د ـ دمشق:

كانت دمشق قبل الفتح العربي مقر حكام الروم. وقد أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية

منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، وغدت أكبر المدن الإسلامية في ذلك العصر وأفخمها في الأبهة والعمارة، كما امتازت على غيرها من المدن بكثرة الأنهار والينابيع. وقد قيل إن دمشق سميت بذلك الاسم من الدمقس وهو ضرب من الحرير الذي اشتهرت به قبل الإسلام بزمن طويل.

وقد ذكر ياقوت أن دمشق كانت حصينة، أقيمت حولها أسوار منيعة بلغ ارتفاعها ثمانية أمتار وعرضها خمسة عشر قدماً.

وكان لدمشق سبعة أبواب، يرى أبراجها العالية القادم إليها من بعد عظيم. وقد شيد بها معاوية قصر الخضراء؛ وقد سمّي بهذا الاسم للون نقوشه وطلائه. ولما ولي الوليد الخلافة جمل دمشق وضواحيها بالمباني العامة. وقد سارت كلفة الوليد بالعمارة سير الأمثال. قيل: (إن الناس في دمشق كانوا في عهده يتكلمون عن العمارات وجمالها، وفي عهد سليمان عن الطعام والنساء، وفي عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن).

ومن آثار الأمويين الخالدة في دمشق مجاري مياهها، ولا يزال نهر بردى يجلب الماء إلى المدينة. وبلغ نظام مجاري الماء من الدقة بحيث أصبح لكل دار في دمشق نافورة خاصة بها، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التي شقها الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة، والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التي شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور.

هـ ـ تأسيس القيروان:

ومن المدن التي أسسها المسلمون في ذلك العصر مدينة القيروان. ذلك أن معاوية بن أبي سفيان ولى عقبة بن نافع الفهري إفريقية سنة ٤٨ هـ، وكان إذ ذاك يقيم بنواحي برقة، فدعا إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الذي بعث به معاوية، وسار إلى إفريقية، ونازل مدنها، فافتتحها عنوة، وأسلم على يده كثير من البربر.

وقد رأى عقبة على أثر انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة تحمي جند المسلمين وأموالهم من عدوان أهالي هذه البلاد عليهم، فاختار موقع القيروان لبعده عن ساحل البحر حتى يكون المسلمون بمأمن من غارات الروم. واختط عقبة في ذلك الموضع داراً للإمارة، واختط الناس حولها الخطط والدور كما بنى بها المسجد الجامع.

وكان يسكن القيروان أخلاط من الناس، من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان، وبها فريق من الفرس من أهالي خراسان. كما أقام بها البربر والروم. وكان يحيط بالقيروان سور مبني باللبن والطين، بناه القائد العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ وقد هدم زيادة الله إبراهيم بن الأغلب هذا السور في سنة ٢٠٩ هـ بعد أن خرج عليه أهل القيروان بزعامة المنصور المعروف بالطنبدي، ثم أعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور

الصنهاجي سنة ٤٤٤ هـ[١].

وقد ذكر ابن خلدون عند كلامه على ما (تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة) أنه يجب أن تحاط المدينة بالأسوار وأن تبنى إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة. كما يجب أن يراعى عند اختيار موضعها طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكداً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة، أسرع إليها العفن فأسرع المرض للإنسان والحيوان وتفشت الحميات، وقرب الزرع منها فيحصل الناس على الأقوات، وقربها من البحر ليحصل الناس على حاجاتهم من البلاد النائية. وختم ابن خلدون كلامه بقوله: إن العرب لم يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان وغيرها، وأنها كانت أقرب إلى الخراب إذ لم تراع فيها الأمور الطبيعية .

على أن كلام ابن خلدون لا ينطبق على جميع المدن التي أسسها العرب، بل ينطبق على بعضها. فإن الفسطاط مثلاً روعي عند تأسيسها الأمور الطبيعية والسياسية، لأن النيل يحدها شرقاً والجبل غرباً، وتقع المزارع بينها وبين الجبل من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى. أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا ليسهل الإشراف على الوجهين البحري والقبلي. ولما لم يكن العرب أمة بحرية لم يكن ثمة ما يدعو لاتخاذ الحاضرة على البحر الأحمر، حتى لا يحول بينهما وبين العرب ماء كما رأى عمر بن الخطاب.

٢ ـ المساجد:

أ ـ الحرم النبوي الشريف:

لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة بنى مسجده الذي دفن فيه. وكانت الأرض التي بني عليها المسجد لغلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، وكان مربداً للتمر. وقد أراد أن يهبها لله وللرسول، فأبى الرسول ﷺ إلا أن يشتريها بالثمن، وأمر بتسوية حفره وقطع ما به من النخل. وشرع الرسول ﷺ في بناء مسجده من اللبن وكان يبني فيه بنفسه. وكان سقفه من الجريد وأعمدته من خشب النخل وارتفاعه قدر قامة. وجعلت قبلته لبيت المقدس إلى أن حولت إلى الكعبة. وبنى الصُّفة وهي موضع مظلل من المسجد ليأوي إليها فقراء المسلمين، وجعل للمسجد بابين: باب عائشة، والباب الذي يقال له باب عاتكة، وباباً في مؤخر المسجد يقال له باب مليكة. وبنى بجواره بيوتاً باللبن وسقفها بجذوع من النخل. ثم زاد الرسول ﷺ في المسجد بعد فتح خيبر لازدياد عدد المسلمين.

---

(١) أبو عبيدة البكري: المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٤ ـ ٢٥.

ولما ولي عمر الخلافة أراد أن يشتري دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول ليدخلها في المسجد، فوهبها العباس لله وللمسلمين، فأدخلها عمر فيه وجعل طوله مائة وأربعين ذراعاً وارتفاعه أحد عشر ذراعاً، وجعل له ستة أبواب وحصنه (١٧ هـ). ثم بناه عثمان بن عفان بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضاً، وسقفه بالساج وزاد فيه زيادة كبيرة ونقل إليه الحصباء من العقيق (٢٩ - ٣٠ هـ).

وقد أمر الوليد بن عبد الملك الأموي عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة بإدخال حجرات زوجات الرسول ﷺ في المسجد؛ فأصبحت مساحته مائتي ذراع في مثلها. وكتب إلى امبراطور الروم يطلب منه العمال لعمارة مسجد الرسول فبعث إليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القبط. كما أرسل إليه أربعين ألف مثقال من الذهب وأحمالاً من الفسيفساء، فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجارة، وجعلوا عمد المسجد من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص، وجعل المحراب والمقصورة من الساج، ثم تولى أمراء المسلمين مسجد الرسول بالعمارة والتجديد[١].

وكانت شؤون الدولة العامة تدار في المساجد قبل إنشاء الأبنية الخاصة بدور الحكومة، ويتضح ذلك مما يقوله سير توماس أرنولد[٢]: (لم يكن المسجد مكاناً للعبادة وحدها، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية. فكان النبي ﷺ يستقبل في المسجد السفراء ويدير شؤون الدولة، ويخطب جماعة المسلمين من على المنبر في الأمور السياسية والدينية. . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد، ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه، كما كان الخليفة يلقي بعد بيعته من فوق المنبر خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان لسياسته في الحكم. فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش الذي يلقي من فوقه بيان سياسة الدولة في الأمم الدستورية).

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم أن المساجد كانت تستخدم لاجتماع العلماء فيها، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم، ثم استخدمت معاهد للتعليم يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم. وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين، كان المسجد المكان الذي تذاع فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالمصالح العامة.

ويقول سير توماس أرنولد أيضاً إن المساجد لم تلبث أن فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية، فلم تعد تمثل عرش الخليفة أو كرسي الوالي أو منصة القاضي، وغدا المسجد

---

(١) انظر لفظ يثرب في معجم البلدان لياقوت.

(٢) The caliphate, pp. 36 - 38.

مقصوراً على إقامة الخطبة الدينية، يمجد فيها الله ويصلي على النبي ﷺ ويترحم على الصحابة ويدعى للخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله ﷺ في المحافظة على الدين. ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة في الخطبة ليكون ذلك أشبه باعتراف الولايات الإسلامية بسلطة الخلفاء الإسمية.

ب ـ تأسيس الجامع العتيق[1]:

أسس هذا الجامع عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين من الهجرة. وكان على الأرض التي بنى عليها مسجد لقيسبة بن كلثوم التجيبي. وقد سأل عمرو حين عاد المسلمون من الإسكندرية قيسبة أن ينزل عن داره، وكانت تقع إلى الشمال من حصن بابليون، ليجعل مكانها مسجداً، فأجابه إلى طلبه وتصدق بها على المسلمين، ومن ثم شرع عمرو في بنائه، فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان في مبدأ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن.

ولم يكن للمسجد الذي بناه عمرو محراب مجوف. وأول من بناه قرة .بن شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦). وكان للمسجد بابان أمام دار عمر وبابان في الشمال وبابان في الغرب. وكان الخارج من زقاق القناديل"[2] يلقى ركن الجامع الشرقي محاذياً ركن جامع عمرو الغربي. وكان سقفه منخفضاً جداً، كما لم يكن للمسجد صحن. وقد اتخذ عمرو منبراً في المسجد فكتب إليه عمر بن الخطاب: (أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك)؟ فكسره عمرو.

هذا هو أقدم جامع إسلامي بني في مصر، وترجع أهميته التاريخية إلى موضعه القديم الذي بناه فيه عمرو بن العاص.

جـ ـ مسجد دمشق:

ويضرب بمسجد دمشق المثل في جماله وحسن نظامه، وأول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح، ثم بناه الوليد بن عبد الملك بين سنتي ٨٨، ٩٦ هـ. وكان الوليد كلفاً بالعمارة وخاصة عمارة المساجد. ولما عزم على بناء مسجده جمع زعماء النصارى في دمشق وعرض عليهم رغبته في إدماج كنيسة القديس يوحنا في مسجد المسلمين واستعداده لأن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى في أي مكان شاءوا، وأن يدفع إليهم ثمناً مضاعفاً، فأبوا واحتجوا بالعهد الذي أخذه

---

(١) يطلق على هذا الجامع أيضاً جامع عمرو، وتاج الجوامع، والمسجد الجامع (ابن دقماق حـ ٤ ص ٥٩).

(٢) دعي بهذا الاسم لأنه كان منازل الأشراف، وكان على أبوابهم القناديل. وإنما قيل له زقاق القناديل، لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمر، وهو من الخطط القديمة وله أربعة مسالك.

المسلمون على أنفسهم بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء.

ولكن الوليد لم يأبه لقولهم وسارع إلى هدم الكنيسة وبنى مكانها مسجد دمشق. وقد تأنق هذا الخليفة في بناء هذا المسجد، حتى قيل إنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين تقرباً إلى الله بهذا العمل الديني الجليل. قال المسعودي (مروج جـ ٢ ص ١٥٢): وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال: لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته، فوجه به إلى وهب بن منبه فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان الحكيم بن داود عليهما السلام، فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا آدم، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك لزهدت فيما بقي من طول أملك، وقصرت عن رغبتك وحيلك، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك، وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب. فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد، فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت، وقبل أن يأخذ منك بالكظم ويحال بينك وبين العمل، وكتب زمن سليمان بن داود؛ فأمر الوليد أن تكتب بالذهب على اللازوردي في حائط المسجد: ربنا الله لا نعبد إلا الله. أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين. وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة.

وقيل إن السجلات التي اشتملت على نفقات البناء نقلت إلى قصر الوليد على ثمانية عشر بعيراً لبحثها وإقرارها، فأقرها الخليفة الأموي دون بحث أو مراجعة وقال: هو شيء آخر أخرجناه لله ولا نرجو من ورائه شيئاً.

وفي الحق أن مسجد دمشق الذي يعرف الآن بالمسجد الأموي آية من آيات الفن العربي والبيزنطي، ولا يزال حافظاً لرونقه وبهائه إلى اليوم. وإن في هذا الوصف الذي وصفه به أحد أهالي دمشق لمثلاً حياً وبرهاناً ناطقاً على ما بلغه هذا المسجد من الرواء والاتقان، هو جامع المحاسن كامل الغرائب، معدود من إحدى العجائب، فقد أزر بعض فرشه بالرخام وألف على أحسن تركيب ونظام.

وقد غلا الوليد في بناء هذا المسجد. فقد كان محرابه مرصعاً بالجواهر الثمينة، عليه قناديل الذهب والفضة، ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية، حتى إن الناس أخذوا يرمونه بقصر النظر والتبذير، وأنه بناه من بيت مال المسلمين من غير فائدة تعود عليهم من وراء هذا الإسراف. وسرعان ما وصلت هذه الأقوال إلى مسامع الوليد. فخطبهم في المسجد فقال: بلغني أنكم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم يدخل لكم فيها حبة

قمح. وقد قيل: عجائب الدنيا أربع: قنطرة سنجة، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرهاء، ومسجد دمشق.

ولما رأى عمر بن عبد العزيز أن المال الذي أنفق على بناء المسجد الأموي لم يكن في موضعه، وأن بيت المال قد تأثر من جراء ذلك، عول على أن يتدارك هذه الخسائر، فينزع الفسيفساء ويستغني بالحبال عن السلاسل الذهبية التي علقت فيها المصابيح.

وقد اتفق أن وصل إلى دمشق سفراء من قبل امبراطور الروم ورغبوا في زيارة مسجد دمشق، فسمح لهم عمر، ووكل بهم رجلاً يعرف لغتهم. فلما مروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة رفعوا رؤوسهم إلى المسجد. وقد نكس رئيس الوفد رأسه واصفر وجهه فسأله من معه، فقال: إنا معشر أهل رومة نقول إن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها. ولما اتصل هذا بمسامع عمر قال: إني أرى أن مسجدكم هذا غيظ على الكفار، وترك ما عزم عليه[1].

د ـ مسجد القيروان:

ومن المساجد التي بنيت في هذا العصر مسجد القيروان، بناه عقبة بن نافع بعد أن اختط دار الإمارة في القيروان. على أن عامل هشام بن عبد الملك رأى أن هذا المسجد يضيق بالمصلين، وكتب بذلك إلى الخليفة، فأمره بشراء الأرض التي كانت بجانب المسجد.

وفي عهد إمارة يزيد بن حاتم على إفريقية أعيد بناء هذا المسجد سنة ١٠٠ هـ ثم عزم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على هدمه وتجديد بنائه وإزالة كل أثر لغيره فيه، فنصح له بعض أن يعدل عن هدم المحراب، لأن من تقدمه من الولاة توقفوا عن ذلك حين علموا أن عقبة ابن نافع هو الذي أقامه، وأشار عليه بعض البنائين بأن يدخل المحراب بين حائطين، وبذلك لا يظهر أي أثر لغيره، فأعجب زيادة الله بذلك الرأي وشرع في تجديد بناء مسجد القيروان. ولما آلت ولاية إفريقية إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، زاد في هذا الجامع وأدخل على بنائه عدة تحسينات، وبنى القبة المعروفة بقبة البهو[2].

ولد فن العمارة الإسلامية في عصر بني أمية، ولكنه سرعان ما نما وترعرع فكانت من آثار الطراز الأموي عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ووحدوا كثيراً من العناصر الفنية في أجزاء دولتهم وألقوا منها طرازاً ممتازاً[3].

---

(١) انظر لفظ دمشق في معجم البلدان لياقوت.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٤٣.

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

١ ـ طبقات الشعب:

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات، وأماكن النزهة، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

كان الخلفاء الراشدون والأمويون من بعدهم يعتمدون على العنصر العربي في إدارة شؤون الدولة العربية التي امتدت فتوحها من أسوار بلاد الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، على الرغم من أن الدين الإسلامي قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي. يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من الآيات البينات التي تجعل التقوى أساس الحكم بين المؤمنين: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾، ﴿ إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم ﴾. وما أثر عن الرسول أنه قال: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

وقد تعصب الأمويون العرب ونظروا إلى الموالي نظر السيد للمسود مما أثار روح القومية في نفوس هؤلاء الموالي، فثاروا على الحكم الأموي وانضموا إلى الخارجين على بني أمية، وأخذوا يتسلمون الفرص لإزالة دولتهم، فانضموا إلى المختار، ثم إلى الخوارج، كما اشتركوا في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، وفي فتنة يزيد بن المهلب، وفي غيرها من الثورات التي كانت ترمي إلى القضاء على بني أمية. هذا إلى أن العنصر العربي نفسه لم يكن متحد الكلمة بسبب اشتعال العصبية القبلية التي حاول الإسلام القضاء عليها. وكان تفاقم روح العصبية في خراسان خاصة من أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة العباسية على أيدي الموالي

الذين سخطوا على الحكم العربي، كما ساعدت اشتعال العصبية في الأندلس على قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل الأموي في هذه البلاد.

ومهما يكن من شيء فقد تمتع أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، بالحرية الدينية فقد تركهم العرب يدينون بما رضوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين. ففي فارس نجد سكان المدن، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف يرحبون بالدين الإسلامي. وقد عامل العرب من ظل من الفرس على مذهبه القديم معاملة حسنة، ولم يتعرضوا لأماكن عبادتهم.

وكذلك كانت الحال في بلاد الشام ومصر، فقد خير العرب أهل الذمة بين الإسلام والبقاء على دينهم، فمن أسلم منهم تمتع بما يتمتع به المسلمون، ومن بقي على دينه فرضت عليه الجزية كفاء حمايته وتأمينه على نفسه وعلى أولاده وأمواله. كما أحسن العرب معاملة أهل الذمة في بلاد الأندلس، فسمحوا لليهود الذين ذاقوا كثيراً من ألوان العسف في عهد القوط بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وأحسنوا معاملة المسيحيين الذين تمسكوا بدينهم، وكان لسياسة التسامح الديني التي أظهرها العرب نحو أهالي هذه البلاد وغيرها أثر كبير في تحول كثير منهم إلى الإسلام.

أما في مصر فإن العرب لما فتحوا هذه البلاد أصبح فيها ثلاثة عناصر من السكان: القبط وهم أهل البلاد الأصليون، وكانوا يكونون السواد الأعظم من السكان، والروم، وهم بقايا الحكم الروماني الذي قضى عليه العرب، وكان الروم واليهود يكونون أقلية ضئيلة من السكان. أما العنصر الثالث وهو العنصر العربي، فكان يتألف بعد الفتح من الجند العربي ومن القبائل العربية التي سحرتها طبيعة هذه البلاد.

وقد بلغ جند العرب في مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً، ثم أخذ هذا العدد يزداد بسبب وفود نساء هؤلاء الجند وأولادهم، واتخاذهم مصر وطناً ثانياً. أضف إلى ذلك اندماج هؤلاء العرب في أهالي البلاد الأصليين بالمصاهرة. على أنه برغم هذه الزيادة المطردة في العرب النازحين إلى مصر، طلب عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك الأموي، أن يأذن له في إسكان العرب من قبائل قيس في أرض الحوف الشرقي جهة بلبيس حيث يقيم نفر من جَديلة. وسرعان ما بلغ عدد هؤلاء القيسيين خمسة آلاف كما وفد إليها أولاد الكنز الذين يرجع نسبهم إلى ربيعة بن معد بن عدنان من عرب الشمال، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد، أي بإقليم أسوان وغيره.

وقد اشتغل العرب باستثمار الأرض وتاجروا في الإبل والخيل، وحملوا عليها غلات أرضهم إلى القلزم (وهي مدينة السويس الآن) حيث كانت تنقل إلى بلاد العرب. على أن اندماج العرب في المصريين اندماجاً فعلياً زاد زيادة واضحة بعد أن أسقط المعتصم العباسي

أسماء العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب في الريف، واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق وأخذ العنصر العربي يضعف شيئاً فشيئاً.

وكان الشعب في بلاد الأندلس يتألف من عدة عناصر، من بينها المسلمون من العرب والبربر الذين ساهموا في فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومن مسيحيي الأندلس من الأسبان الذين دخلوا في الإسلام.

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين في أماكن كثيرة، ونزل فريق من المضريين في طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها. كما نزل اليمنيون في غرناطة وقرطبة وإشبيلية، ومرسية وبطليوس. وقام العرب بدور هام في الأندلس، وكان للنزاع الذي قام بين هذه القبائل أثر كبير في إضعاف الحكم الإسلامي في هذه البلاد.

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاء الحسن في فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح، ترى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة في الشمال، حيث استهدفوا لحملات المسيحيين الذين أقاموا الأماكن الحصينة، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب وأخذوا يناصبونهم العداء، كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم في بلاد المغرب.

٢ ـ مجالس الغناء والطرب:

لم يكن الغناء والموسيقى شيئاً مستحدثاً عند العرب قبل ظهور الإسلام، فقد كان لتردد أشرافهم على بلاط كسرى وقيصر أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية، فنعموا بسماع الموسيقى والغناء. وكان لطبيعة بلادهم أثر واضح في تقدم فن الغناء، فقد كان حداة الإبل يغنون الرجز ليخففوا عن أنفسهم مشقة الطريق ووعورة السبيل.

فلما ظهر الإسلام لم يغفل العرب أثر الصوت الجميل في تلاوة القرآن الكريم وفي أذان الصلاة، فقد أثر عن الرسول ﷺ أنه طلب إلى بلال أن يؤذن للصلاة لأنه كان ندي الصوت. واستمر الحال على ذلك في عهدَ الخلفاء الراشدين الذين انصرفوا إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، حتى تحولت الخلافة إلى الأمويين، وانتشر شعراء الغزل في الحجاز من أمثال عمر بن أبي ربيعة، وقيس بن ذُرَيْح، وكثير عزة، وجميل بثينة، ومال الناس إلى أشعارهم وتغنوا بها.

وقد أخذ الأمويون كما أخذ العباسيون من بعدهم، نظام مجالسهم عن الفرس. وقد وصف الجاحظ في كتابه التاج في أخلاق الملوك في باب المنادمة، هذه المجالس في عهد

أردشير بن بابك، فقال: إنه كان أول من رتب الندماء، فجعلهم ثلاث طبقات:

فكانت الأساورة[١] وأبناء الملوك في الطبقة الأولى، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة.

ثم الطبقة الثانية، وكان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع، وهي بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم.

ثم الطبقة الثالثة، وكان مجلسهم على عشرة أذرع من الثانية، وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة. غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر، ولا مَؤُوفٌ (مصاب بآفة) ولا مرمي بأَبَنَة (عيب)، ولا مجهول الأبوين، ولا ابن صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً.

وكان الذي يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهل الحذاقة بالموسيقات والأغاني، فكانوا بإزاء هؤلاء نصب خط الاستواء.

ويقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقيات.

ويقابل الطبقة الثانية من أصحاب الفكاهات والمضحكين، وأصحاب الونج والمعازف والطنابير. وكان لا يرمز الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغتبر، وإن أمره بذلك، راجعه واحتج عليه[٢].

وكان الخلفاء الأول يستمعون في أوقات فراغهم لقصائد الشعراء. ولم يلبث الغناء أن حل محل الشعر، فكان معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد لا يظهرون للندماء، بل كان بينهم حجاب، حتى لا يطلع الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب. فقد تأخذ نشوة الطرب بلبه فيقوم بحركات لا يطالع عليها إلا خواص جواريه. وإذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو حركة غريبة صاح صاحب الستارة: (حسبك يا جارية! كفى! انتهى! اقصري!)، موهماً الندماء أن الفاعل لتلك الحركات هو بعض الجواري.

وكان بعض خلفاء بني أمية يظهرون للندماء والمغنين، ولا يحفلون بإتيان حركات تثيرها نشوة الطرب في نفوسهم[٣]. وكان يزيد بن عبد الملك يبالغ في المجون بحضرة الندماء، كما سوى بين الطبقة العليا والسفلى، وأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه، فلم يتورعوا في الرد عليه. وحذا حذوه في ذلك الوليد بن يزيد[٤].

---

(١) الأسوار: جمعها أساورة وهم الفرسان.

(٢) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٢٥ ـ ٢٦، انظر أيضاً المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ١٥١. وما يليها.

(٣) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٣٢.

(٤) الجاحظ: كتاب التاج ص ٣١ ـ ٣٢.

وفي عهد الوليد الثاني كلف الناس بالموسيقى والغناء، وكانوا يسرفون في ذلك كل الإسراف، وينفقون ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخليفة يدعوهم إلى دمشق من أقاصي البلاد. وليس أدل على كلف الأمويين بالمغنين والإنفاق عليهم عن سعة مما ذكره الطبري إذ قال: (حج يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بن عبد الملك. فاشترى حُبابة ـ وكان اسمها العالية ـ بأربعة آلاف دينار، فقال سليمان: هممت أن أحجر على يزيد، فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من أهل مصر، فلما ولي يزيد الخلافة قالت له زوجته سعدة: يا أمير المؤمنين! هل بقي في الدنيا شيء تتمناه بعد؟ قال: نعم حبابة. فأرسلت سعدة رجلاً فاشتراها بأربعة آلاف دينار، فأراحتها حتى ذهب عنها كلال السفر؛ ثم أتت بها يزيد، فأجلستها من وراء الستر وقالت: يا أمير المؤمنين! أبقي شيء من الدنيا تتمناه؟ قال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك؟ فرفعت الستر، وقالت: هذه حبابة، فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وحباها. وقد أثر تدفق طبقات المغنين المحترفين على دمشق في أخلاق الناس، وفي حياة المجتمع حتى دب الترف في الدولة.

ومن أشهر المغنين في هذا العصر «طُوَيس» مولى بني مخزوم، وكان لا يضرب بالعود، وإنما كان ينقر بالدف، عالماً بأنساب أهل المدينة. وهو أول من غنى بالمدينة غناء يدخل في الإيقاع، وهو بناء ألحان الغناء على موقعها وميزانها.

وكان أهل المدينة يؤثرون غناء طويس على كل غناء، وقد سمعهم ذات مرة وهم يشيدون بغنائه، فاستخرج دفاً ثم نقر به وغناهم بشعر عمارة بن الوليد المخزومي في خَولة بنت ثابت عارضها بقصيدته فيها:

يا خليلي نابني سهدي ... لم تَنَمْ عيني ولم تكدِ

وهو:

تناهى فيكمُ وجدي ... وصدَّع حبكم كبدي
فقلبي مُصْعَرٌ حُزْناً ... بذات الخالِ في الخَدِّ
فما لاقى أخو عِشْقٍ ... عُشَيْرَ العُشر من جَهْدِ

فأقبل عليه ابن سُرَيْج فقال: والله هذا أحسن الناس غناء (الأغاني: جـ ٢ ص ٣٥).

وكان طويس كثيراً ما يتغنى بالشعر الذي قيل في الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فيثير ما كان بينهما من عداء وتسيل بسبب ذلك الدماء (الأغاني جـ ٣ ص ٣٩).

وممن اشتهر بالغناء في العصر الأموي أبو مروان الغريض، وقد لقب بذلك لأنه كان طري الوجه نضراً غض الشباب حسن المنظر. وكان من مولدي البربر ومن رجال الأدب. إلا أن الغناء

غلب عليه بما وضعه من الألحان. وقد أخذ الغناء عن ابن سريج الذي أضمر له الحسد لما آنسه فيه من مخايل النبوغ وطرده. وعده جرير رابع أربعة اشتهروا في الغناء فقال: و (كان المغنون بمكة أربعة: فسيد ميزر، وتابع مسدد. . . وكان السيد أبو يحيى بن سريج والتابع أبو يزيد الغريض، وكان هناك رجل عالم بالصناعة فقال: كان الغريض أحذق أهل زمانه بمكة بالغناء بعد ابن سريج. وما زال أصحابنا لا يفرقون بينهما لمقاربتهما بالغناء).

وقد أبدع الغريض في الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناءه عن الجن. وكان يعترض الحجاج فيصغون إليه، خرج مرة ووقف في مكان لا يرى فيه، فغنى في شعر عمر بن أبي ربيعة:

أيها الرائح المجد ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا: طائفة من الجن حجاج[1].

وكان للقيان أثر ملحوظ في تقدم الغناء في العصر الأموي. روى المسعودي[2] أن فتى من بني أمية كان يختلف إلى قينة لبعض القرشيين. وكانت تحبه، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة، فقال لها الفتى وقد أراد أن يعرف مبلغ ميلها إليه أتحسنين أن تقولي:

أحبكم حباً بكل جوارحي فهل عندكم علم بما لكم عندي

أتجزون بالود المضاعف مثله فإن كريماً من جزى الود بالود؟

قالت: نعم! وأحسن أحسن منه وقالت:

للذي ودنا المودة بالضعـ ـف وفضل البادي به لا يجازى

لا بدا ما بنا لكم ملأ الأر ض وأقطار شامها والحجازا

فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها فازداد كلفاً بها وقال:

أنت عذر الفتى إذ هتك الستـ ـر وإن كان يوسف المعصوما

وقد أقامت هذه القينة عند ذلك الفتى الأموي حولاً ثم ماتت، فرثاها وقضى في حاله تلك. فدفنا معاً، وكان من مرثيته لها قوله:

قد تمنيت جنة الخلد للخلـ ـد فأُدخلتها بلا استئهال

ثم أخرجت إذ تطمعت بالنعـ ـمة منها والموت أحمدُ حال

وقال أشعب الطامع: هذا سيد شهيد الهوى، انحروا على قبره سبعين بدنة.

ويلاحظ أن أكثر المغنين والقيان في هذا العصر كانوا من غير العرب كما كانوا في العصر الجاهلي، لأن العرب لم يحترفوا الغناء أو يشتهروا بالموسيقى، وإنما برعوا في الشعر وخاصة الفن الغزلي في هذا العصر.

---

(١) الأغاني جـ ٣ ص ٣٦٢ ـ ٣٧٥.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧١.

ومن الآلات الموسيقية التي استعملها المغنون والموسيقيون في ذلك العصر: الصنج، وبه سمي أعشى قيس صناجة العرب لجودة شعره، والطنبور، والدريج وله أوتار كالطنبور، ويسمى الونّ، والطنطنة صوت الطنبور وضرب ذي الأوتار. ومن آلات الطرب المزمار ومن أسمائه الناي واليراع[١].

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء:

كان لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الأمم أثر كبير في تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وخاصة في عهد الأمويين. فقد استفاد معاوية من نظم الحكم التي أدخلها الروم في بلاد الشام، وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد. فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه، ووضع المقصورة لخوفه مما جرى لعلي كرم الله وجهه، فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف[٢].

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يؤم الناس في صلاة الجمعة وفي الصلوات الخمس، وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدين، ثم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز من خلفاء بني أمية. ولم يهتم غيرهم من الخلفاء بأن يؤموا الناس في الصلوات الخمس، واقتصروا على إمامتهم في صلاة الجمعة. فكان الخليفة في العصر الأموي يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر، ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، وبيده الخاتم والعصا وهما شارتا الملك. وكثيراً ما كان بعض الخلفاء الأمويين لا يحضرون صلاة الجمعة، بل ينيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة.

وقد وصف المسعودي[٣] حياة معاوية الخاصة فقال: (كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاءه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلي أربع ركعات. ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي، ثم يؤتى بالغذاء الأصغر: وهو فضلة عشائه من جدي بارد أو فرخ أو ما يشبهه، ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله لما أراد ثم يخرج فيقول: يا غلام! اخرج الكرسي، فيخرج إلى المسجد فيوضع، فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي. ويقوم الأحداث، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول ظلمت فيقول: أعزوه. ويقول عُدي علي، فيقول: ابعثوا معه، ويقول: صُنع بي، فيقول: انظروا في أمره. حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على

---

(١) ابن سيدة: المخصص جـ ٣ ص ١١ ـ ١٥

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠١.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٧٠ ـ ٧١.

السرير؛ ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه؟ فيقول: بنعمة من الله. فإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء! إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا؛ فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله، فيقول: تعاهدوهم، أعطوهم، أقضوا حوائجهم، أخدموهم. ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه، ويقدم الرجل فيقول له: اجلس على المائدة، فيجلس، فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه أمراً، فيقال: يا عبد الله! اعقب. فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي أصحاب الحوائج كلهم. وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء. ثم يرفع الغداء ويقول للناس: أجيزوا فينصرفون فيدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي، ثم يدخل فيصلي أربع ركعات، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة. فإذا كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد، والكعك المنضد والفواكه اليابسة. وإن كان وقت الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم. ويجلس إلى العصر ثم يخرج، فيصلي العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب. ولا ينادى له بأصحاب الحوائج. ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب، فيخرج فيصليها، ثم يصلي بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلي، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويسمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم، وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة. ثم تأتيه الطرف الغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات. ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفناه كل يوم).

وقد تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم، فكان قصر الخليفة في دمشق غاية في الأبهة، وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء وأعمدته بالرخام والذهب وسقوفه بالذهب، المرصع بالجواهر. ولطفت جوه النافورات والمياه الخارجية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة. وكان

الخليفة يجلس في البهو الكبير، وعلى يمينه أمراء البيت المالك، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاد، ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم.

وقد تحدث المسعودي عن حياة الترف وحب الظهور التي ميزت العرب المترفين في عهد عثمان بن عفان، فقد اقتنوا الضياع والدور وجمعوا الثروات الضخمة. ومنهم الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثين وثلثمائة ـ تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية. وما ذكره من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار. وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكناس[1] بدار الطلحتين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية شراة[2] أكثر مما ذكرنا. وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج. وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزُّهري ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً. وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات. وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار. وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف.على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار. وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك الأموال في أيامه (عثمان)، ولم يكن من ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة[3].

وفي مدينة الكوفة جمعت الأسرات البارزة مبالغ ضخمة مما كانت تدره عليهم الغنائم

---

(١) بكسر أوله موضع من بلاد غنى، عن أبي عبيدة قال جرير:

لحن الديار كأنها لم تحلل بين الكناس وبين طلح الأعزل

والكناسة بالضم هي محلة بالكوفة قتل فيها زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسن بن علي.

(٢) السراة سلسلة جبال تمتد من عرفة (قرب مكة) إلى صنعاء في الجنوب يسكنها قوم من الأزد يقال لهم أزد السراة، وهي جبال التوائية تتخللها أخاديد وتنبت فيها الكروم وقصب السكر والفرط.

(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ٤٣٤.

والأعطيات السنوية، حتى أن كوفياً رحل إلى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه[١].

ولم يكن التأنق في حياة القصور مقصوراً على الخلفاء، فقد تنافس الأمراء وكبار رجال الدولة في تجميل دمشق وغيرها من المدن العظيمة. فقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم ـ وكان والياً على الموصل في عهد هشام بن عبد الملك ـ داراً منيفة من الرخام الخالص والمرمر، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع، كما بنى خانات (فنادق) في الموصل.

وقد رأى الحر ما يعانيه أهل الموصل من المشاق في الحصول على ماء الشرب، فشق قناة ما تزال باقية إلى اليوم، وغرس الأشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة.

يقول سيد أمير علي[٢]: لم يتغير طراز البيوت وترتيبها في دمشق عما كان عليه في عهد الأمويين على الرغم من مرور مئات السنين. فترى البواب جالساً على مقعد خشبي أمام الباب كما تراه الآن في دور الأغنياء، وترى على باب دور الفقراء قطعة من المعدن أو الحديد تستخدم مطرقة للباب.

وفي داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه أروقة من الأعمدة، وأرضه من الحجارة أو الرخام، وممشى مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة. وفي الفناء نافورة تحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية، ويظللها أشجار البرتقال والليمون. وعلى جانب الفناء يقام الإيوان، وهو عبارة عن صالة فرشت بالرخام والبلاط الملون. وتستعمل قاعة الاستقبال وقت الحر. وقبالة الباب تقام عادة كوة غير نافذة مزخرفة بالأعمدة الرخامية وفوقها الطست والإبريق للوضوء.

وكانت قصور الأغنياء من طبقتين أحياناً، وعلى يمين وشمال الأبهاء أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدي إلى الأبهاء والحجرات الأخرى.

وفي الشتاء تكسى أرض الإيوان الرخامية والحجرات بالطنافس الثمينة، وتدفأ الحجرات بالمهل (الموقد). أما في الصيف فكانت النافورات والنوافذ تلطف حرارة الجو.

وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربي مطلية بالذهب. ولم تكن هناك مقاعد، فإذا كان صاحب الدار من أصحاب المراكز السامية، وضعت الطنافس فوق بعض لتكون بمثابة مقعد مرتفع له.

---

(١) الطبري. طبعة دي غوية ١: ٨٠٦.

(٢) A Short Hist. of the Arabs, p. 195.

٤ ـ الطعـام:

كانت معيشة العرب في بادىء الأمر غاية في البساطة. فكانوا في صدر الإسلام يكتفون بالقليل من الطعام الذي لم يجاوز لوناً أو لونين. وكان خير أدمهم اللحم. وكان سكان المدن أقرب إلى العناية بالطعام والتفنن فيه من سكان البوادي.

وكان النبي ﷺ وكثير من الصحابة يقلون من الطعام، لا لفقر أو شح، ولكن زهداً في الدنيا. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله. وكانوا إذا أكلوا لا يملئون بطونهم. فهذا النبي ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه».

وقد بين صاحب الفخري مبلغ زهد الخلفاء الراشدين وتقشفهم في هذه العبارة فقال: (اعلم أنها دولة لم تكن طرز دول الدنيا، وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه. والحق في هذا أن زيها قد كان زي الأنبياء وهديها هدي الأولياء، وفتوحها فتوح الملوك والكبار. فأما زيها فهو الخشونة في العيش والتقلل في المطعم والملبس. كان أحدهم يمشي في الأسواق راجلاً وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه، وفي رجله تاسومة وفي يده دزة. فمن وجب عليه حد استوفاه منه. وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم. ضرب أمير المؤمنين علي عليه السلام المثل بالعسل والخبز النقي، فقال في بعض كلامه: لو شئت لاهتديت الى مصفى العسل بلباب هذا البر. واعلم أنهم لم يتقللوا في أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم، وكسراً للنفس عن شهواتها، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها. وإلا فكل واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب. ولكن أكثر خرجهم كان في وجوه البر والقرب)[1].

وكان العرب يراعون قواعد الصحة، فلا يدخلون الطعام على الطعام، ولا يسرفون في المأكل. أثر عن الرسول ﷺ قوله: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده، ويأكلون بأيديهم لعدم وجود الملاعق والشوك في ذلك الوقت، كما كانت الحال في أوربا إلى عهد قريب. ومع ذلك ذكر الإمام أحمد أن النبي ﷺ كان يستعمل السكين في قطع اللحم.

وكان العرب كرماء يجودون بطعامهم ولا سيما أهل البوادي، حتى كانوا يوقدون النار ليلاً ليهتدي بها الضيفان الغرباء؛ يدل على ذلك قول الشاعر:

وإني لمعط ما وجدت وقائل لموقد ناري: ليلة الريح أوقد

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ٧٠ ـ ٧١.

وكانوا إذا أكلوا جميعاً بسطوا سماطاً على الأرض ثم جلسوا صفين من حوله كما نجلس اليوم حول المائدة[١].

ومن أطعمة العرب الثريد، وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم. ومنه اللمزة وهو الخبز يكسر على السمن، والكوثان، وهو الأرز والسمك، والأطرية، وهو طعام كالخيوط من الدقيق، و«الشعيرية»، وهو طعام كالخيوط صغر فتلها في حجم الشعير، والربيكة وهي شيء يطبخ من بر وتمر ويعجن بسمن، و«الجشيش»، وهو دقيق مجروش يوضع في قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ثم يطبخ، و«العكة» وهو طعام يتخذ من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى.

ومن ألوان الطعام القديد و«الصفيف» فإذا شرح اللحم وقدد فهو القديد، وإذا شرح عراضاً فهو الصفيف. والشواء، والبسيسة وهي الدقيق أو السويق يلت بالسمن أو بالزبد ثم يؤكل ولا يطبخ، والخزير، وهي الحساء من الدسم والدقيق. والخزيرة أيضاً أن تنصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير، فإذا نضج در عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة، ولا تكون الخزيرة إلا وفيها لحم[٢].

ويظهر أن الخضر لم تكن مستعملة عند العرب في طعامهم كثيراً كما هي مستعملة في طعامنا اليوم، لأن بلادهم ليست زراعية.

وينبغي ألا يغيب عنا أن العرب لما خالطوا الأمم الأخرى وتغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها، استحدثوا فيها طرقاً غير طرقهم الأولى. ففي عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق، وكانت الملاعق تصنع من الخشب، كما كانت تجلب ملاعق من الفخار من بلاد الصين. وكانوا يجلسون على الكراسي أمام مائدة الطعام التي يكسوها مفرش من القماش.

وكان معاوية بن أبي سفيان يكثر من الطعام حتى قيل إنه كان يأكل في كل يوم خمس أكلات[٣]. كما اشتهر سليمان بن عبد الملك بحبه للطعام وتفننه في اختيار ألوانه. وعرف بنهمه؛ قيل إن الطباخ كان يأتيه بالدجاجة، فلا يصبر حتى تبرد فيأخذها بكمه فيفصلها عن السفافيد. قال الأصمعي: ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله للفراريج بكمه فقال: قاتلك الله! فما أعلمك بأخبارهم؟ إنه عرضت علي جباب بني أمية فنظرت إلى جبة سليمان، وإذا كل جبة منها في كمها أثر دهن، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث، ثم قال: عليّ بجباب سليمان فأتي بها فنظرنا، فإذا تلك الآثار ظاهرة، فكساني منها جبة. فكان الأصمعي ربما يخرج أحياناً فيما يقول: هذه جبة سليمان التي كسانيها الرشيد.

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد جـ ٤ ص ٣٠٨.
(٢) ابن سيدة: المخصص جـ ٤ ص ١٢٠ ـ ١٤٨.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٢، الفخري ص ١١٦.

وكان للأكل مع الخلفاء والأمراء آداب مقررة، فينبغي ألا ينبسط الشخص في الطعام لأن الأكل مع الملوك للشرف لا للشبع مع ما في الانبساط من الجرأة وسوء الأدب[١].

٥ ـ الملابس:

ولم يكن الرسول ولا أبو بكر وعمر من بعده يتأنقون في ملبسهم، بل كان الزهد في عرض الدنيا من أبرز صفاتهم. فقد كان أبو بكر يلبس في خلافته الشملة والعباءة. قدم إليه ملوك اليمن وعليهم الحلل الموشاة بالذهب المحلاة بالتيجان. فلما رأوا ما عليه من الزهد والتواضع والنسك ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم من أفخر اللباس، حتى إن ذا الكلاع ملك حمير رؤي يوماً في سوق المدينة يمشي وعلى كتفه جلد شاة، ففزعت عشيرته وقالوا له: (فضحتنا بين المهاجرين والأنصار، قال: فأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام؟ لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا)[٢].

وكان عمر متواضعاً خشن الملبس. وقد اتبعه عماله في سائر أفعاله وأخلاقه. كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم، ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه، مع هيبة قد رزقها، وكان أكثر ركابه الإبل، ورحله مشدودة بالليف، وكذلك عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال.

وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير. وكان أبو عبيدة بن الجراح يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فلاموه على ذلك وقالوا له: إنك بالشام وحولنا الأعداء، فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال: ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر الرسول ﷺ[٣].

وكان لباس البدو يتكون من قباء طويل مشقوق من الوسط ومتدل إلى العقب ومربوط من الوسط بحزام من الجلد. ولا يزال البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا اللباس إلى اليوم.

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل، كما كانوا يرتدون في الحرب أو في ركوب الخيل أردية خاصة؛ فيلبسون السروال عادة ورداء قصيراً بدلاً من الثياب الفضفاضة المتدلية.

أما لباس الرأس فهو العمامة. وكان حجمها يختلف تبعاً للسن والمركز العلمي وغيرهما. وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة، وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقي الرقبة حرارة الشمس.

---

(١) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ١١.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ٤١٣.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤١٨.

وكانت الأردية تختلف تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعي ونوع عملهم. فكانت كسوة الفقيه أو الكاتب تختلف عن ثياب الجند وهكذا. وكان شيوخ القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل إلى الركبتين يعلوه جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين، ويشده من الوسط حزام من الحرير، وفوق ذلك الجبة؛ كما كانوا يلبسون النعال أو الأحذية.

أما ثياب المرأة العربية فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد. وإذا خرجت المرأة من بيتها ارتدت الحبرة وهي ضرب من برود اليمن. وهي ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها من التراب والطين، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة. وكانت النساء في الجاهلية يلبسن قميصاً مشقوقاً إلى الصدر.

وفي عهد سليمان بن عبد الملك شاع الوشي الذي كان يجلب من اليمن والكوفة والإسكندرية، واتخذ الناس منه جلابيب وأردية وسراويل وعمائم وقلانس. وقد بلغ من ولوعه بالوشي أنه كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه ورجال بلاطه إلا في الوشي. وكان رداؤه إذا جلس أو ركب أو ارتقى المنبر من الوشي[1].

٦ ـ المـــرأة:

كانت المرأة العربية ـ ولا تزال ـ تتمتع بقسط وافر من الحرية. وكانت النساء في عهد الخلفاء الراشدين يختلطن بالجمهور ويسمعن خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التي كان يلقيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس وغيرهما.

ويرجع اتخاذ الحريم ـ كما يقول فون كريمر[2] ـ إلى عهد الوليد الثاني الذي أدخل كثيراً من العادات البيزنطية في البلاط، واتخذ الخصيان أمناء في قصره. وكان الإغريق أول من سن تلك السنة السيئة. وقد انتقد الجاحظ هذه العادة التي انتشرت في القرن الثالث الهجري انتقاداً مراً.

واشتهر من نساء العرب في هذا العصر عائشة أم المؤمنين التي ضربت بسهم وافر في الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب وقادت جند المسلمين يوم الجمل، وأختها أسماء بنت أبي بكر وأم عبد الله بن الزبير. وقد اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم، وعكرشة بنت الأطرش التي اشتركت في الحرب بين علي ومعاوية. وكانت تحرض الجند على معاوية، وكانت المرأة العربية تصحب الجيش ويخصص لها مكان في المدن الحصينة والمعسكرات.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٢.

(٢) Orient Under the Caliphs, pp. 171-2.

وتظهر شهامة المرأة العربية حين سار الحجاج إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق[١]، وأرغم أهلها على طلب الأمان، وانضم إليه بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوي قرباه. وبقي عبد الله بن الزبير في عدد قليل من أنصاره. ولما أيقن أنه مقتول لا محالة، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال: يا أماه! قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا! فما رأيك؟ فقالت: (أنت أعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية يلعبون بها. وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين. كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فقال: يا أماه! أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. فقالت: يا بني! إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها، فامض على بصيرتك واستعن بالله، فقبل رأسها وقال: هذا رأيي، فطفقت أمه تدعو له وتشجعه)[٢].

ومن شهيرات نساء العصر الأموي أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك. وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد، الذي كان يستشيرها في مهام أمور الدولة.

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي سيدة نساء عصرها ومن أظرفهن وأحسنهن أخلاقاً. اجتمع إليها يوماً جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب، فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كلاً بألف دينار.

وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتي نبغن في الأدب وأيام العرب والنجوم. وفدت على هشام بن عبد الملك ذات يوم فقال لها: ما أوفدك؟ قالت: حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق. قال: إني سأعرفه حقك، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فأسمروا عندي الليلة، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة، فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة.

---

(١) لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة، وإنما اضطر إلى قتال ابن الزبير فحدث ما حدث عن غير قصد. وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعاً في الدين.

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

وكانت حفلات الزواج في صدر الإسلام غاية في البساطة. وأحسن مثل لذلك زواج السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ من علي بن أبي طالب.

ذكر ابن سعد أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة من الرسول فاعتذر في رفق. وقد أشار بعض الصحابة على عليّ أن يخطب فاطمة من أبيها، فقال لها الرسول ﷺ: «إن علياً يذكرك»، وقال له: أهلاً وسهلاً، وكانت هذه علامة الرضا. وكان صداق فاطمة وغيرها من بنات الرسول ﷺ خمسمائة درهم: أي نحو اثنتي عشرة أوقية ونصف[١]. وكانت فيما جهزت به فاطمة سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف وتور[٢] من أدم وقربة ومنخل ومنشفة وقدح. وقد أهدتها بعض النساء بردين من برود الأول عليها دملوجات من فضة مصفرات بزعفران[٣].

وقد تزوج علي فاطمة في شهر رجب بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها بعد أن عاد من غزوة بدر، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها[٤].

وكان الزواج عند العرب يومان: يوم الإملاك وهو يوم العقد، وفيه يجتمع ذوو الفتاة في ساحة دارهم، ويقدم أقارب الفتى. وإذا التأم جمعهم خطبهم ولي الفتى خطبة رقيقة، ثم يرد عليه ولي الفتاة في خطبة قصيرة يضمنها الرضا. ثم تنحر الجزر وتمد الموائد ويسمع الغناء من مجالس النساء. وتسمى وليمة ذلك اليوم النقيعة. واليوم الثاني يوم البناء وفيه يتبارى العرب في الاحتفال: فيلعب الفتيان بالرماح ويتسابقون على الخيل. ويبسطون الأنماط في الدار ويشدونها على الجدران؛ ويجلس النساء على النمارق وتجلى الفتاة وتلبس الحلي. ثم تسير في حشد من أترابها. ثم يغنيها النساء مشيدات بمآثر آبائها ومحامد قومها. وإذا انقضى ذلك الحفل أخذ النساء في الانصراف وودعن الفتاة بقولهن: باليمن والبركة وعلى خير طائر[٥].

٧ ـ أنواع التسلية:

وقد شغل العرب أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية كالصيد وسباق الخيل. وكان بعض خلفاء بني أمية كلفين بالصيد لفوائده الكثيرة، إذ كان الصيد يرمي ـ كما يقول صاحب الفخري (ص ٥٤) ـ إلى تمرين العساكر على الركض والكر والعطف وتعويدهم الفروسية وإدمانهم للرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس، واعتياد القتل والسفك، وتقليل المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس؛ ومنها اختيار الخيول ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض؛

---

(١) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير جـ ٨ ص ١٣.

(٢) التورة: إناء يشرب منه.

(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ١٥.

(٤) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٣.

(٥) عبد الله عفيفي: المرأة العربية جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦، ١٦١ ـ ١٦٢.

ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ المزاج؛ ومنها فضل لحم الصيد على باقي اللحوم لأنه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية فتزيد في حرارة الإنسان.

وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفاً بالصيد. وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلاجل المنسوجة منه، ويخص لكل كلب عبداً يقوم على خدمته[١].

وكان سباق الخيل أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته. ويقال إن هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات السباق. وقد اشترك في السباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء، حتى أن المسعودي يقول: إنه لم يسبق هذا السباق مثيل. وكانت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق. وكذلك كان الوليد الثاني مغرماً بسباق الخيل وله في حفلات السباق أخبار مذكورة في كتب التاريخ كالمسعودي وغيره[٢].

ومن أنواع التسلية عند العرب: الكرة، وكانوا يتدافعونها بالصوالجة، والقلة والمغلاة، وهما عودان يلعب بهما الصبيان، فيرمي الصبي بالقلة في الهواء ثم يضربها بمقلاء في يده، وهي خشبة طولها ذراع، فتستمر القلة في حركتها. وإذا وقعت كان طرفاها مجافين للأرض، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع، ثم يعترضها بالمقلاة فيضربها في الهواء فتستمر ماضية[٣].

(١) الفخري ٥٤.

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) ابن سيدة: المخصص جـ ٣ ص ١٧، ١٩.

مصـــادر الكتـــاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب وقد رتبت أسماء المؤلفين بحسب أحرف الهجاء مع ذكر سنة الوفاة.

ابن الأثير (١٢٣٨/٦٣٠): علي بن أحمد أبي الكرم.

١ ـ «الكامل في التاريخ» ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ).

٢ ـ «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ٦ أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ).

أرنولد: «سير توماس» و ـ .Arnold: Sir Thomas W.

٣ ـ «The Preaching of Islam» 3d. edition. ed. Reynold A. Nicholson, - (London, 1935).

وترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، (الطبعة الثانية) (القاهرة ١٩٤٧).

٤ ـ «The Caliphate» (Oxford, 1924).

الأزرقي (٨٤٧/٢٣٣).

٥ ـ «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» طبعة وستنفلد (جوتنجن ١٢٧٥/١٨٥٨).

الإسحاقي (القرن الحادي عشر): محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد المنوفي.

٦ ـ «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من الدول» (القاهرة ١٢٧٦ هـ).

الألوسي: السيد محمود شكري البغدادي.

٧ ـ «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣/١٩٢٤).

٨ ـ «تفسير روح المعاني» (بولاق ١٣٠٠).

أمير علي: سيد Ameer Ali: Sayed.

٩ - «A Short History of the Saracens» (London. 1954).
«مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي» ترجمة رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨).
أوليري، دي ليسي - O'leary, De Lacy.
١٠ - «Arabia Before Muhammad» (London. 1927).
برادلي: هنري - Bradley : Henry.
١١ - «The Goths» (London, 1887).
براون: إدوارد ج - Browne: Edward G.
١٢ - «Literary History of Persia-from the Earliest Times until Firdawsi» (London, 1909).
البغدادي (٤٢٩/١١٣٧): أبو منصور عبد القاهر بن طاهر.
١٣ - «الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨/١٩١٠).
البغدادي (القرن ١٣ هـ): أبو الفوز محمد أمين المشهور بالسويدي.
١٤ - «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» (بغداد ١٢٨٠ هـ).
بروكلمان: كارل - Brockelmann: Carl.
١٥ - «Geschichte der Arabiseher Litteratur» 2 vols. (Weimar, 1898 - 1902).
برونو: رودلف إرنست - Brunnow: Roudolf Ernest.
١٦ - «Traité élémentaire de Droit Civil», (Paris, 1932).
البكري (٤٨٧/١٠٩٧): أبو عبيد الله بن عبد العزيز.
١٧ - «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (باريس ١٩١١).
البلاذري (٢٧٩/٨٩٢) أحمد بن يحيى بن جابر.
١٨ - «فتوح البلدان» (القاهرة ١٣١٨ هـ).
بلانيول وريبير - Blaniol et Repert.
١٩ - «Taité élémentaire de Droit Civil» (Paris, 1932).
البيضاوي (٧٩١/١٣٨٩). ناصر الدين عبد الله بن عمر.
٢٠ - «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ومعه حاشية شيخ زادة (استانبول).
بيمونت ومونو - Bement et Monod.
٢١ - «Histoire de l'Europe au Moyen-Age» (395 - 1270 A.D.) (Paris, 1921).
الثعالبي (٤٢٩/١٠٣٧): أبو منصور عبد الملك.

٢٢ ـ «يتيمة الدهر» ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤).
الجاحظ (٢٥٥/٨٦٩): أبو عثمان عمرو بن بحر.
٢٣ ـ كتاب «التاج في أخلاق الملوك» حققه المرحوم أحمد زكي (باشا) (القاهرة ١٣٣٣/١٩١٤).
٢٤ ـ كتاب «البيان والتبيين» ٤ أجزاء (القاهرة ١٩٢٨).
٢٥ ـ كتاب «التبصر بالتجارة» (الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥) نشره وصححه وعلق عليه السيد حسني عبد الوهاب التونسي (الجزائر ١٩٠٥).
جاويش: عبد العزيز.
٢٦ ـ «الإسلام دين الفطرة».
جب: سير هاملتون أ. ر ـ Gibb. Sir Hamilton A.R.
٢٧ ـ «The Arab Conquests in Central Asia» (London, 1923).
جيبون إدوارد ـ Gibbon, Edward.
٢٨ ـ «The History of the Decline and Fall of the Roman Empire» 7 vols. ed. by J.B. Bury.
جروهمان: أدولف ـ Grohman Adolf.
٢٩ ـ «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية»، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)، الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦).
دي جوبينو ـ De Gobineau.
٣٠ ـ «Religion et Philosohpie dans l'Asie Centrale» (Paris, 1865).
جولدتسيهر: اجنتس Ignaz.
٣١ ـ «Le Dogme et la Loi de l'Islam».
ترجمه إلى الفرنسية فيلكس أران (باريس ١٩٢٠م وإلى العربية تحت عنوان «العقيدة والشريعة الإسلامية» الأساتذة: محمد يوسف موسى، وعبد العزيز عبد الحق، وعلي حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦).
٣٢ ـ «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن»، ترجمه إلى العربية الدكتور علي حسن عبد القادر (١٣٦٣/١٩٤٤).
الجهشياري (٣٣١/٩٤٢ ـ ٩٤٣): أبو عبد الله محمد بن عبدوس.
٣٣ ـ «الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨)، حققه ونشره الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
جويدي: Guidi: Ign.

٣٤ ـ «L'Arabie Antèislamique» (Paris, 1921).
حاجي خليفة (١٠٥٨/١٦٥٧): مصطفى كاتب شلبي.
٣٥ ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (ليبسيك ولندن سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨).
حتي: فيليب ك. ـ . Hitti: Phillp K.
٣٦ ـ «History of the Arabs» Vth ed. (London, 1945).
ابن حجر (٨٥٣/١٤٤٩): شهاب الدين بن علي العسقلاني.
٣٧ ـ «الإصابة في الصحابة» (القاهرة ١٣٢٣ هـ).
٣٨ ـ «فتح الباري في صحيح البخاري» (بولاق ١٣٠٠ هـ).
ابن أبي الحديد (٤٠٤/١٠١٣): الشريف الرضي محمد بن أبي أحمد الحسيني.
٣٩ ـ «كتاب نهج البلاغة» أربعة مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ).
ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤): أبو محمد علي بن أحمد.
٤٠ ـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ).
حسن إبراهيم حسن: الدكتور.
٤١ ـ «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (بولاق ١٩٣٢)، الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة ١٩٥٨).
٤٢ ـ «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن، ترجمه عن الفرنسية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم ومحمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣).
٤٣ ـ «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية تأليف أدولف جروهمان، ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤)، الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦)، الجزءان الثالث (١٩٦٢) والرابع تحت الطبع.
٤٤ ـ «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الجزء الثاني الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢).
٤٥ ـ الجزء الثالث، الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢).
٤٦ ـ «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٣).
٤٧ ـ «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني» بحث مستخرج من كتاب «المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٢٧ ـ ٢٢٩.
٤٨ ـ «الدعوة إلى الإسلام» تأليف سير توماس أرنولد، ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي. الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٧).

٤٩ ـ زعماء الإسلام (القاهرة ١٩٥٣).

٥٠ ـ اليمن البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٩).

الحلبي (١٠٤٤/١٦٣٤) علي بن برهان الدين.

٥١ ـ «إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون» المعروفة بالسيرة الحلبية (القاهرة ١٣٢٠).

حمزة الأصفهاني (٣٠٦/٩١٨): أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني.

٥٢ ـ «تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء» (ليبرج ١٨٢٤، برلين ١٣٤٠ هـ).

الخضري: الشيخ محمد (بك).

٥٣ ـ «تاريخ الأمم الإسلامية» (القاهرة ١٩١٥).

ابن خلدون (٨٠٨/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦) عبد الرحمن بن محمد.

٥٤ ـ «مقدمة ابن خلدون» (مصر ١٣١١ هـ).

٥٥ ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٧٤ هـ).

ابن خلكان (٦٨١/١٢٨١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي.

٥٦ ـ «وفيات الأعيان» (مصر ١٣١٠ هـ).

دحلان: أحمد زيني.

٥٧ ـ «السيرة النبوية والآثار المحمدية» (على هامش السيرة الحلبية) (القاهرة ١٣٢٠ هـ).

الدردير: أحمد بن محمد بن أحمد.

٥٨ ـ «الشرح الكبير» (بولاق ١٣١٩ هـ).

در منجم: إميل ـ Dermenghem: Emile.

٥٩ ـ «La Vie de Mahomet» (Paris, 1930).

ابن دقماق (٨٠٩/١٤٠٦ ـ ١٤٠٧): إبراهيم بن محمد المصري.

٦٠ ـ «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» جـ ٤، ٥ (القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣).

الدروي: الدكتور عبد العزيز.

٦١ ـ «مقدمة في تاريخ صدر الإسلام» (بغداد ١٩٤٩).

دوزي: ر ب. أ. ـ Dozy: R.P.A.

٦٢ ـ «Essai sur l'Histoire de I'slamisme» (trad. R.V. Chauvin, Paris, 1879).

٦٣ ـ «Histoire des Musulmans d'Espagne» Leyden, 1961).

٦٤ ـ «Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes» (Amsterdam, 1845).

٦٥ ـ «Supplément aux Dictionnaires Arabes» (Leyden, 1881).

ابن الدبيغ (٩٤٤/١٥٣٧): عبد الرحمن بن علي الشيباني.

٦٦ ـ «تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول» (القاهرة ١٣٤٦ هـ).

ابن أبي دينار (١١١٠/١٦٩٨): محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني.

٦٧ ـ كتاب «المونس في أخبار إفريقية وتونس» (تونس ١٢٨٦ هـ).

الدينوري (٢٨٢/٨٩٥): أبو حنيفة أحمد بن داود.

٦٨ ـ «الأخبار الطوال» جزءان (ليدن ١٨٨٨).

الذهبي (٧٨٤/١٣٤٧ ـ ١٣٤٨): الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد.

٦٩ ـ «تذكرة الحفاظ» جزءان، الطبعة الثانية (حيدر أباد ١٣٣٣ هـ).

رفيق العظم.

٧٠ ـ «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة» (القاهرة ١٣٢١ هـ).

زكي محمد حسن: الدكتور.

٧١ ـ «الفن الإسلامي في مصر» الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).

٧٢ ـ «كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٣٧).

٧٣ ـ «الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي» (القاهرة ١٩٤٠).

٧٤ ـ «فنون الإسلام» (القاهرة ١٩٤٨).

الزنجاني: أبو عبد الله.

٧٥ ـ «تاريخ القرآن» (القاهرة ١٩٣٥).

زيدان: جرجي.

٧٦ ـ «تاريخ التمدن الإسلامي» خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦).

سيديو: ل. ب. ـ Sédillot, L.B.

٧٧ ـ «Histoire Générale des Arabs» (Paris, 1877).

السرخسي (٤٨٣/١٠٩٠): محمد بن أحمد بن أبي سهل الحنفي.

٧٨ ـ «كتاب المبسوط» (القاهرة ١٣٢٤ هـ).

ابن سعد (٢٢٠/٨٣٥): محمد.

٧٩ ـ «كتاب الطبقات الكبير» ٨ أجزاء (ليدن ١٣٢٢ هـ).

ابن سعيد (٦٧٣/١٢٧٥): علي بن موسى المغربي.

٨٠ ـ كتاب «المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ ـ

١٨٩٩ م)، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، نشره زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل كاشف (القاهرة ١٩٥٣).

ابن سلام (٢٢٤/٨٣٨ ـ ٨٣٩): أبو عبيد القاسم.

٨١ ـ «كتاب الأموال» (القاهرة ١٣٥٣ هـ).

السنهوري: الدكتور عبد الرزاق أحمد ـ Sanhoury: Dr. A.A.

٨٢ ـ «Le Califat» (Paris, 1926).

ابن سيدة: (٤٥٨/١٠٦٥ ـ ١٠٦٦): أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي.

٨٣ ـ «كتاب المخصص» ٢٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١ هـ).

السيوطي (٩١١/١٥٠٥): عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين.

٨٤ ـ «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (مصر ١٣٥١ هـ).

٨٥ ـ «تفسير الجلالين» ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٦).

٨٦ ـ «حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة» (القاهرة ١٣٢٧ هـ).

الشهرستاني (٥٤٨/١١٥٣): أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.

٨٧ ـ «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).

ابن طباطبا (٧٠٩/١٣٠٩): محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطقطقي.

٨٨ ـ «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧).

الطبري (٣١٠/٩٢٣): أبو جعفر محمد بن جرير.

٨٩ ـ «تاريخ الأمم والملوك» ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٢٦ هـ).

الطبري (٦٩٤/١٢٩٤ ـ ١٢٩٥): محب الدين أحمد بن عبد الله.

٩٠ ـ «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (حلب ١٣٤٦ هـ).

طه حسين.

٩١ ـ «حديث الأربعاء» الجزء الثاني (القاهرة ١٣٤٤ ـ ١٩٢٦).

٩٢ ـ «على هامش السيرة» (القاهرة ١٩٣٥).

٩٣ ـ «الفتنة الكبرى» عثمان (القاهرة ١٩٤٨).

ابن عبد الحكم (٢٥٧/٨٧٠ ـ ٨٧١): أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي.

٩٤ ـ «فتوح مصر» (القاهرة ١٩١٤).

ابن عبد ربه (٣٤٩/٩٤٠): شهاب الدين أحمد.

٩٥ ـ «العقد الفريد» ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦/١٩٢٨).
ابن عذاري (توفي أواخر القرن السابع الهجري): أبو محمد عبد الله محمد المراكشي.
٩٦ ـ «البيان المغرب في أخبار المغرب» نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (٨٤٨/١٨٥١ م).
عقيقي: المرحوم عبد الله (بك).
٩٧ ـ «المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها» الجزء الأول (القاهرة ١٣٣٨/١٩٢١).
علي إبراهيم حسن: الدكتور.
٩٨ ـ «تاريخ مصر في العصور الوسطى» الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٥١).
«النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٦٢).
علي عبد الرزاق ـ الأستاذ.
٩٩ ـ «الإسلام وأصول الحكم» الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٥).
الصيني (٨٥٥/ ١٤٥١): بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد.
١٠٠ ـ «عمدة القارىء بشرح صحيح البخاري» (بولاق).
١٠١ ـ «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة.
أبو الفدا (٧٣٢/١٢٣١): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه.
١٠٢ ـ «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ، القاهرة ١٣٥١ هـ).
أبو الفرج الملطي (٦٨٥/١٢٨٦): جريجوري بارهبرايس.
١٠٣ ـ «مختصر الدول» ٣ أجزاء (أكسفورد ١٦٧٣).
فلبي: هـ. ب. ـ Philby, H. St., J.B.
١٠٤ ـ «The Background of Islam» (Alexandria, 1947).
فنلي: جورج ـ Finlay, George.
١٠٥ ـ «Histoiry of the Byzantine Empire (716 - 1500). A.D. (London, 1856).
فيرنيل: هنري ـ Fournel: Henri.
١٠٦ ـ «Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes» Tome II (Paris, 1881).
ابن قتيبة (٢٧٦/ ٨٨٩): أبو محمد عبد الله بن مسلم.
١٠٧ ـ «كتاب المعارف» (١٣٥٣/١٩٣٤).
١٠٨ ـ «الإمامة والسياسة» (القاهرة ١٣٢٢ هـ).
قدورة: الدكتورة زاهية.
١٠٩ ـ «عائشة أم المؤمنين» (القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧).
القفطفي (٦٤٦/ ١٢٤٨): جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.

١١٠ ـ «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (ليبسك ١٣٢٢/١٩٠٣).
القلقشندي (٨٢١/١٤١٨): أبو العباس أحمد.
١١١ ـ «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٨).
القلقشندي (٣٢١/٩٣٣) محمد بن عبد الله.
١١٢ ـ «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب» مخطوط بدار الكتب المصرية.
كاشف: دكتورة سيدة إسماعيل.
١١٣ ـ «مصر في فجر الإسلام» (القاهرة ١٩٤٧).
كريزول: ك. أ. ك. ـ Creswell, K.A.C.
١١٤ ـ «Early Muslim Architecture, 2 vols, (Oxford. 1930, 1938).
كرد علي: محمد.
١١٥ ـ «الإسلام والحضارة العربية» الجزء الأول (القاهرة ١٣٤٩ هـ).
كريمر: ألفرد فون ـ Kremer, Alfred Von.
١١٦ ـ «Culturgeschichte des Orient unter den Chalifen» 2 vols. (Vienna, 1875), trans. by Khuda Bukhsh (Calcutta, 1920 - 27).
الكلبي (٢٠٤/٨١٩) أبو المنذر هشام بن محمد السائب.
١١٧ ـ «كتاب الأصنام» (دار الكتب المصرية ١٣٤٣/١٩٢٤).
الكندي (٣٥٠/٩٦١) أبو عمر محمد بن يوسف.
١١٨ ـ «كتاب الولاة والقضاة» (نشر روفن جست) (J. W. Gibb). (Memorial Series, vol IX, 1912).
كتاني: الأمير ليوني ـ Caetani, Prince Leone.
١١٩ ـ «Annali dell' Islam» 5 vols. (Milano, 1905-13).
لامانس: الأب هنري ـ La mmense: Pére Henri.
١٢٠ ـ «Berceau de l'Islam» (Rome, 1914).
لويس: برنارد ـ Lewis, Bernard.
١٢١ ـ «The Origins of Ismailism» (Cambridge, 1940).
ترجمه إلى العربية خليل أحمد جلو، وجاسم محمد الرجب (بغداد ١٩٤٨).
١٢٢ ـ The Arabs in History (London, 1950).
لي بون: جوستاف ـ Le Bon, Jostave.

١٢٣ ـ «La Civilisation des Arabes» (Paris, 1884).

لينبول؛ ستانلي ـ Lane-Poole, Stanley.

١٢٤ ـ «The Story of Cairo» (London, 1912).

١٢٥ ـ «History of Egypt in the Middle Ages» (London, 1892).

١٢٦ ـ «Coins and Medals» (London, 1898).

١٢٧ ـ «The Moors in Spain» (London, 1887).

ترجمه إلى العربية علي الجارم (بك) (القاهرة ١٩٤٤).

الماوردي (٤٥٠/١٠٥٧): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري.

١٢٨ ـ «الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٢٩٧ هـ، لندن ١٩٠١ م).

المبرد (٣٨٥/٩٩٥): أبو العباس محمد بن يزيد النحوي.

١٢٩ ـ «كتاب الكامل» جزءان (القاهرة ١٣٢٣).

أبو المحاسن (٨٧٤/١٤٦٩): جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي.

١٣٠ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة ١٩٣٥).

محمد عبده: الإمام.

١٣١ ـ «رسالة التوحيد» (القاهرة ١٣٢٤ هـ).

المراكشي (٦٦٩ / ١٢٧٠ ـ ١٢٧١) : محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي.

١٣٢ ـ «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (لندن ١٨٨١)، ترجمه وشرحه ا. فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣).

مرجليوث: د. س. ـ .Margoliouth: D.S.

١٣٣ ـ Mohammad and the Rise of Islam, 3rd ed. (London, 1932).

مسلم (٢٦١/٨٧٥): أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري.

١٣٤ ـ «الجامع الصحيح» ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢).

المقري (١٠٤١/١٦٣٢): شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.

١٣٥ ـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٠ /١٨٦٢).

المقريزي (٨٤٥/١٤٤١): تقي الدين أحمد بن علي.

١٣٦ ـ «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» جزءان (بولاق ١٢٧١ هـ).

ميلن: ج. جرافتون .Milne: Grafton

١٣٧ ـ «History of Egypt Under Roman Roie», (London, 1913).

ميجون: ج. .Migeon: G

١٣٨ ـ «Manuel d'Art Musulman» 2 vols, (Paris, 1920).

ميور: سير وليام تمبل ـ Muir: Sir William Temple.

١٣٩ ـ «The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall» (London, 1924).

١٤٠ ـ «The Life of Mohammed» (Edinburgh, 1923).

نلدكة: تيودور ـ Nœldeke, Theododor.

١٤١ ـ «Historians» History of the World, 27 vols, vol. I.

١٤٢ ـ «امراء غسان» ترجمه الدكتور بندلي جوزي، والدكتور قسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣).

ابن النديم (٣٨٣/٩٩٣): محمد بن إسحاق.

١٤٣ ـ «كتاب الفهرست» (القاهرة ١٢٤٨ هـ).

النوبختي (٢٣٢/٨١٧): أبو محمد الحسن بن موسى.

١٤٤ ـ «كتاب فرق الشيعة» (استانبول ١٩٣١).

النووي (٦٧٦/١٢٧٨): أبو زكريا محي الدين بن شرف.

١٤٥ ـ «تهذيب الأسماء واللغات» جزءان (القاهرة).

نيكلسون: أ. رينولد ـ Nicholson: A. Reynold.

١٤٦ ـ «Literary History of the Arabs» (Cambribdge, 1930).

ابن هشام (٢١٨/٨٣٣): أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري الحميري.

١٤٧ ـ «كتاب سيرة رسول الله ﷺ» ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٣٦ ـ ١٣٣٧).

١٤٨ ـ «التيجان في ملوك حمير» (حيدر أباد ١٣٤٧ هـ).

الهمداني (٣٣٤/٩٤٦): أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود.

١٤٩ ـ «صفة جزيرة العرب» جزءان: طبعة دافيد ميلر (ليدن ١٨٩١).

الواقدي (٢٠٨/٨٢٢): أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي المدني.

١٥٠ ـ «فتوح الشام» (القاهرة ١٣٠٢ هـ).

هل: يوسف ـ Hell: Joseph.

١٥١ ـ «Cultur der Arabera» trans. by Khuda Bakhsh, «Arab Civilisation» (Cambridge, 1926).

هيكل: الدكتور محمد حسين.

١٥٢ ـ «حياة محمد» الطبعة الثالثة (القاهرة ١٣٥٨).

١٥٣ ـ «الصديق أبو بكر» (القاهرة ١٣٦١ هـ).
١٥٤ ـ «الفاروق عمر» جزءان (القاهرة ١٣٦٤ هـ).
وستنفلد: ف. فون ـ Wustenfeld: F. Von.
١٥٥ ـ Genealogiche Tabellen der Arabischen Stamme Und.
١٥٦ ـ Die Cechichtchreiber der Araber und ihre Werke, (Gottingen, 1882).
Familien (Gottingen, 1852-3).

ياقوت (٦٢٦/١٢٢٩): شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي.
١٥٧ ـ «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (١٣٢٣/١٩٠٦).
١٥٨ ـ «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» E.J.W. Gibb Memorial, Series ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١).
اليعقوبي (٢٨٢/٨٩٥): أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.
١٥٩ ـ «تاريخ اليعقوبي» جزءان، طبعة M. Th. Houtsma (ليدن ١٨٨٣م)، طبعة النجف (العراق ١٣٥٨ هـ).
١٦٠ ـ «كتاب البلدان» طبعة دي غوية (ليدن ١٨٩٢).
أبو يوسف (١٩٢/٨٠٧ ـ ٨٠٨): يعقوب بن إبراهيم.
١٦١ ـ «كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ) و (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ).

الفهارس العامة

- فهرس الأعلام
- فهرس القبائل والمذاهب والشعوب
- فهرس الأماكن والمواقع الجغرافية
- فهرس الموضوعات

١ ـ فهرس الأعلام

حرف الألف

آدم (عليه السلام): ١٢٥، ١٥٤
آزاذ بن يابيان الهمذاني: ٣٩
آمنة بنت عامر بن الظرب: ٢٠
آمنة بنت وهب (ام الرسول): ٦٧
أبـان بن عثمـان بن عفـان: ٢٠٩، ٢٣٤، ٤٠٨، ٤٢٠
ابـراهيم (خليل الـرحمـان): ١٨، ٤٤، ٤٧، ٦٨، ٦٩، ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ١٩٤
ابراهيم بن أحمد بن الأغلب: ٤٣١
ابراهيم بن الأشتر: ٣٣٠، ٣٣٩، ٤٢٠
ابراهيم بن عبد الله بن الحسين: ٣٤٨
ابراهيم بن الوليد: ٢٧٥، ٢٧٩
أبرهة الأشرم: ٣١، ٤٦، ٤٧
أبي بن كعب: ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١١
ابن أثال. ٤١٩
احيسا (الملك): ٢٥٥
أحمد بن حنبل: ١٥٦، ٢٩١، ٤١٢، ٤٤٣
الملك أخيلا: ٢٥٥
أدريان: ٨١
ابن إدريس الازدي: ٤٠٢
أردشير بن بابك: ٣٤، ١٧٩، ٤٣٦
أرطبون الروماني: ١٩٠، ١٩١، ١٩٥
أروى بنت كريز بن ربيعة (أم عثمان): ٢٠٨
أرياط الحبشي: ٣١
اسامة بن زيد بن حارثة: ٩٤، ١٥٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٥، ٢١٩، ٢٩٧، ٣٦٦، ٣٨٣
اسد بن خيثم الغنوي: ٥٤
اسد بن عبد القسري: ٢٧٣
اسعد أبو كرب (ملك حمير): ٣١
اسعد بن زرارة: ٨٣، ٤٢٧
اسماء بنت أبي بكر: ٨٦، ١٤٩، ٤٤٦، ٤٤٧
اسماء بنت عميس: ٧٧، ٢٩٧، ٣٦٦
اسماعيل بن ابراهيم (عليهما السلام): ١٠، ١٦، ١٨، ٤٣، ٤٤، ٦٨، ١٩٤
إسماعيل بن عبد الله: ٢٧٠
اسيد بن خضير: ٨٣، ١٠٥، ١٧٦
اعشى قيس: ٤٣٩
اكثم بن صيفي: ٤٥، ٦٠، ٦٩
الأحنف بن قيس: ٢٠٩، ٢١٣، ٢٣٣، ٣١٥
الأخطل: ٢٤
الارقم بن أبي الأرقم: ٧١، ١٧٤
الاسكنـدر المقـدوني: ٣٤، ٤٢، ١٤٠، ١٤٣، ١٩٤، ٤١٧
ابو الاسود: ٤١٤
الاسود بن أبي يزيد: ٣٧٣
الاسود العنسي: ١٥، ٢٨٧، ٢٨٨
الاسود بن مقصود: ٤٧
الاشتر بن مالك: ٢٢٢، ٣٠٤
الأشعث بن قيس: ٣٠٥، ٣٧٢
الاعور بن سفيان: ٣٧٢
الأعيثر ابن أم شملة: ١٨٧
الأقرع بن حابس: ١٢٠
الأكدر بن حمام بن عامر: ٢٣٩، ٢٤٠
أمرؤ القيس: ٢٣٦

أميمة بنت عبد المطلب: ١٥٣
أمية بن أبي الصلت: ٦٠، ٦٦، ٦٩
أمية بن عبد شمس: ٤٦، ٢٢٨
أمير بن أحمد: ٢٣١
انس بن مالك: ٩٧، ١٢٩، ١٣٠، ٢٦٧
انس بن النضر: ٩٧
انستسياس: ٢٦٥
انطنيوس: ١٩٢
انمار بن معد: ١٨
اورازيوس: ٢٠٢
اوغسطس (الامبراطور): ١٩٢، ١٩٣
إياد بن معد: ١٨
اياس بن قبيصة: ٣٨، ٣٩
اياس بن مضر: ٢١
أم ايمن (مولاة الرسول): ١٥٥
أيوب (عليه السلام): ٢٥٣
أبو أيوب الانصاري: ٢٣١
أبو أيوب بن حبيب الفهري: ٢٦٢

حرف الباء

باذان (عامل كسرى): ٧٧، ١٣٣، ١٣٤
باسيلي (اسقف نقيوس): ١٩٨
باهلة بن يعصر: ٢٤
بحتر: ١٥
ابو البراء بن مالك: ٥٥
البراد الكناني: ٥٣
البراض بن قيس: ٥٣، ٥٤
البسوس بنت منقد التميمية: ٤٩، ٥٠، ٥١
بشار بن مسلم: ٢٤٨
بشير بن سعد: ١٧٠
بطلر: ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١
أبو بكر الصديق: ٧١، ٧٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٠، ١٢٦، ١٥٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٧١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠٦، ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٧، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤٤٥، ٤٤٨
ابو بلال بن أدية: ٣١٤
بلال بن رباح: ٧٣، ٨٩، ٩١، ١٠٢، ١٢٩، ١٤٠، ١٧٢
بلقيس (زوج النبي سليمان عليهما السلام): ٢٩
بليزاريوس: ٤١
بنيامين: ١٩٨
بهراه: ١٥
بودو (دوق أكيتانيا): ٢٦٣
البيضاء بنت عبد المطلب: ٢٠٨
أبو بيهس بن جابر: ٣٢١

حرف التاء

تولوز: ٢٦٣
تيم الأدرم بن غالب بن فهر: ٢٢
تيم بن مرة: ٢٣
تيودور (قائد الروم): ١٩٥، ١٩٧
تيودوسيس (الامبراطور): ١٩٢، ٢٠٢، ٢٠٣

حرف الثاء

ثابت بن اسماعيل: ٤٣
ثابت بن قطنة: ٢٤٦
ثابت بن قيس: ١٠٥

ثابت بن نعيم: ٢٧٩
ثعلبة بن عمرو: ١٥، ٤٠

حرف الجيم

جابر بن عبد الله: ٢٤١
الجارود بن المعلى: ٢٨٧
جالينوس: ٤١٩
جبرئيل (عليه السلام): ٤١٠
جبلة بن الأبهم: ١٨، ٤٢، ١٨٧، ٣٧٣
جبون: ١٩٩، ٢٠١
جبير بن مطعم: ٣٦٥
جثم بن قسي بن منبه: ٢٠
جديلة بن عبد الله العنبري: ٢١
جذيمة الأبرش: ٣٥
الجراح بن عبد الله: ٢٧٠
ابن جرموز: ٣٠١
ابن جريج: ٤١٣
جرير بن عبد الله البجلي: ١٨٢، ٣٠٣، ٣٧٢
جساس بن مرة: ٢٤، ٤٩، ٥٠، ٥١
جستنيان (امبراطور الروم): ٣١، ٣٧، ٣٩، ١٧٩، ٤١٧
الجعد بن درهم: ٢٧٥
جعفر بن ابي طالب: ٧٠، ٧٧، ٧٨، ١١٦، ١٦٦، ٢١٩، ٢٣٤
جفنة بن عمرو: ١٥، ٣٩
جليلة بنت مرة بن شيبان: ٤٩، ٥٠
جميل بثينة: ٤١٦، ٤٣٥
أبو جندل بن سهيل بن عمرو: ١٠٩
جهجاه بن مسعود الغفاري: ١٠٥
أبو جهل بن هشام: ٧٣، ٧٦، ٧٩، ٩٢، ٩٣
جوستاف لي بون: ١٩٩
الكونت جوليان: ٢٥٦، ٢٥٧
جويرية بنت الحارث (زوج الرسول): ١٠٤، ١٥٣، ٣٦٦
جيفر بن الجندي: ١٣١

حرف الحاء

الحارث بن جبلة: ٣٩، ٤١
الحارث الجفني: ٣٩
الحارث بن الحكم: ٢٩٤
الحارث بن سريج: ٢٧٣، ٣٣٥
الحارث بن أبي شمر: ٣٧، ٣٨، ٤١، ١٣١
الحارث بن أبي ضرار: ١٠٤
الحارث بن فهر: ٢٢
الحارث بن كلدة: ٤١٩
الحارث بن مرة: ٢٥٢
الحارث بن هشام: ١٢٤، ١٥٤
حاطب بن أبي بلتعة: ١٣١، ١٣٧، ١٣٨
حبابة (جارية يريد): ٢٨٠، ٤٣٧
حبيب بن سلمة: ٣٧٢
حبيب بن مسلمة: ١٨٣
حبيب بن مندة المهري: ٢٥٩
حبيب بن المهلب: ٢٤٥
حبيبة بنت أبي سفيان: ٢٢٩
حبيش: ٣٧٢
الحجاج بن عمرو: ١٤٤
الحجاج بن يوسف: ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٨١، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨١، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤١٢، ٤٤٧
حجر بن عدي: ٣٢٦
(ابو حذيفة). ٢٠٩
حذيفة بن بدر: ٥١، ٥٢
حذيفة بن محصن: ٢٨٨
حذيفة بن اليمان: ٤٠٩، ٤٢٣
الحر بن عبد الرحمن الثقفي: ٢٦٢
الحر بن يزيد التميمي: ٣٢٧
الحر بن يوسف: ٤٤٢

حرب بن أمية: ٥٣، ٥٥، ٢٢٩
حريث بن قطنه: ٤٢٦
حسان بن ثابت: ٣٩، ١٠٧، ١٣٠، ٢٢٠، ٤١٤، ٤١٥
حسان بن مالك: ٢٣٨
الحسن البصري: ٣٤٣
الحسن بن صالح بن جني: ٣٤٥
الحسن بن علي بن أبي طالب: ٢١٣، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٢ ٣١٢، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٨، ٣٦٦
الحسين بن علي بن أبي طالب: ٢١٣، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٧، ٣٦٦
ابن حصن التيمي: ٣١٤
الحصين بن نمير: ٢٣٧، ٣٣٨، ٣٤٠
الحطم بن ضبيعة: ٢٨٧
حفصة بنت عمر (زوج الرسول): ١٥٣، ٣٠٠ ٤٠٩، ٤١٠
الحكم بن ابي الصلت: ٢٢٢
الحكم بن العاص: ٧٩، ٢٣٨، ٢٩٤
الحكم بن عمرو الغفاري: ٢٣١
الحكم بن عوانة الكلبي: ٢٥٣
الحكم بن كيسان: ٩٣
الحكم بن هشام: ١٧٤
حكيم بن جبلة: ٢٥٢
حكيم بن حزام: ١٢٩، ١٥٥
حليشة بن داهر: ٢٥٣
حليمة بنت ذؤيب السعدية (مرضعة الرسول): ١٩، ٦٧
ابو حمزة الخارجي: ٢٧٢، ٣١٧، ٣١٨
حمزة بن عبد المطلب (الشهيد): ٦٨، ٩٢، ٩٧، ١٢٨، ١٧٥، ٣٠٢
حمل بن بدر: ٥١
حناطة: ٤٧
حنظلة بن بيهس: ٣١٤
حيان بن ظبيان السلمي: ٣١٢
حيان النبطي: ٢٤٨
حيي بن أخطب النضيري: ٩٩، ١٠١

حرف الخاء

خاتون (أميرة بخارى): ٢٣١
خارجة بن حدافة: ١٧٣، ٢٢٥
خالد بن جعفر الكلابي: ٣٨
خالد بن سعيد بن العاص: ٧٨
خالد بن عبد الله القسري: ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٣٣
خالد بن الوليد: ٣٩، ٩٦، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١٢٣، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٤، ٢٦٩، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٩٣
خالد بن يزيد بن معاوية: ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٧٦، ٤١٨، ٤١٩
حباب بن الأرت: ٧٣، ١٧٤
خبابة (جارية يزيد): ٢٧٢
خداش بن زهير: ٥٥
خديجة (زوج النبي محمد ص): ٦٦، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٥
خر خسرة بن البينجان بن المرزبان بن وهرز: ٣٣
أبو خزيمة بن ثابت: ٤٠٩
خزيمة بن مدركة بن الياس: ٦٢
خسرو: ١٣٦
خسرويه (الطبيب): ٤١٩
خصفة بن قيس: ٢٤
ابو الخطار (مولى الاندلس): ٢٦٤
خلاد بن سويد: ١٠٣
خليد بن عبد الله الحنفي: ٢٣١

الخليل بن احمد: ٤١٤
الخنساء: ٢٣
خولة بنت ثابت: ٤٣٧
ام الخير بنت الحريش البارقية: ١٤٩، ٣٠٢

حرف الدال

دارا (ملك الفرس): ٣٤، ٤٢
دارس بن قسي بن منبه: ٢٠
داود النبي (ص): ٣٦٠
داود بن علي العباسي: ٢٧٤
الدجال: ٣٣٤
دحية بن خليفة الكلبي: ١٣١، ١٣٧
ابو الدرداء: ١٧٢، ٣٩٨
دريد بن الصمة: ١١٨
دقلديانوس: ٢٠٣

حرف الذال

ذبيان بن بغيض بن ربث بن غطفان: ٥١
ابا ذر الغفاري: ١٥٧، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٢٤
ذي الأصبغ العدواني: ٤٥

حرف الراء

رافع بن ابي رافع. ١٤٤
ابو رافع (خازن بيت المال): ٢٢٤
الربيع بن الربيع بن ابي الحقيق: ١٤٤
الربيع بن زياد العبسي: ٥٢، ٢٣١
ربيعة بن معد بن عدنان: ٤٣٤
ربيعة بن نزار: ٢٤
الرجّال بن عنفوة: ٢٨٦
رستم (القائد): ١٨٠، ١٨١
رفاعة بن سموأل القرظي: ١٢٨
رفاعة بن قيس: ١٤٤
رقية بنت محمد رسول الله (ص): ٧٧، ٢٠٨
روبيس: ١٨٦
روح بن زنباع: ٣٦٢
رودريك القوطي: ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩
رومانوس: ١٨٧

حرف الزاي

الزباء: ٣٥
الزبير بن العوام: ٧١، ٧٧، ٩٠، ٩٦، ١٦٩، ١٧١، ١٩٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٥، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٥٦، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٢١، ٤٤٢
زرادشت: ٦٤، ٦٦، ١٨٠
الزرقاء بنت عدي بن قيس: ١٤٩
زفر بن الحارث: ٣٤٠
زهرة بن قصي بن كلاب: ٢٣
زهير بن أبي سلمى: ٥٢
زهير بن أمية: ٧٩
زهير بن قيس: ٢١
زياد بن أبيه: ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٣١٣، ٣٢٦، ٣٦٢، ٣٦٧، ٤١٢
زياد بن الأصفر: ٣٢٢
زياد بن سمية: ٣٣٧
زيادة الله بن ابراهيم: ٤٣١
زيان بن عبد العزيز: ٢٤٢
زيد بن ثابت: ٢٠٩، ٢٤٠، ٢٤٦، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٩٧، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤٤١
زيد بن حارثة الكلبي (زيد بن محمد): ٧٠، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٣٧، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦
زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي: ٢٧٣، ٢٧٨، ٣٣٣، ٣٤٧
زيد بن عمرو بن نفيل: ١٧٣
زينب بنت جحش: ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥
زينب بنت عامر بن الظرب: ٢٠

حرف السين

السائب بن الاقرع: ٣٧٢
سارة (زوج النبي ابراهيم الخليل عليه السلام): ١٠
سالم (مولى ابي حذيفة): ٢٠٩، ٤٠٨
سالم (كاتب هشام): ٣٦٢
ساويرس: ١٩٩
السدي: ٢٦٨، ٢٦٩، ٤١٣
سديو: ١٩٩، ٢٠١
سراقة بن عمرو: ١٨٣
سعد بن أبي وقاص: ٧١، ٩٠، ٩٣، ١٦٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٠، ٣٠٦، ٣٥٦، ٣٨٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٤١
سعد بن شميس بن طوق: ٤٩
سعد بن عبادة: ١٠١، ١٧٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧
سعد بن مسعود: ٣٢٥
سعد بن معاذ: ٨٣، ١٠١، ١٠٣، ٣٦٥، ٣٦٦
سعدى (أم زيد بن حارثة): ١٥٤
سعدة (زوجة يزيد): ٤٣٧
سعيد بن جبير: ٤١٢
سعيد بن خالد: ١٨٧
ابو سعيد الخدري: ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤١
سعيد بن زيد بن عمرو: ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦
سعيد بن العاص: ٢١٢، ٢١٣، ٢٤٠، ٢٨٨، ٣٠١، ٣٦٢، ٣٧٢، ٤٠٩، ٤١٠
سعيد بن عبد الملك: ٢٦٨
سعيد بن عثمان بن عفان: ٢٠٩، ٢٣١، ٢٤٨
سعيد بن عمرو الحريشي: ٢٧١
سعيد بن قيس: ٣٧٢
سعيد بن المسيب: ٢٠٩، ٢٢٩، ٤٤١
سفرونيوس (البطرق): ١٩١
سفنتيلا: ١٧٩
سفيان بن أمية: ٢٢٩
ابو سفيان بن الحارث: ١١٨
ابو سفيان بن حرب: ٥٥، ٥٧، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٢٩، ٢٣٨، ٢٨٤
سفيان بن عبد الله: ٣٧٢
سفيان بن عوف: ٢٣١
سقراط: ٩
سلام بن أبي الحقيق: ٩٩، ١١٢
سلامة (جارية يزيد): ٢٧٢
سلمان الفارسي: ١٠٢، ١٤١، ٣٨٦، ٤٢٣
أم سلمة (زوج النبي ﷺ): ١٠٩، ١٥٣، ٣٠٠
سلمة بن حنظلة: ٣٣٨
سليط بن عمرو العامري: ١٣١، ١٣٢
سليمان النبي (ﷺ): ٢٩، ١٥٢، ٤٣٠
سليمان (سفير هشام): ٢٥٢
سليمان بن صرد: ٣٢٩
سليمان بن عبد الملك: ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٦، ٣١٦، ٣٨٣، ٤٢٦، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٤، ٤٤٦
سليمان بن هشام بن عبد الملك: ٢٧٩
السمح بن مالك: ٢٦٣
سمية (ام عمار بن ياسر): ٧٣
ام سنان بنت حشيمة بن خرشة: ١٤٩
سنان بن دبر الجهني: ١٠٥
سنبوية الفارسي: ٣٤٤
سهيل بن عمرو: ١٠٨، ٢٨٥
سوتسنج بن هزوان: ٢٥٢
سودة بنت زمعة: ١٥١
سويد بن مقرن: ٢٨٨
السيد الحميري: ٣٣٢
سيف بن ذي يزن: ٣٢، ٣٣

حرف الشين

شارتل مارتل (شارل المطرقة): ٢٦٣، ٢٦٤
الامام الشافعي: ١٥٦

شبث بن ربعي: ٣٠٩
شبيب الخارجي: ٣١٦، ٣٢٣
شجاع بن وهب: ١٣١
شرحبيل بن حسنة: ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ٢٨٦، ٢٨٨
الامبراطور شرلمان: ٣٥٢
شريح بن الحارث: ٣٩٨، ٤٠٣
شريح بن هانىء الحارثي: ٣٠٦
شقيق بن سلمة الاسدي: ٤١٢
شمر يرعش (ملك حمير): ٣١
ابن شهاب الزهري: ١٣٢
شهر بن باذان: ٢٨٧
شوذب (من بني يشكر): ٣١٦، ٣١٧
شيبة بن عثمان بن ابي طلحة: ١١٨
شيرويه بن كسرى: ١٣٣، ١٣٤

حرف الصاد

صالح بن عبد الرحمن: ٢٦٦، ٢٧٦
صالح بن علي: ٢٨٠، ٣٧٧
صالح بن مسرح: ٣١٦
الصعب بن معاذ: ١١٥
صفوان بن أمية: ١١٨
صفون بن المعطل: ١٠٦
صفية بنت حيي: ١٥٣، ٣٦٦
صفية بنت عبد المطلب: ٣٦٦
الصميل بن حاتم: ٢٦٤، ٢٦٥
صهيب الرومي: ١٤١، ٢١٩

حرف الضاد

ضباعة (ام الحكم): ١٢٩
الضحاك بن سفيان: ١٢٤
الضحاك بن قيس الفهري: ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٨٠، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣٨، ٣٤٠
ضرار بن الخطاب: ٤١٥
ضمام بن ثعلبة: ١٠٣
الضيزن بن معاوية بن عمران: ٣٦
ضيزى: ٦٤

حرف الطاء

طابخة بن اياس بن مضر: ٢١
طارق بن زياد: ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٤٣٥
طارق بن عمرو: ٢٥٧
ابو طالب بن عبد المطلب: ٤٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٩، ١٤٠، ١٥١، ٢١٨
ابو طالوت: ٣١٤
طرخون (ملك الصغد): ٢٤٦، ٢٤٩
طرفة بن العبد البكري: ٢٤
طريف بن مالك: ٢٥٦
طريفة بن حاجز: ٢٨٨
طفيل بن عمرو: ١١٠
طلحة بن عبيد الله: ٧١، ١٦٩، ٢١٠، ٢٢٠، ٢٩٥، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٥٦، ٤٤١
طليحة بن خويلد: ٢٨٧، ٢٨٨
طويس المغني: ٤٣٧
ابو الطيب المتنبي: ١٥، ١٥٣

حرف العين

عائشة بنت أبي بكر (أم المؤمنين): ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٧١، ١٧٢، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٣٣، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٩٧، ٤٠٨، ٤١١، ٤٢٧، ٤٤٣
عائشة بنت طلحة بن عبيد الله: ٤٤٧
عائشة بنت معاوية بن المغيرة: ٢٤٠
عاتكة (زوجة عبد الملك): ٢٧٢
الشاعر عارق الطائي: ١٦

العاص بن وائل: ٢١٥
أم عاصم بنت عمر بن الخطاب: ٢٦٧
عاصم بن عمر بن قتادة: ٨٥
عامر بن الطفيل: ٩٨
عامر بن الظرب العدواني: ٢٠
عامر بن فهيرة: ٨٦، ١٧٢
عامر بن مالك (ابو البراء): ٩٨
عباد بن الجندي: ١٣١
عبادة بن الصامت: ٨٢، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧
عبادة بن غزية: ٤٠٩
العباس بن عبادة بن نضلة الانصاري: ٨٥
العباس بن عبد المطلب: ٢٣، ٤٥، ٤٦، ٧٠، ٩٣، ٩٥، ١١٨، ١٢٥، ٢١٢، ٢١٨، ٢١٩، ٢٨٤، ٣٦٦، ٤٢٨
عباس بن عتبة بن أبي لهب: ٢٩٨
عباس بن مرداس: ٢٣، ١٢٠
العباس بن الوليد: ٢٧٢، ٣٣٤
عبد الله بن إياض: ٣١٤، ٣٢٢
عبد الله بن أبي بكر: ٨٥
عبد الله بن أبي ربيعة: ٧٨، ١٦٦، ٢١١
عبد الله بن أبي رواحة: ١١٥، ١٣٠
عبد الله بن أبي بن سلول: ٨٥، ٩٥، ٩٦، ١٠٥، ١٢٨
عبد الله بن أريقط: ٨٦
عبد الله بن الأرقم: ٣٦٢
عبد الله بن بديل: ١٨٢
عبد الله بن جبير: ٩٦
عبد الله بن جحش: ٩٢
عبد الله بن جدعان: ٥٢، ٥٥، ٥٧
عبد الله بن جعفر الطيار: ٢٣٤
عبد الله بن حازم: ٢٣١
عبد الله بن حذافة السهمي: ١٣١
عبد الله بن الحسين: ٣٤٨
عبد الله الحضرمي: ٣٧٢
عبد الله بن رافع: ٣٦٢
عبد الله بن الزبعري: ٤١٥
عبد الله بن الزبير: ١٤٩، ٢٠٩، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٩٨، ٣٠١، ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٤١٠، ٤٤٦، ٤٤٧
عبد الله بن زيد بن ثعلبة: ٨٩
عبد الله بن سبأ: ٢٢٠، ٢٢١، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٢٤
عبد الله بن سعد بن ابي سرح: ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٩٧، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٣، ٣٩٥
عبد الله بن سوار: ٢٣٠
عبد الله بن الصفار: ٣١٤
عبد الله بن طارق: ٢٥٩
عبد الله بن طاهر: ٢٠٠، ٢٠١
عبد الله بن عامر: ٢١٣، ٢١٧، ٢٣١، ٢٥٢، ٢٩٦، ٣٢٥، ٣٧٢
عبد الله بن عباس: ١٣٠، ١٥٤، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٦، ٣٠٦، ٣١٠، ٣٢٧، ٣٣٨، ٣٨٦، ٣٩٧، ٤٠٨، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤٤٦
عبد الله بن عبد ربه: ٣٣٨
عبد الله بن عبد المطلب (ابو الرسول): ٦٣، ٦٧، ٢٠٨
عبد الله بن عبد الملك بن مروان: ٣٦٩
عبد الله بن عفيف: ٣٢٨
عبد الله بن عمر بن الخطاب: ١٨٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٩٧
عبد الله بن عمر بن سليمان: ٣١٧

عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ٢٧٩، ٣١٧
عبد الله بن عمرو بن حرام: ٩٥
عبد الله بن عمرو بن العاص: ١٩٧، ٢٤٠
عبد الله بن عوف: ٧٧
عبد الله بن غطفان: ٥٢
عبد الله بن قيس (ابو موسى الاشعري): ٢١٩، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٨٣، ٣٩٨، ٤٠٩، ٤١٠
عبد الله بن كعب: ٩٥
عبد الله بن الكواء اليشكري: ٣٠٩
عبد الله بن مالك: ٤١٥
عبد الله بن مروان: ٣١٨
عبد الله بن مسعود: ٧٤، ١٥٧، ١٧٣، ٢٠٩، ٢١٩، ٢٩٣، ٣٦٦، ٣٨٠، ٣٩٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣
عبد الله بن مسلم: ٢٤٩
عبد الله بن موسى: ٢٦١
عبد الله بن وهب الراسي: ٣١١
عبد الله بن يحيى (طالب الحق): ٣١٨
عبد الرحمن بن أبي بكر: ٢٣٣، ٢٣٤
عبد الرحمن بن ابي ليلى: ١٢٨
عبد الرحمن بن الأشعث: ٢٨١، ٣٨٨، ٤٣٣
عبد الرحمن بن جحدم: ٢٣٩
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: ٣٢٧، ٤١٠
عبد الرحمن بن حجيرة: ٤٠٣
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: ٣٧٢
عبد الرحمن الداخل: ٤٣٤
عبد الرحمن بن ربيعة: ١٨٣
عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: ١١٧
عبد الرحمن بن سالم: ٤٠٣
عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب: ٣٢٥
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي: ٢٦٣
عبد الرحمن بن عديس: ٢٢٢
عبد الرحمن بن عوف: ٧١، ٩٠، ١٦٩، ١٧٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٩، ٣٥٦، ٣٦٤، ٤٤١
عبد الرحمن بن مسلم: ٢٤٩
عبد الرحمن بن معاوية: ٢٦٥
عبد الرحمن بن المغيرة: ٤٢٠
عبد الرحمن بن ملجم: ٢٢٥
عبد شمس: ٢٣، ٥٧، ٥٩، ٢٢٩
عبد العزيز (ابو عمر): ٢٧١
عبد العزيز بن الحجاج: ٢٧٥
عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان: ٣١٨
عبد العزيز بن عبد الملك: ٢٧٦
عبد العزيز بن مروان بن الحكم: ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٥، ٢٦٧، ٣٦٨
عبد العزيز بن موسى: ٢٦١، ٢٦٢
عبد العزيز بن الوليد: ٢٦٦
عبد القيس بن ربيعة: ٢٣
عبد المطلب بن هاشم: ٤٦، ٤٧، ٦٢، ٦٣، ٦٧
عبد الملك بن مروان بن الحكم: ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨١، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٨، ٣٩١، ٤٠٢، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٣٦، ٤٣٩
عبد الملك بن مسلمة: ٣٨٢
عبد مناف بن قصي: ٢٣، ٤٦
عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك: ٣١٨
عبد يا ليل بن عمرو: ١٢٢
عبس بن بغيض: ٥١
عبيد بن شربة: ٤٢٠
عبيد الله بن الحبحاب: ٢٦٣، ٣٨٣، ٤٣٤
عبيد الله بن زياد: ٢٣١، ٢٣٨، ٢٤٣، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٨، ٣٨١

عبيد الله بن قيس الرقيات: ٣٤٠، ٣٤١، ٣٦٢، ٣٧٢، ٤١٧
أبو عبيدة بن الجراح: ٧١، ١٧٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٩، ٣٥٧، ٣٩٣، ٤٠٦، ٤٢٩، ٤٤٥
عبيدة بن قيس الكوفي: ٤١٢
عتاب بن اسيد: ١٢١، ١٥٤، ٢٨٥، ٣٧٠
عتبة بن ربيعة بن عبد شمس: ٩٣، ٢٢٩
عتبة بن غزوان: ٤٢٣
عتبة بن النهاس: ٣٧٢
عثمان بن أبي العاص: ١٢٣، ٢٥٢، ٢٨٥، ٣٧٢
عثمان بن عفان: ٧١، ٧٧، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ١٠١، ١٠٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٨٣، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٧٤، ٢٨٣، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٠، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٤١
عثمان بن قيس بن ابي العاص: ٣٩٨
عثمان بن مرة الخولاني: ٤٣٠
عدوان بن عمر بن قيس بن عيلان: ١٩، ٢٠
عدي بن زيد العبادي: ٣٦، ٣٧
عدي بن كعب: ٢٣
عرفجة بن هرثمة: ٢٢٨
عروة بن أدية: ٣١٣، ٣١٤
عروة الرحال: ٥٤
عروة بن زيد: ١٨٢
عروة بن الزبير: ٤٢٠
عروة بن مسعود: ١٢٢، ١٢٣
عزيز (النبي): ١٢٤، ١٣٩
ابو عزيز بن عمير: ١٥٨
عطية بن الاسود اليشكري: ٣١٤
عفراء بنت عبيد بن ثعلبة: ٨٢، ٨٣
عقبة بن ابي معيط: ٧٩
عقبة بن عامر الفهري: ٣٩٦
عقبة بن نافع: ٢٣٢، ٤٢٦، ٤٣١
عقيل بن ابي طالب: ٢٢٤، ٣٦٥
عكرشة بنت الاطرش: ١٤٩، ٤٤٦
عكرمة بن ابي جهل: ١١١، ٢٨٦، ٢٨٨
العلاء بن الحضرمي: ١٣١، ٢٨٨، ٣٩٤
علقمة بن حكيم: ٣٧٢
علقمة بن مجزز المدلجي: ١٣٨
علي بن ابي طالب: ٢٣، ٦٣، ٦٨، ٧٢، ٨٧، ١١٩، ١٢٥، ١٢٨، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٥٢، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٤٦، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧٦، ٣٩٧، ٤٠٦، ٤١١، ٤٢١، ٤٢٤، ٤٤٦، ٤٤٨
علي بن الجعدي: ١٢٩
علي بن الحسين بن علي: ٢٧٤، ٣٤٧
عمار بن ابي سرح: ٢١١
عمار بن ياسر: ٧٣، ٩١، ٢١١، ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٤
عمارة بن الوليد المخزومي: ٧٥، ٤٣٧
عمر (وهو جعيل): ١٠٠

عمر بن أمية الضمري: ١٣١
عمر بن الخطاب: ١٨، ٤٢، ٧٣، ١١٧، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٨، ١٥٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٥٢، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٠، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤١، ٤٤٥، ٤٤٨
عمر بن ابي ربيعة: ٤٣٥، ٤٣٨
عمر بن عبد العزيز: ٢٥٣، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨١، ٣١٦، ٣١٧، ٣٨١، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤١٨، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣١، ٤٣٩
عمر بن عبيد الله بن معمر: ٣١٥
عمر بن هبيرة: ٢٧٨، ٣٨١
عمران بن حطان: ٤١٧
عمران بن سوادة: ٢٠٦
عمران بن عمرو: ١٥
عمرو بن أمية: ١٢٢، ٢١٧
عمرو بن جحاش: ٩٩
عمرو بن الحضرمي: ٩٣
ابو عمرو بن حفص بن المغيرة: ١٨٩
عمرو بن سعيد بن العاص: ٧٨، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٧٦، ٣٣١
عمرو بن العاص: ٤٥، ٧٨، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١١٧، ١٣١، ١٦٦، ١٧٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٢، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٢٥، ٤٢٩
عمرو بن عثمان بن عفان: ٢٠٩
عمرو بن عدي: ٣٥
ابو عمرو بن العلاء: ٤١٤
عمرو بن عوف: ٨٦
عمرو ابن كلثوم: ٢٤
عمرو بن لحى: ٤٣، ٦٢
عمرو بن مالك: ١٢٤
عمرو بن مرة: ١٠٤
عمرو بن مسلم الباهلي: ٢٥٣
عمرو بن معد يكرب: ٢٨٧
عمرو بن ميمون: ٢٠٧
عمرو بن هشام: ١٧٣
عمرو بن هند: ١٦
عمير بن سعد: ٣٧٢
عنترة العبسي: ٢١، ٥٢، ٥٣
عنبسة بن سحيم الكلبي: ٢٦٣
عوف بن قسي بن منبه: ٢٠
عياش بن ربيعة المخزومي: ١٢٤
عيسى بن زيد بن علي: ٣٤٨
عيسى بن مريم: ٦٩، ٧٨، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٩، ١٩٢، ٣٢٤، ٣٣٤
عيينة بن حصين: ١٢٠

حرف الغين

غوزك: ٢٥٠
غيطشة (وتيكا): ٢٥٥، ٢٦٢

حرف الفاء

فاطمة بنت اسد بن هاشم: ٢١٨
فاطمة بنت الخطاب: ١٧٤
فاطمة بنت عبد الملك: ٢٧١
فاطمة بنت عمر بن عبد العزيز: ٢٦٧
فاطمة بنت محمد رسول اللّه: ١٢٨، ١٢٩، ١٧١، ٢١٢، ٢١٩، ٤٤٨
ابو فديك: ٣١٤
فردم بن عمرو: ١٤٤
فروة بن نوفل الاشجعي: ٣١١، ٣١٢
الفرزدق: ٣٢٧، ٤١٧، ٤٤٧
الفضل بن الحسن: ١٢٩
الفضل بن العباس: ١٢٥
الفضل بن عبد المطلب: ٢١٩
الملك فمبا: ٢٥٥
فيروز (ابو لؤلؤة، قاتل عمر): ٢٠٧
فيروز بن يزد جرد: ٢٥١

حرف القاف

قابوس بن المنذر: ٤١
قارب بن الاسود: ١٢٢
القاسم بن ربيعة: ٣٧٢
قتيبة بن مسلم: ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٧٦
قثم بن العباس: ٢١٩
قرة بن شريك: ٣٦٩، ٤٢٩
قرة بن هبيرة: ٢٨٩
قسطنطين بن هرقل: ٣٩٥
قسي بن منبه: ٢٠
قسطنطين بن هرقل: ١٩١، ١٩٢، ٢١٤، ٢١٦
قصي بن كلاب بن مرة: ٢٢، ٢٣، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦
قطري بن الفجاءة: ٣١٥، ٣١٦، ٤١٧
قمعة بن اياس بن مضر: ٢١
ابن قميئة: ٩٦
قنص بن معد: ١٨
قيسة بن كلثوم: ٤٢٩
قيس بن ذُريح: ٤٣٥
قيس بن زهير: ٥٢
قيس بن ساعدة الابادي: ٦٠، ٦٦، ٦٩
قيس بن سعد بن عبادة: ٢٢٢، ٢٣٥
قيس بن العاص: ٢٨٨
قيس بن هبيرة: ١٨٩
قيس بن الهيثم: ٢١٣، ٢٣١

حرف الكاف

كافور الأخشيد: ٣٧١
كثير عزة: ٢٧٢، ٣٣٢، ٤٣٥
كريظ بن ربيعة: ٥٥
كسرى أبرويز: ٣٧، ٣٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦
كسرى انوشروان: ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٧٧، ١٣١، ١٧٠، ١٨١، ١٨٢، ٤١٧، ٤١٩، ٤٣٥
كعب بن اسد القرظي: ١٠١
كعب الاحبار: ٤١٣
كعب بن الاشرف: ١١٢، ١٤٤، ٤١٥
كعب بن زهير بن ابي سلمى: ١٣٠، ٤١٥
كعب بن لؤي القرشي: ١٧٣
كعب بن مالك: ١٣٠، ٤١٥
ام كلثوم بنت عقبة: ٣٦٦
أم كلثوم بنت محمد رسول اللّه (ﷺ): ٢٠٨
كلدة بن أمية: ١١٨
كليب بن ربيعة (ملك بني وائل): ٢٤
الكميت بن زيد الاسدي: ٤١٧
كنانة (ابن اخي الربيع): ٩٩

كنانة بن ابي الحقيق: ١٤٤
كنانة بن بشر: ٢٢٢
كيلوبترا: ١٩٢

حرف اللام

لبيد بن ربيعة: ١٥٨
لقمان الحكيم: ٤١٩
ابو لهب بن عبد المطلب: ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠
لؤي بن غالب: ١٠٧
ليكورعوس: ١٤٣
ليو الأزوري: ٢٦٥

حرف الميم

مارية القبطية: ١٣٧، ١٣٨
الامام مالك (رحمه الله): ١٥٦
مالك بن زهير: ٥١، ٥٢
مالك بن عوف: ١١٨، ١١٩، ١٢٨
مالك بن كنانة: ٤٦
مالك بن النضر: ٢١
مالك بن نويرة: ١٨٨، ٢٠٤، ٢٨٨
مانويل الأرمني: ٢١٤
ماهان الأرمني: ١٨٧، ١٨٨
المثنى بن حارثة: ١٨٠، ١٨٧، ٣٩٣
مجدي بن عمر الجهني: ٩٢
محارب بن فهر: ٢٢
محمد بن ابي بكر: ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١
محمد بن ابي حذيفة: ٢٢١، ٢٢٢، ٢٩٧، ٢٩٨
محمد بن اسحاق: ٤١٣
محمد بن الاشعث الخزاعي: ٢٤٤، ٤٢٦
محمد بن الحنفية: ٢٠٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٦، ٣٤٧
محمد بن طلحة: ٣٠٠
محمد بن عبد الله (ﷺ): ١٦، ١٩، ٢٣، ٣٣، ٣٩، ٤٤، ٥٣، ٦٠، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٥٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٧، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٩، ٤٣٥، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٨
محمد بن عبد الله بن الحسين: ٣٤٨
محمد بن عبد الملك: ٢٧٩
محمد بن علي: ٣٤٧
محمد بن القاسم بن محمد: ٢٢٧، ٢٥٣، ٢٦٦، ٢٧٦
محمد بن مروان: ٤٢٠

محمد بن مسلم بن عبيد الله (ابوبكر): ٤١٣
محمد بن مسلمة: ٢٩٧
محمد بن هشام: ٢٦٥
محمود الشبشتاري: ٣٤٣
المختار بن ابي عبيد: ٢٤٣، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٤٣٣
مخرمة بن نوفل: ٣٦٥
مخلد بن مسلمة: ٢١٤
ابو مخنف: ٣٣٧
مدركة بن اياس بن مضر: ٢١
مرة (والد جساس): ٥٠، ٥١
مروان بن الحكم: ٢٠٩، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٦، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٦٢، ٤٤٢
مروان بن محمد: ٢٧٥، ٢٧٩، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٦٢، ٤٠٣، ٤٣٦
مريم بنت عمران: ٧٨، ١٣٢
المساور بن مالك: ٥٤
المستورد بن علقمة التيمي: ٣١٢
مسروح: ١٢٤
مسروق بن أبرهة: ٣١
مسعود بن معتب الثقفي: ٥٥، ١٠٢
المسك بنت قسي بن منبه (ام نمر): ٢٠
ابو مسلم الخراساني: ٣١٧
مسلم بن عقبة المري: ٢٣٦، ٢٣٧، ٣٣٨
مسلم بن عقيل: ٣٢٧
مسلمة بن عبد الملك: ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٨
مسلمة بن مخلد: ١٩٥، ٢٣٢، ٣٦٦، ٣٩٦
المسور بن مخرمة: ٢١٠
مسيلمة الكذاب: ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨
مشعر بن رخيلة: ١٠٠
مصعب بن الزبير: ٣١٥، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١
مصعب بن عمير: ٨٣، ٨٤
مطعم بن جبير: ١٢٨
مطعم بن عدي بن نوفل: ٧٥، ٧٩، ٨٠، ١٢٨
معاد بن جبل: ٣٦٤، ٤٠٦
معاذ بن حوبن الطائي. ٣١٢
معاوية بن ابي سفيان: ٧٨، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٦٥، ٢٧٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٥، ٣٣٦، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٠، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٦، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٩، ٤٤٤، ٤٤٦
معاوية الثاني بن يزيد: ٢٣٨
معاوية بن حديج: ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٩
معاوية بن يزيد: ٣٣٨
معبد الجهني: ٣٤٤
معتب بن قشير: ١٠١
المعتصم العباسي: ٤٣٤
المعرور بن سويد: ١٥٧
المعز بن باديس بن منصور: ٤٢٦، ٤٢٧
معقل بن قيس الرياحي: ٣١٣
معيص بن عامر بن لؤي: ٢٢
مغيث بن الحارث: ٢٦٠
المغيرة بن ابي العاص: ٢٥٢
المغيرة بن شعبة: ٧٦، ٧٨، ١٢٣، ١٨١، ١٨٣، ٢٠٧، ٢٢٠، ٢٣٢، ٣٠١، ٣٠٦، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٦٢، ٣٧٢
المغيرة بن المهلب: ٢٤٥

المفضل بن ابي صفرة: ٢٤٦
مقاتل بن حيان: ٤١٣
المقداد بن الأسود: ١٩٥، ٢١١، ٤٠٩، ٤٤١
المقوقس (عامل هرقل): ١٣١، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧
منبه بن بكر بن هوازن (ثقيف): ١٩
المنذر بن الحارث الغساني: ٣٨، ٤١
المنذر بن ساوة: ٢٣، ١٣١، ٢٨٧
المنذر بن ماء السماء: ٣٢، ٣٨، ٦٤
المنذر بن النعمان بن المنذر: ٣٧
المنصور (أبو جعفر): ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٧٣، ٣١٢، ٣٤٨
المنصور الطنبدي: ٤٢٦
المهاجر بن أبي أمية: ٢٨٨
المهلب بن ابي صفرة: ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٧٧، ٣١٥، ٣٣٩، ٤١٧
موسى بن عبد الله السلمي: ٢٤٦
موسى بن عقبة: ٤٢٠
موسى بن عمران: (عليه السلام): ٧٠، ١٢٤، ٣٦١
موسى بن نصير: ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٦، ٤٣٥
مؤنس الخادم: ٣٧١
ميسون بنت بحدل: ١٦، ٢٣٦

حرف النون

النابغة الذبياني: ٢١، ٣٧، ٣٩
ناصر بن قسي بن منبه: ٢٠
نافع بن الازرق الحنظلي: ٣١٤
نافع بن الحارث: ٣٧٢
نافع بن خالد الطاحي: ٢٣١
نافع بن عبد القيس الفهري: ٢١٥
النجاشي: (ملك الحبشة): ٣١، ٤٦، ٧٧، ٧٨، ١٣١، ١٣٢، ١٣٨، ١٦٦، ١٧٠
نجدة بن عامر الحنفي: ٣٢١
النخيرجان (الفارسي): ٣٨
نزار بن معد: ١٨
النسير: ٣٧٢
نصر بن سيار: ٢٧٣، ٢٧٨
نصر بن معاوية: ٢٤
النضر بن الحارث بن كلدة: ٤١٩
النضر بن خزيمة بن مدركة: ٢١، ٢٢
النضر بن سعيد الحرشي: ٣١٧
النضيرة بنت الصيرن: ٣٦
النعمان بن امرىء القيس: ٣٥، ٣٦
النعمان بن بشير: ٣٢٦، ٣٢٧
النعمان بن مقرن المزني: ١٨٢
النعمان بن المنذر: ٣٢، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٥٣، ٥٤
نعيم بن عبد الله: ١٧٤
نعيم بن عبد كلال: ١٢٤
نعيم بن مسعود: ١٠٧، ١١٨، ١٢٨
نفيل بن حبيب: ٤٧
نقفور (امبراطور الروم): ١٠
النمر بن قاسط: ٢٠
نمير بن عامر: ٢٤
نوح (عليه السلام): ٦٤، ٨٠
نوذاذ بن وهرز: ٣٢
نوفل بن عبد مناف: ٢٣، ٧٩

حرف الهاء

هاجر (ام اسماعيل عليهم السلام): ١٠، ١٨
هاشم بن عبد مناف: ٤٦، ٦٧، ٢٢٨
ابو هاشم بن محمد بن الحنفية: ٣٤٦، ٣٤٧
هبيرة بن المشمرح: ٢٥١
هرقل (امبراطور الروم): ١١٥، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٧٩، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٦، ٢٣٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٦٧

الهرمزان (قائد الفرس): ٢٠٥
ابو هريرة: ١٥٨، ٢٠٩، ٢٤١، ٣٦٤
الامبراطور هزوان تسنج: ٢٥٢
هشام بن عبد الملك: ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٨، ٣٣٣، ٣٦٢، ٣٧٧، ٣٨٣، ٣٩٩، ٤٣٤، ٤٤٢
هشام الكلبي: ١٩
هصيص بن كعب: ٢٣
هلال بن عمرو: ٢٣
همام: ٥١
هند بنت عتبة: ٩٦، ١٢٨، ٢٠٤، ٢٢٨، ٢٢٩، ٣٠٢
هوذة بن علي الحنفي: ١٣١
ابو الهياج بن مالك الاسدي: ٤٢٤
هيرودوت: ٩

حرف الواو

وائل بن ربيعة (كليب): ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٤
واصل بن عطاء الغزال: ٣٢٠، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨
وردان (مولى عمرو): ١٩٧، ٣٨٨، ٣٩٦
ورقة بن نوفل: ٦٠، ٦٦، ٧٠، ٧٣
الوليد الثاني: ٤٣٧، ٤٤٦، ٤٤٩
الوليد بن عبد الملك بن مروان: ٢٧٦، ٣١٦، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٨، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٦، ٤٤٧
الوليد بن عتبة: ٢٣٦
الوليد بن عقبة: ٢١٣، ٣٢٦
الوليد بن المغيرة (ابو عبد شمس): ٥٧، ٧٥، ٧٦
الوليد بن هشام بن المغيرة: ٣٦٥
الوليد بن يزيد بن عبد الملك: ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣١٧، ٤٢٢، ٤٢٦
وهب بن منبه: ٤١٣، ٤٢٠، ٤٣٠
ياسر (ابو عمار بن ياسر): ٧٣
يحيى الدمشقي: ٣٤٣

حرف الياء

يحيى بن زيد بن علي: ٣٣٣
ابو يحيى بن سريح: ٤٣٧، ٤٣٨
يحيى بن علي بن الحسين: ٢٧٤
يحيى بن ميمون الحضرمي: ٣٩٩
يزدجرد بن بهران بن سابور: ٣٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢٥١، ٢٩٧
يزيد بن ابي حبيب: ١٣١
يزيد بن ابي سفيان: ١٨٦، ١٨٨، ٢٢٩، ٢٣٣
يزيد بن أبي كبشة: ١٣٥، ٢٦٦
يزيد بن الحجاج: ٢٤٦
يزيد بن خالد القسري: ٢٧٥
يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: ٢٧٩
يزيد بن سليمان بن عبد الملك: ٢٧٥
يزيد بن عبد الملك: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٤٣٧
يزيد بن علي بن الحسين: ٢٧٤
ابو يزيد الغريض: ٤٣٨
يزيد بن مروان: ٢٤٢
يزيد بن معاوية: ١٦، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٧٦، ٢٨٠، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٤١٧، ٤٤٩
يزيد بن المهلب: ٢٤٥، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨١، ٣٤٣، ٤٣٣
يزيد بن الوليد بن عبد الملك: ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٧٩
يعلى بن أمية: ٤٤١
يعلى بن منبه: ٣٧٢
يكسوم بن أبرهة: ٣١
يوحنا النحوي (يحيى): ٢٠١، ٢٠٢
يوسف (عليه السلام): ١٩٤، ٤٣٨
يوسف ذي نواس: ٣١
يوسف بن عبد الرحمن: ٢٦٤، ٢٦٥
يوسف بن عمر الثقفي: ٢٧٨، ٣٣٣، ٣٨١
يوليوس قيصر: ٢٠٢

٢ ـ فهرس القبائل والمذاهب والشعوب

حرف الألف

ازد شنوءة: ٢٣
بنو اسد بن خزيمة: ٢١، ٢٣، ٢٤، ٥٥، ٥٩، ١٣١، ٢٨٧، ٣٠١
بنو اسلم (قمعة): ٢١
بنو اسماعيل: ١٦
بنو اشجع: ١٠٠
الاباضية: ٣٤٥
الاحباش: ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٤٨
الأحلاف: ٣٤
الأرمن: ١٨٣
الازارقة: ٢٧٧، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٠، ٤١٧
الازد: ١٥، ٢٠، ٢٤، ٣٩، ٦٣، ٢٣١، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٧٢
الاسان: ٤٣
بنو الأصفر: ٣٦٦
الأفغان: ٣٣، ٣٩٣
الأفلاطونيين: ١٧٩
الانصار: ١٢١
الاوس: ٥٩، ٦٣، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٠، ١٠١، ١٠٣، ١٢٧، ١٦٧، ١٧٠، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٦٥، ٤٣٧
بني أمية (الأمويون): ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٧، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٧، ٤١٨، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٨
بنو انمار: ١٥
بنو اياد: ١٨، ١٩، ٢٤، ١٦٦
بنو اياس بن مضر: ١٩

حرف الباء

بنو باهلة: ٢٤٦
بنو بجيلة: ٢٣
البرامكة: ٢٧٧
البربر: ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٧٠، ٣١٧، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٣٥، ٤٣٧
البطالسة: ١٩٧، ٢٠٣
بنو بكر بن وائل: ٢٣، ٢٤، ٤٩، ٢٤٨، ٢٨٧، ٣١٤
بلى: ١٥، ٢٣
البلغار: ١٧٩
البوذية: ١٧٩
بنو بياضة: ١٥٤
البيزنطيين: ١٧٩، ١٨٧، ٢١٣، ٢١٦، ٢٩٧، ٣٩٥، ٣٩٦

حرف التاء

الترك: ١٨٣، ٢٣١، ٢٧٧، ٢٧٩
بنو تغلب بن وائل: ٢٤، ٤٩، ٦٥
بنو تميم بن طابخة: ٢١، ٢٤، ٥٩، ١٢٠، ٢٤٨، ٣١٩
تنوخ: ٣٤

حرف الثاء

بنو ثعلبة: ١٥
بنو ثقيف: ١٩، ٢١، ٢٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٢٣، ٢٥٢، ٢٨٥، ٢٨٦
بنو ثمود: ١٥

حرف الجيم

بنو جبلة: ١٨
جديس: ١٥
جديلة: ١٥، ٢٨٧، ٤٣٤
بنو جذام: ١٥، ١٨، ١٣٧
جرم: ١٥
جرهم: ١٥، ١٦، ١٨، ٤٣
جشم: ٢٤
بنو جفنة: ٣٩، ٤٠، ٤٢
بنو جمح: ٢٣
جهينة: ١٥، ٢٣، ١٠٤، ٣٨٠

حرف الحاء

بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة: ٥٥، ٢٨٨
بنو حارثه بن عمرو (خزاعة): ١٥، ٤٣
الحرورية: ٣٠٩
بنو حمير: ١٥، ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٦٤، ١٢٤
بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة: ٢١، ٢٣
بنو حنيفة: ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨

حرف الخاء

خثعم: ٢٣
بنو خزاعة (قمعة): ٢١، ٢٣، ٤٣، ٤٥، ٢٠٥
الخزر: ٢٧٧، ٢٧٩
الخزرج: ١٥، ٥٩، ٦٣، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ١٠١، ١٠٣، ١١٩، ١٢٧، ١٦٧، ١٧٠، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٥٤، ٤٣٧
بنو خزيمة: ٢١
خشم: ٢٣
بنو خصفة: ١٩
خصيلة: ١٩
الخوارج: ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٣٥، ٢٤٤، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٣، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٦٢، ٣٦٣، ٤١٧، ٤٣٣
خولان: ١٥

حرف الدال

بنو داحس: ٢١، ٥١
بني دوس: ١١٠

حرف الذال

بنو ذبيان بن ريث بن غطفان: ٢١، ٢٣، ٥٢، ٥٩

حرف الراء

الرافضة: ٣٣٣، ٣٤٧
بنو الرباب (طابخة): ٢١
بنو ربيعة: ١٨، ١٩، ٢٤، ٥٩، ١٦٦، ٤٢٣، ٤٢٦
الروم: ١٠، ١٨، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٦، ٥٧، ٥٨، ٩١، ١١٥، ١٢٣، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٤١، ١٧٢، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١،

١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٤، ٢١٦،
٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٦، ٢٦٥، ٢٧٠، ٣٣٠،
٣٣١، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٦،
٣٩٥، ٣٩٦، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨،
٤٣١، ٤٣٤، ٤٣٥
الرومان: ٣٤، ١٩٢، ١٩٣، ٢٥٤، ٣٦٤، ٣٨٢

حرف الزين

زبيد: ١٥
الزرداشتية: ٦٤
زناتة: ٢٥٧
بنو زهرة: ٢٩٣
بني زياد: ٥٢
الزيدية: ٣٣٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨

حرف السين

سابور: ٣٦
بنو ساسان: ٣٤، ٣٨، ١٧٩، ١٨٠، ٢٥١، ٢٩٧
بنو ساعدة: ١٧٠، ٣٥٤
بنو سالم: ١٠٥
بنو سبأ: ١١، ١٥، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩،
٣٠، ٤٣، ٥٦، ٢٥٩
السبيئة: ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٤٧
بنو سعد بن بكر: ١٥، ١٩، ٢١، ١٠٣
بنو سعدى: ١٩
بنو سلامة: ٢٠
سلول: ٢٣
بنو سليم: ١٩، ٢٣، ٢٤، ٥٥، ٩٨، ١٢٠، ٢٨٨
السنة: ٣٣٤، ٣٣٥
بنو سهم: ٤٥، ١١٥

حرف الشين

بنو شيبان: ٥٠
الشيعة: ٢٧٥، ٢٨٣، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٢٦،
٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٤،
٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦،
٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٤، ٣٦٠، ٤١٧

حرف الصاد

الصابئة: ٤١٧
بنو صعصعة: ٢٠
الصفرية: ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٢
الصقالبة: ١٣٦

حرف الضاد

بنو ضبة (طابخة): ٢١
بنو ضبيعة: ٢٤
الضجاعمة: ٣٩
بنو ضمرة: ٩٢

حرف الطاء

بنو طابخة بن الياس بن مضر: ٢١
آل أبي طالب: ٢٣٥
طسم: ١٥
بنو طيء: ١١، ١٥، ٢١، ٢٣، ٢٨٧

حرف الظاء

بني ظفر: ٨٣

حرف العين

عاد: ١٥
بنو عامر: ٢٠، ٢١، ٩٨، ٢٨٩
بنو عامر بن صعصعة: ٢٤، ١٢٤
بنو عامر بن لؤي: ١٥١
العباد: ٣٤
بنو العباس: ٣٢٨
بنو عبد الأشهل: ٨٣
بنو عبد الدار بن قصي: ٢٣
بنو عبد شمس: ٣٠٢
بنو عبد العزي بن قصي: ٢٣
بنو عبد القيس: ٢٤، ١٢٣، ٢٤٨، ٢٨٥
بنو عبد المطلب: ١٦، ٧٢، ١٢٠، ١٢٨، ٣٣٦
بنو عبد مناف: ٥٥، ٥٦
بنو عبس بن بغيض بن ريث: ٢١، ٢٣، ٥٩
بنو عدنان: ١٦، ١٨، ٤٤
بنو عدوان: ٢٣، ٢٠٤
بنو عدي بن كعب: ٧٣، ١٧٣، ٣٦٥
بنو عكرمة: ١٩
بنو عكل بن أد: ٢١
العمالقة: ٤٣
بنو عمر: ١٩

بنو عمرو بن عوف: ١٠١
بنو العنبر بن عمرو بن تميم: ٢١
بنو عنزة: ٢٤
بنو عنس: ١٥
بنو عوف: ٨٨

حرف الغين

بنو الغبراء: ٢١، ٥١
بنو غسان (الغساسنة): ١٨، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٦٠، ٦٥، ١١٥، ١٧٦، ١٨٧
بنو غطفان: ٢١، ٢٣، ٥٤، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٨، ٢٨٧
بنو غفار: ٢٩٣
بنو غفلة: ٢٤
بنو غفيلة: ٢٤
غمر: ١٨
بنو غنى: ٥٤
الغوث: ٢٨٧

حرف الفاء

الفراعنة: ١٩٤
الفرس: ١٢، ٢٣، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٥٨، ٦٤، ٧١، ٧٧، ٩١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٤١، ١٧٢، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥، ٢١٢، ٢٥١، ٢٦٩، ٢٩٧، ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٩٥، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٣٥
الفرنجة: ١٩٩، ٢٦٣، ٢٦٤
بنو فزارة: ٢١، ٢٣، ٥٢، ١٢٠
بنو فهر بن مدركة: ٢١، ٢٢
بنو فهم: ٢٣، ٢٤

حرف القاف

القبج: ١٨٣
القبط: ١٣٧، ١٣٨، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٤
قتبان: ٢٥، ٢٧، ٣٠
بنو قحطان: ١٥، ١٨، ٤٢٦
القدرية: ٣٤٣، ٣٥٤
قريش: ٢٢، ٢٣، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٨، ١٢٢، ١٢٨، ١٣٤، ١٤٠، ١٦٦، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٥، ٣٠٩، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٦٥، ٤١٠، ٤١٥، ٤٢٦
بني قريظة: ٦٥، ٨١، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١١٤، ١١٨، ١٢٨
بنو قسي (ثقيف): ١٩
قصي الأبطح: ٢٢
بنو قضاعة: ١٥، ١٦، ١٨، ٢٤، ٣٩، ٤٠، ٦٥، ١٦٦، ٢٨٨
القوط: ١٧٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٤٣٤
بنو قيس عيلان بن مضر: ١٩، ٢٠، ٥٥، ١٠٠، ١٣١، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٧٧، ٣٠١، ٣١٧، ٣٦٦، ٤٣٤
بنو القين بن جسر: ١٥٥
بنو قينقاع: ٦٥

حرف الكاف

بنو كعب بن ربيعة بن عامر: ٢٤، ٥٥
بنو كلب بن وبرة: ١٥، ١٦، ٦٤، ١٥٤، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٧٧، ٢٨٧
بنو كلاب بن ربيعة: ٢٣، ٢٤، ٥٥، ١٢٤، ٢٥٣
بنو كنانة بن خزيمة: ٢١، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٥٣، ٥٤، ٩٥، ١٠٠، ٣٠١

كندة: ١٥، ١٨، ٢٥، ٣٩
كهلان: ١٥، ٣٠
الكيسانية: ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٧

حرف اللام

بنو لحيان: ٢١، ٦٤
بنو لخم بن عدي: ١٥، ١٨، ٢٣٩
بنو ليث: ٢١٧

حرف الميم

بنو مازن: ٢٣
ماني (مذهب): ١٧٩
المجوس: ١٣٣، ٢٠٠
بنو محارب بن فهر: ١٩
بنو مخزوم: ٢٩٣، ٤٣٧
بنو مدركة بن الياس بن مضر: ٢١
بنو مدلج: ١٠٤
بنو مذحج: ١٥، ٢٣، ٦٤، ٢٨٧
المرجئة: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥
بنو مروان: ٢٧٢
بنو مزينة بن أد بن طابخة: ٢١، ٢٣، ٣٨٠
بنو المصطلق: ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٣
بنو مضر بن نزار: ١٨، ١٩، ٥٩، ١٦٦، ٢٧٧، ٤٢٣، ٤٢٦
بنو المطلب: ٢٣، ٥٧، ٧٥، ٧٩
بنو معاوية بن بكر بن هوازن: ١٩
بنو معتب: ١٢٣
المعتزلة: ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٤
بنو معد بن عدنان: ١٨، ٤٩
بنو معن: ١٥٤
بنو معين: ١١، ٢٤، ٢٦، ٢٧
مليح بن عروة: ١٢٢
بنو المؤمل: ١٧٢

حرف النون

النبط: ٦٣
نبهان: ١٥
بنو النجار: ٨١
النجدية: ٣١
بنو النخع ٣١٦ : ١٥، ١٩
النسطورية (النسطوريين): ٦٥، ١٧٩، ٢٧٠
بنو نصر بن ربيعة: ١٥، ١٦
بنو نصر بن معاوية: ٢٠، ٥٣
بنو النضر: ٢١
بنو النضير: ٦٥، ٨١، ٩٨، ٩٩، ١١٣، ١١٤، ١٥٣
بنو النمر: ٢٤
نهد: ١٥

حرف الهاء

بنو هاشم: ٢٣، ٤٤، ٥٩، ٧٥، ٧٩، ١٧١، ٢٠٣، ٢١١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٨، ٣٥٨، ٣٦٥، ٣٦٦
بنو هذيل بن مدركة: ٢١، ٢٣، ٤٧، ٢٩٣
بنو هلال: ٢٣، ٢٤
همدان: ١٥
بنو هوازن: ١٩، ٢٣، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ١١٨، ١٢٠، ١٢٨، ٢٨٦، ٢٨٨، ٣٠٣
الهون: ٢١

حرف الواو

بنو وائل: ٢٤، ٥٠
بنو وديعة: ٢٨٨
وهرز: ٣٢، ٣٣

حرف الياء

بنو يشكر: ٣١٦
يعرب: ١٥
اليعقوبية: ٦٥
اليمن (قبيلة): ٢٧٧
اليهود: ١٥، ٨١، ٩٩، ١١١، ١١٢، ١١٣

٣ - فهرس الأماكن والمواقع الجغرافية

حرف الألف مدة والألف همزة

آسيا الصغرى: ١١، ٥٧، ١٣٦، ٢١٣، ٢٤٩، ٢٦٥، ٣٧٥، ٤١٧
آشور: ٣٧٥
أبرشهر: ٢٣١
أثينا: ١٧٩، ٤١٧
اجنادين: ١٨٠، ١٩٠
أحد (جبل): ٩٥، ٩٦، ٩٨، ٣٠٣
أذربيجان: ٣١، ١٨٣، ٢١٣، ٣٧٢، ٣٧٥، ٤٠٩، ٤٢٤
أربونا: ٢٦١
أرحب: ٢٥، ٢٦
أرغونة: ٢٦١
أرمينية: ١٨٣، ٢١٢، ٢١٣، ٢٧٩، ٣٧٥
أريولة: ٢٦٠
أزدعمان: ١٥
اسبانيا: ١٧٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦١
استان: ٣١٣
أسوان: ١٢، ٤٣٤
اشبيلية: ١٧٩، ٢٦٠، ٤٣٥
اصفهان/ اصبهان: ١٨٢، ٣١٥، ٣٧٢، ٤٢٤
افريقية: ١٠، ١٣، ٢١٢، ٢١٥، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٣١٧، ٣٤٩، ٣٧١، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٣١
أكيتانيا: ٢٦٣
الأبطح: ٧٣
الابلة: ٢٤، ٤٢٣
الاحساء: ١٢، ١٣، ١٤
الاردن: ١١، ٣٩، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٧٩، ٣٣٨، ٣٧٢، ٣٨٢
الاسكندرية: ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢٢١، ٣٨٣، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٤٦
الأنبار: ٣٤، ١٨٠
الاندلس: ٢٢٨، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٨، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٩١، ٤٠١، ٤٣٤، ٤٣٥
الأهواز: ١٨٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣٧١
اللاذقية: ١٩٠
اللقاطة: ٥٢
أم دنين (المقس): ١٩٥
أمج: ٨٦
انطاكية: ١٩١
أوارة: ٥٤
أوروبا: ١٣، ٢٦٣، ٢٦٤
أوطاس: ٢٣، ١١٩
ايلة: ٢٣٩
ايلياء: ١٣٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١

حرف الباء

بئر أريس: ٣٦٧
بئر رومة: ٢٠٨، ٢٩٨
بئر زمزم: ٤٣، ٤٦
بئر معونة: ٩٨
الباب: ٤٢٤
باب توما: ١٨٩
باب الجابية: ١٨٩
باب عاتكة: ٤٢٧
باب الفرج: ١٨٩
باب مليكة: ٤٢٧
بابل: ١١، ٢٦، ٢٨، ١٨١، ٣٤٣، ٣٧٥
بابليون: ١٩٧
باحمرا: ٣٣٩
بادية السماوة: ١٢، ١٦
باذغيس: ٢٣١، ٢٤٦
البحر الأبيض المتوسط: ٥٦، ٥٧، ١٩٥، ٢١٦، ٢٥١، ٣٧٦
البحر الأحمر: ١١، ١٢، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٥٦، ٨٦، ١٠٤، ٤٢٥، ٤٢٧
بحر الخزر: ١٨٣
البحرين: ١٢، ٢٣، ٢٤، ٥٦، ١٣١، ٢٥٢، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٦٤، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٩٤
البحيرة: ٢٥٤، ٢٥٧
بحيرة طبرية: ١٨٨، ١٩٠، ١٩١
بخارى: ٢٣١، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠
البد: ٢٥٣
بدا: ٢٣
بدغيس: ٢٣١
بدقناس: ٢٢١
برشلونة: ٢٦١
برغندية: ٢٦٣
برقة: ٢١٥، ٢٢١، ٢٣١، ٤٢٦
البرلس: ٣٩٦
البرنس: ٢٦٤
بروفانس: ٢٦٣
بسلمنت: ٢٢٢
البصرة: ٢٣، ٢١٣، ٢٣١، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٧٢، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣١١، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٩، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٤١
بصرى: ٥٦، ١٨٧
البطاح: ٢٨٨
بطليوس: ٤٣٥
بطليموس: ١١
بطن أضم: ٢٣
بطن مر: ٤٣
بعاث: ٨٢
بعلبك: ٢٤٣
بغداد: ٣١٢
بلاط الشهداء: ٢٦٣
بلبيس: ١٩٤، ١٩٥، ٤٣٤
بلخ: ٢١٣، ٢٣١، ٢٤٨
البلقاء: ٣٩، ٦٢
البلقان: ١٧٩
بلنسية: ٤٣٥
البليار: ٣٧٦
بمبلونة: ٢٥٧
البنجاب: ٢٥٣، ٣٧٥
بهرسير: ٣١٣
البهنسا: ٢٢١
بواتييه: ٢٦٣
البوسفور: ١٣٦
بوشنج: ٢٣١

بيت جبرين. ١٩١
البيت الحرام: ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ١٠٨، ١١٧، ٣٢٧
بيت المقدس: ٥٦، ٨٠، ١٤٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥
بيروت: ١٩١
بيرون: ٢٥٣
بيسان: ١٩٠
بيشة (باليمن): ١٩، ٢٣
بيكند: ٢٣١، ٢٤٨

حرف التاء

تبالة. ٢٣
تبوك: ٣٩، ١٢٣، ١٥٢، ٢٠٨، ٢١٩
تدمر: ٣٧، ٣٩، ٤١، ٦٣
تربة: ٢٣، ٢٤
تربونة: ٢٦٣
ترمذ: ٢٤٦
تفليس: ٢١٣
تكريت: ١٨، ٣٦
التل الكبير: ١٩٥
تندونياس: ١٩٥
تهامة: ١٢، ١٨، ١٩، ٢١، ٤٧، ٥٤، ٩٥، ١٠٠، ٢٨٨، ٤٣٨
تور: ٢٦٣
تونس: ٢٥٧
تيماء: ٢٣، ٦٥، ١١٣، ١١٥

حرف الجيم

الجابية: ١٨٦، ١٩١، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٧٦
جامع عمرو: ٢٤٢
الجبال: ٢٤٤
جبال البرانس: ٢٦١، ٢٦٣
حبال رضوى: ٢١، ٢٣
جبال السراة: ١٢
الجبل: ٢٦٠
جبل أحا: ١١، ١٦
جبل ثور: ٨٥، ٨٦
جبل رضوى: ٣٣٢
جبل الرماة: ٩٦
حبل سلع: ١٠٢
جبل سلمى: ١١، ١٦
جبل الصفا. ٧١، ٧٢
جبل صنعاء: ٢٠٥
جبل طارق: ٢٥٧
جبل قدسا: ٢٣
جبل الاجرد: ٢٣
الجبل الأحمر: ١٩٥
جبل الاشعر: ٢٣
جبل المقطم: ٢٤٢، ٤٢٥
جبل وارة: ٢٣
جبل يشكر: ٤٢٧
جبلة: ١٨٨، ١٩١
جدة: ٤٣، ٥٦
جرجان: ١٨٢، ١٨٣، ٢١٣، ٢٦٥
جرش: ٦٤، ٣٧١
الجرف: ١٠٠، ٤٤١
الجزيرة: ١٠، ١٨، ٢٤، ٤٥، ٦٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٨٣، ١٩٣، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣١٥، ٣١٧، ٣٧٥
جزيرة أيبريا: ١٧٩
الجزيرة الخضراء: ٢٥٦، ٢٥٧
جزيرة رودس: ٣٩٦
جزيرة الروضة: ١٩٥، ٣٩٦
الجعرانة: ١١٩، ١٢٠
جلولاء: ١٨١
جليقية: ٢٦١، ٢٦٢

الجندل: ٣٧١
جنديسابور: ٤١٧، ٤١٩
الجوزجان: ٢١٣
الجوف: ٢٥، ٢٦، ٢٦١
جيرفت: ٣١٥

حرف الحاء

الحبشة: ١٠، ٢٨، ٣١، ٤٢، ٤٦، ٥٦، ٥٧، ٦٥، ٧٣، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ١١٦، ١٣٢، ١٣٨، ١٤٠، ١٦٦، ٣٥٣
الحجاز: ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٤٢، ٥٣، ٦٠، ٧٧، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٨٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٧٠، ٣٧٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٣٥
الحديبية: ١٠٩، ١١٠، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٨
حران: ٦٤، ٣١٥، ٤١٧
الحرة: ٢٤، ٣٣٨
الحرم: ٢٢، ٤٦، ٤٨
حروراء: ٣٠٩
حسمى: ١٣٧
حصن بن ابي الحقيق: ١١٥
حصن بابليون: ١٣٧، ١٩٥، ٤٢٥، ٤٢٩
حصن السلالم: ١١٥
حصن القموس: ١١٥
حصن ناعم: ١١٥
حصن الوطيح: ١١٥
حضرموت: ١٢، ١٤، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣٧١
حلب: ١٩٠، ١٩٢، ٢٦٥
حلوان: ١٨٢، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦٧، ٣٧٢
حماة: ٥٦، ١٩٠
الحمراء القصوى: ٢٤٢
حمص: ١٨، ١٨٦، ١٨٩، ١٩٠، ٢٤٣، ٢٧٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٢، ٤١٨
الحمقتان: ٢٨٨
حنين: ١١٨، ٢٨٥
حوران: ٢٣، ٢٦، ٣٩، ١٨٨
حوض الرون: ٢٦٣
الحوف: ٤٣٤
الحيرة: ١٥، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٥٣، ٦٥، ٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ٣١٧، ٤٢٤

حرف الخاء

الخابور: ٣٦
الختل: ٢٤٥
خجندة: ٢٤٥، ٢٥٠
الخرار: ٨٦
خراسان: ٣١، ١٨٣، ٢١٣، ٢٣١، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٣٣، ٣٧١، ٣٧٥، ٣٨٨، ٤١٧، ٤٢٦، ٤٣٣
خربتا: ٢٢٢
الخريبة: ٣٠١
خريبة الحديثة: ٢٧
خوارزم: ٢٤٦، ٢٤٩
خوزستان: ٤١٧، ٤١٩
خولان: ٢٨، ٣٧١
خيبر: ٢٣، ٥٤، ٦٥، ٨١، ٩٩، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٧٥، ٢٠٥، ٢٢٤، ٣٧٩

حرف الدال

الدانوب: ١٧٩
دبا: ٢٨٨
الدثنية: ١٩

دجلة: ٣٦، ٣١٣، ٣٨٩
الدربند: ١٨٣
الدلتا: ٤٢٧
دمشق: ٣٧، ٣٩، ٤١، ٥٦، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٢٢، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٩، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٤١، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٢، ٤٠٩، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٧، ٤٤٠، ٤٤٢
دومة الجندل: ٦٤، ١٢٣، ٣٠٥، ٣٠٦
الديبل: ٢٥٢، ٢٥٣
دير الجماجم: ٢٤٤
دير مقاريوس: ١٩٨، ١٩٩
الديلم: ٢٤٨
ديلمايا: ٣١٣

حرف الذال

ذي عرق: ١٨
ذي قار: ٣٩

حرف الراء

رابنجان: ٢٤٥
الربذة: ٢٤
الرصافة: ٢٧٣
الرفادة: ٤٦
رفح: ١٩٤
رمع: ٣٧١
الرملة: ١٩٠، ١٩١
رودس: ٢١٣، ٢٣٠
الرها: ١١
روما: ١٩٣
رومة: ٣١
الريّ: ١٨٢، ٢١٣، ٢٤٤، ٣١٢، ٣٧٢، ٤٢٤
الرياض: ١٣
ريدان: ٣٠

حرف الزين

زبيد (مدينة): ٣٧١
الزقاق: ٢٥٦
زويلة: ٢٣١

حرف السين

ساباط: ٣١٣
سابور: ٣١٥
سان: ٤١
سبتة: ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٢
سبتمانيا: ٢٦٣
سجستان: ٣٧١، ٣٧٥
السراة: ٢٠، ٢٣
سرجيوس: ٣٧
سردينية: ٣٧٦
سرقسطة: ٢٦١، ٤٣٥
سلطيس: ١٩٧
سلع: ١٦٣
سمرقند: ٣١، ٢٣١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠
السند: ٢٣٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧٦، ٣٧٥، ٤٢٣
سنمار: ٣٦
السواد: ٢٩٦، ٣٧٩
سواد الكوفة: ١٨
السودان: ٢٣٢
سوريا: ٩، ١٠، ١١، ٢٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٦٥، ١٣٦، ٤١٧
سوق عكاظ: ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٦٠، ٦٦، ١٥٥
السويس: ١٩٥، ٢٢٢، ٤٣٤
سيلان: ٢٥١
سيناء: ٩، ١١، ٦٤، ٦٥، ١٩٤

حرف الشين

الشام: ١٠، ١١، ١٢، ١٥، ١٨، ٢٨، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٢، ٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٧، ٩٩، ١١٥، ١٢٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٥١، ٢٦١، ٢٦٩، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٨١، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٨، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٣٤، ٤٤٧
الشاهجان: ٢١٣
شبه جزيرة العرب: ١٣
الشحر: ١٢
الشربة: ٥٢
شغبا: ٢٣
شهر زور: ٣١٢

حرف الصاد

الصالحية: ١٩٥
صرواح: ٢٧
الصعيد: ٢١٤، ٢٢١، ٤٣٤
الصغانيان: ٢١٣، ٢٤٨
الصغد: ٣١، ٢٤٦، ٢٤٨، ٤٢٩
الصفا: ٢٠٦
الصُّفة: ١٢٩، ٤٢٧
صفين: ٢٢٠، ٢٢١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٠
صقلية: ٤١، ٣٧٦
صنعاء: ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤٦، ٤٨، ٦٤، ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٧١، ٣٧٢
الصين: ٣١، ٥٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٦، ٤٢٣، ٤٣٣

حرف الطاء

الطائف: ١٣، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٥٣، ٦٣، ٨٠، ٩٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٣، ٢٨٥، ٢٩١، ٣٣٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٩٢، ٤١٩
الطالقان: ٢١٣، ٢٣١
طبرستان: ١٨٣، ٢١٢، ٢٦٥، ٣١٥، ٣٧١
طخارستان: ٢١٣، ٢٧٣
طرابلس: ٢١٥
طرنوط: ١٩٧
طلبيرة: ٢٦١
طلوشة: ٢٦٣
طليطلة: ٢٥٦، ٢٦٠، ٤٣٥
طنجة: ٢٥٥، ٢٥٧، ٣٧٦

حرف الظاء

ظفار: ١٢، ٣٠

حرف العين

العالية: ٤٩
العباسية: ١٩٥
عدن: ٢٥
العراق: ١١، ١٢، ٢٤، ٢٦، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤١، ٦٣، ٦٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٧، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٥٢، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٩٤، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١،

٣٤٣، ٣٤٨، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩١، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٨
العرج: ٨٦
العروس: ١٢
العريش: ١٩٤
عسفان ٨٦، ٢٠٥
عسقلان: ١٩١
العسكر: ٣٧٧، ٤٢٥
العقبة ٨٢، ٢٣٩
عكا: ١٩١
عمان: ١٢، ١٥، ٥٦، ٢٥٢، ٣٧٥، ٤٢٢
عُمان: ١١٧
عمورية. ٢١٣
العواصم: ٣٨٢
عين شمس: ١٩٥، ٢٢٢
عين الوردة: ٣٢٩

حرف الغين

غالة: ٢٦٣
غرناطة: ٢٦٠، ٤٣٥
غزة: ٥٦، ١٩٠، ١٩١
غسان (مدينة بالشام): ١٥
غمدان: ١٢
غمر العربات: ١٨٦
الغور: ١٨

حرف الفاء

فارس: ٣١، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٥٧، ٦٤، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٩٣، ١٩٤، ٢١٤، ٢٥١، ٢٥٦، ٣١٥، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٩٤، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٣٤
الفاريات: ٢١٣، ٢٣١
فاندلوسيا: ٢٥٤
فحل: ١٨٩، ١٩٠
فدك: ١١٣، ١١٤، ١١٥
الفرات: ١٠، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٥٦، ٣٠٣، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٨٩، ٤٢٤
فرعانة: ٢٤٩، ٢٥٠
الفرما: ١٩٤، ١٩٥
الفسطاط: ١٩٦، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٩٧، ٣٧٧، ٣٨١، ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٢٧
الفلاليج: ١٨١
الفلح: ٢٤
فلسطين: ٩، ١٠، ١٤، ٢٨، ٣٩، ٥٧، ٦٤، ٦٥، ١٢٣، ١٣٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ٢٢٢، ٢٧٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٢، ٣٩١

حرف القاف

قادس: ٢٣١، ٢٦١
القادسية. ١٨١، ٣١٩
قاليقلا: ٢١٣
القاهرة: ١٠
قباء: ٨٧
قبة البهو: ٤٣١
قبرص: ٢١٢، ٢١٣، ٣٩٥
القبط: ٣٧٠، ٣٨٢، ٣٨٨، ٤٢٨
قديد: ٨٦، ١٠٤
قرطبة: ١٧٩، ٢٦٠، ٤٣٥
قرقيساء: ٣٧٢، ٤٢٤
قرمونة: ٢٦٠
القسطنطينية: ٤١، ١٣٦، ١٣٧، ١٧٩، ١٩١، ١٩٦، ٢٠٣، ٢٣١، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٥، ٣٣٦

قشتالة: ٢٦١
قشمير: ٢٥٤
قضة: ٢٤
قطلونية: ٢٦١
القطيف: ١٣
القلزم: ٢٢٢، ٤٣٤
قمبز: ٤٢، ١٩٤
قنسرين: ٤١، ١٩٠، ٢٧٣، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٢
القنطرة: ١٩٥
قنطرة قرطبة: ٢٦٣
القوقان: ٢٥٣
قومس. ١٨٢
القيروان: ٢٣٢، ٢٥٩، ٣٧٦، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣١
قيسارية (قيصرية): ١٩٠، ١٩١، ٢٤٢، ٢٤٣
القيقان: ٢٥٢، ٢٥٣

حرف الكاف

كابل: ٢٥٢
كارنا (قارنا): ٢٥
كاشان: ٢٥٠
كراتشي: ٢٥٢
كربلاء: ٢٣٦، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٢
الكرخ: ٢١
كرمان: ٢٤٤، ٣١٥، ٣٧١، ٣٧٥
كرمينية: ٢٤٨
كشي: ٢٤٥، ٢٤٩
الكعبة: ٢٣، ٣١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٦، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٧٤، ٧٩، ١١٠، ١١٦، ١١٧، ١٤٤، ١٥٤، ١٧٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٤٧
الكناس: ٤٤١
كنيسة القديس يوحنا: ٤٢٩
كوثي. ١٨١
كورة اشقوة: ٣٦٩
كورة ريه ٢٦٠
الكوفة: ٣٤، ١٨٠، ٢١٣، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٩٨، ٤٠٣، ٤٠٩، ٤١١، ٤١٣، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٤١، ٤٤٦
الكويت: ١٣
كيرش: ٤٢

حرف اللام

لاهور: ٢٣٠
لبنان: ٣٩
لد: ١٩١
ليبيا: ٣٧١
ليون: ٢٦٣

حرف الميم

ماء الحواب: ٣٠٠
مأرب: ١٢، ١٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٩
ماردين: ٣١٨
ماسبذان: ٣٧٢
ما وراء النهر: ٢١٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٦، ٣٧٥
مجدل: ١٩٥
المحفوظة: ٢٥٤
المحيط الاطلسي: ٢٥٦، ٤٣٣
المحيط الهندي: ١١، ١٢
مخا: ٣٠
المدائن: ١٣٦، ١٨٢، ٢٠٧، ٣٠٨، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٩، ٤٢٣، ٤٢٤

المـدينـة: ١١، ١٢، ١٥، ٢١، ٢٣، ٣٤، ٦٣، ٧٩، ٨٦، ٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٤، ١٥١، ١٧٠، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤- ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١، ٣١٨، ٣٢٦، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٥٧، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧١، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٨

المذار: ٣١٣

مرج حليمة: ٣٨

مرج دابق: ٢٦٥

مرج راهط: ٢٣٩، ٢٧٧

مرج الصفر: ١٨٩

مرسية: ٤٣٥

مـرو الـروذ: ٢١٣، ٢٣١، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٣٧٥

مريابة: ٢٧

المريسيع: ١٠٤، ١٠٥، ١٢٨

المسجد الجامع: ٢٣٢، ٤٢٦

المسجد الحرام: ٨٠، ٩١، ١٤٥

المسجد الاقصى: ٨٠

مـصـر: ٩، ١٢، ٢٨، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ١٣١، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٥، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٩، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٣، ٤١٠، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٤١

المصيصة: ٢٤٣، ٣٣٠

معين (مدينة): ٢٦

المغرب: ٣٦، ٢٣٢، ٢٥٥، ٢٧٠، ٣٤٩، ٤٠١

المغمس: ٤٦

المقصورة البيضاء: ٣٢٥

مكـة: ١٢، ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٣، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٨، ١٤٤، ١٥١، ١٦٩، ١٧٣، ١٩١، ٢٠٨، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٧٤، ٢٨٥، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٠٨، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٨، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٣٨، ٤٤٧

مكران. ٣٧١

الملتان: ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤

ملخ: ٢٥

منى: ٢١٧

مهرة: ١١٧، ٢٨٨

مؤتة: ١١٤، ١١٥

الموصل: ١٨، ٣١٧، ٤٢٤، ٤٤٢

حرف النون

نابلس: ١٩٠، ١٩١
نجد: ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٥٣، ٩٨، ١١٧
النجف. ٣٤، ٣٦
نحران: ١١، ١٢، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٦٥، ١١٧، ٢٨٧، ٣٧١
نخلة: ٥٣، ٥٥، ١١٩
نربونة: ٢٦٣
نسا: ٢١٣
نسف. ٢٤٩
نصيبين: ٣١٧، ٣١٨
نقيوس: ١٩٧، ١٩٨، ٢١٤
نهاوند: ١٨٢
نهر جيحون (سيحون): ٣١، ٢١٣، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٧٣
نهر الخازر: ٣٣٠
نهر دجيل: ٣١٦
نهر الفرات: ١٨، ٣٤، ١٨٠
نهر اللوار: ٢٦٣
نهر الملك: ١٨١
نهر مهران (سابقاً نهر السند): ٢٥٣
نهر وادي لكه: ٢٥٩
نهر اليرموك: ١٨٨
النهروان: ٣٠٩، ٣١١، ٣١٢
النهرين: ١٠، ١٨١، ٣٨٠
نهير الصراة: ٣١٢
النوبة: ٢١٥، ٢١٦
نيسابور: ٢١٣
النيل. ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩، ٤٢٥
نينوى: ١٣٦

حرف الهاء

هجر: ١٣، ٢١، ٢٤
هراة: ٢١٣، ٢٣١
هرقلية: ٢٣٣
هرمز: ٣٨٠
همذان: ١٨٢، ٢٥٧، ٣٧٢، ٤٢٤
الهند: ٣٣، ٥٦، ١٧٩، ١٩٤، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٧٦، ٤٢٣

حرف الواو

وادي بكة: ٢٥٩
وادي الحارة: ٢٦٠
وادي حنين: ١١٩
وادي الدهناء: ١٣، ١٦
وادي الرجيع: ١١٥
وادي الرمة: ٢٤
وادي شبوان: ٢٨
وادي الطليمات: ١٩٥
وادي العتيق: ٨٦، ٤٢٢
وادي فاطمة: ٤٣
وادي القرى: ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٦، ٦٥، ٨١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ٣١٨
وادي الأردن: ١٨٦
وادي مكة: ٤٣
وادي وج: ٢٠
واسط: ٢٦٦، ٣١٣
الواقوصة: ١٨٨
وج: ١٩، ٢٠
الوندال: ٢٥٤

حرف الياء

يافا: ١٩٠
يثرب: ١٣، ٣١، ٣٩، ٦٥، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ١٠٥، ١١٢، ٢١٩
اليرموك: ٣٩، ٤٢، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١

يغوث: ٦٤
اليمامة: ١٢، ١٣، ٢١، ٢٤، ١٣١، ٢٨٨، ٣١٤، ٤٠٨
اليمن: ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٥٦، ٥٧، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٧٧، ١١٧، ١٣٣، ١٣٤، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣١٨، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٨، ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٥، ٣٨٨، ٤٢٤، ٤٤٥، ٤٤٦
اليونان: ١١، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣٤، ٢٥٨، ٣٤٦، ٣٧٠، ٤١٩

فهرس موضوعات الجزء الأول

كلمة الناشر

الباب الأول: العرب قبل الإسلام

وصف بلاد العرب ٧
الشعوب العربية ١٣
الممالك العربية قبل الإسلام ٢٣
معين ٢٣
مملكة سبأ ٢٥
مملكة حمير ٢٨
مملكة الحيرة ٣١
مملكة غسان ٣٧
بلاد الحجاز ٤٠
الحالة السياسية ـ ٤٦
أنواع الحكم في بلاد العرب ٤٦
أيام العرب ٤٧
التجارة في بلاد العرب ٥٤
الحالة الاجتماعية ٥٦
الحالة الأدبية ٥٨
الحالة الدينية ٦٠

الباب الثاني: البعثة النبوية

الرسول منذ أن ولد إلى أن بُعِثَ ٦٥
بعثة الرسول ٦٧
الجهر بالدعوة ٦٩
الهجرة إلى الحبشة ٧٥
الهجرة إلى يثرب ٧٧
حكومة نظامية في المدينة ٨٥
الجهاد وأغراضه ٨٨
الغزوات والسرايا ٩٠
غزوة بدر الكبرى ٩٠
غزوة أحد ٩٣
غزوة الأحزاب ٩٦
غزوة بني قريظة ١٠٠
غزوة بني المصطلق ١٠٢
حادثة الإفك ١٠٤
الهدنة مع قريش ١٠٦
موقف اليهود من المسلمين ١٠٩
غزوة خيبر وغزوة مؤتة ١١٢
فتح مكة ١١٤
غزوتا حنين والطائف ١١٦
غزوة تبوك ١٢١
وفاة الرسول ١٢٣

الباب الثالث: أثر الإسلام في العرب

عموم الرسالة المحمدية ١٢٩
كتب الرسول إلى الملوك والأمراء ١٢٩
المستشرقون والرسالة ١٣٦
الأثر الديني ١٤١
الأثر الاجتماعي ١٤٤
الأثر الأدبي ١٥٦
الأثر السياسي ١٥٨
بين الجاهلية والإسلام ١٥٩

الباب الرابع: الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق ـ ولادته ـ توليته الخلافة ١٦٧
بيعة السقيفة ١٦٨
صفات أبي بكر ١٦٩
عمر بن الخطاب ـ ولادته ـ توليته الخلافة ١٧١
اسلام عمر ١٧١
بيعة عمر ١٧٣
الفتوح الإسلامية ـ عوامل الفتوح ١٧٤
فتح العراق وفارس ١٧٨
أثر الفتح العربي في بلاد فارس ١٨٢
فتح الشام وفلسطين ١٨٣

موقعة اليرموك ١٨٥
فتح دمشق وبيت المقدس ١٨٧
فتح مصر ١٩٠
فتح حصن بابليون ١٩٣
فتح الإسكندرية ١٩٤
أثر فتح مصر ١٩٦
صفات عمر ـ وفاته ٢٠١
عثمان بن عفان ـ ولادته ـ توليته الخلافة ٢٠٦
قصة الشورى ٢٠٧
الفتوح في عهد عثمان ٢١٠
صفات عثمان ـ وفاته ٢١٤
علي بن أبي طالب ـ ولادته ـ توليته الخلافة ٢١٦
بيعة علي ـ سياسته ٢١٧
صفات علي ـ وفاته ٢٢٢

الباب الخامس: الخلفاء الأمويون

معاوية بن أبي سفيان ـ ولادته ـ توليته
الخلافة ٢٢٦
الفتوح في عهد معاوية ٢٢٨
تولية يزيد العهد ٢٣٠
صفات معاوية ـ وفاته ٢٣٢
يزيد بن معاوية ـ توليته
الخلافة ٢٣٤
خروج بلاد الحجاز ـ غزو مكة ٢٣٤
معاوية الثاني ٢٣٥
مروان بن الحكم ـ منذ ولد إلى أن ولي
الخلافة ٢٣٦
الحرب الأصلية ٢٣٦
عبد الملك بن مروان ـ منذ ولد إلى أن
ولي الخلافة ٢٣٨
الدولة الأموية في عهد عبد الملك ٢٣٩
صفات عبد الملك ٣٤٤
الوليد بن عبد الملك ـ توليته
الخلافة ٢٤٥
الفتوح في عهد الوليد ـ فتح بلاد ما
رواء النهر ٢٤٥
محاولة فتح بلاد الصين ٢٤٨
فتح بلاد السند ٢٥٠
فتح بلاد الأندلس ٢٥٢
سليمان بن عبد الملك ٢٦٣
فتح القسطنطينية ٢٦٣
تنكيله بولاة أخيه الوليد ـ وفاته ٢٦٤
عمر بن عبد العزيز ـ منذ ولد إلى أن ولي
الخلافة ٢٦٥
خلافة عمر ٢٦٦
إصلاحات عمر ٢٦٧
يزيد بن عبدالملك ٢٦٩
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ٢٧٢
مروان بن محمد ٢٧٣
سقوط الدولة الأموية وأسبابه: تولية العهد
الثنين ٢٧٣
ظهور روح العصبية ٢٧٤
انغماس بعض الخلفاء في الترف ٢٧٨
تعصب الأمويين للعرب ٢٧٨

الباب السادس: الحركات السياسية والدينية

تمهيد ٢٨٠
ردة العرب ٢٨٢
موقف أبي بكر من المرتدين ٢٨٤
موقف الإسلام من المرتدين ٢٨٧
الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان ٢٩٠
الأحزاب بعد مقتل عثمان ٢٩٧
موقعة الجمل ٢٩٧
موقعة صنين ـ الحكيم ٣٠٠
الخوارج ـ نشأتهم، يوم النهروان ٣٠٧

الخوارج في عهد معاوية ٣٠٩
الخوارج في عهد معاوية ٣٠٩
الخوارج في عهد عبد الملك ٣١٢
الخوارج في عهد عمر بن عبد العزيز ٣١٤
أبو حمزة الخارجي ٣١٥
نظرية الخلافة عند الخوارج ٣١٦
فرق الخوارج ٣١٨
الشيعة ـ نشأته ٣٢٢
الشيعة في عهد معاوية ٣٢٣
مأساة كربلاء ـ التوابون ٣٢٤
المختار بن أبي عبيد ٣٢٨
الكيسانية ٣٢٩
خروج زيد بن علي ٣٣١
عقيدة المهدي ٣٣٢
حزب الزبيريين ـ نشأته ٣٣٣
الدعوة لابن الزبير ٣٣٥
عوامل انحلال حزب الزبيريين ٣٣٨
المرجئة ٣٣٩
المعتزلة ٣٤١
علاقة المعتزلة بالشيعة والخوارج ٣٤٣

الباب السابع: نظم الحكم

النظام السياسي ـ الخلافة ٣٤٩
الوزارة ٣٥٩
الكتابة ٣٦٠
الحجابة ٣٦٠
النظام الإداري ٣٦١
الدواوين ٣٦٢
الإمارة على البلدان ٣٦٨
البريد ٣٧٤
الشرطة ٣٧٤
النظام المالي ٣٧٥
موارد بيت المال ٣٧٥
مصارف بيت المال ٣٨٧
النظام الحربي ـ الجيش ٣٨٩
البحرية ٣٩٢
النظام القضائي ـ القضاء ٣٩٤
الحسبة ٣٩٨
المظالم ٣٩٩

الباب الثامن: الثقافة والفن

الثقافة ٤٠٣
تقسم العلوم: العلوم النقلية ٤٠٥
العلوم العقلية ٤١٥
الفن ٤١٨
العمارة ـ المدن ٤٢٠
المساجد ٤٢٥

الباب التاسع: الحالة الاجتماعية

طبقات الشعب ٤٣١
مجالس الغناء والطرب ٤٣٣
قصور الخلفاء الأمراء ٤٣٧
الطعام ٤٤١
الملابس ٤٤٢
المرأة ٤٤٤
أنواع التسلية ٤٤٦
مصادر الكتاب ٤٤٩

الفهارس العامة
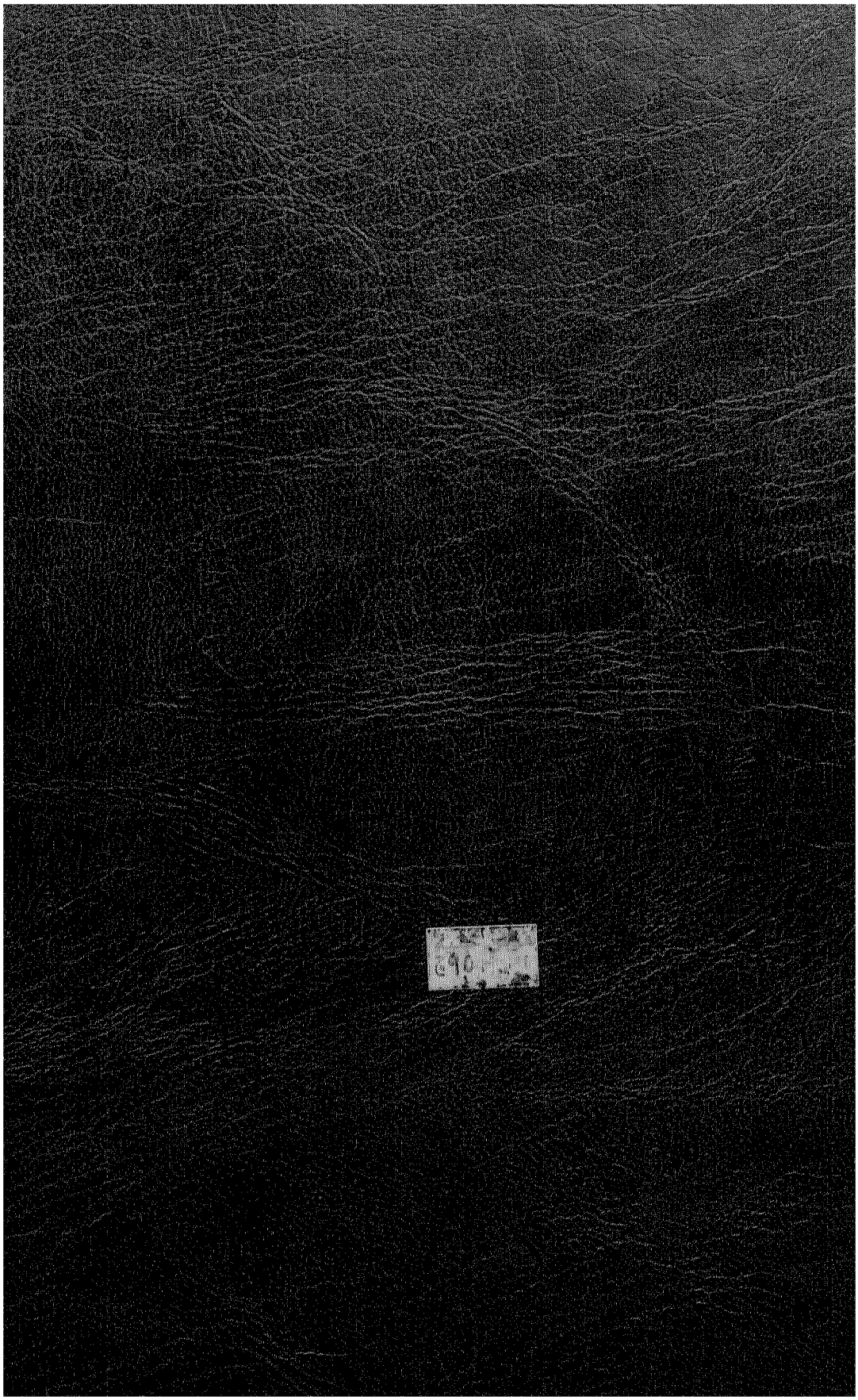
فهرس الأعلام ٤٦٢
فهرس القبائل والمذاهب والشعوب ٤٧٨
فهرس الأماكن والمواقع الجغرافية ٤٨٧
فهرس الموضوعات ٤٩٤